منير شحود

الانفجار السوري الكبير

الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين



الانفجار السوري الكبير

الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين

منير شحود

الانفجار السوري الكبير

الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين

منير شحود



منير شحود
الانفجار السوري الكبير، الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين
268 ص، 24 سم.
يشتمل على فهرس عام.



العنوان بالإنكليزية
The Great Syrian Explosion
Freedom and Dignity Among the Claws of Predators
Munir Shahood



هاتف
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
غازي عنتاب، تركيا: +90 342 3265885

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@darmaysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.darmaysaloon.com

الطبعة الأولى

غازي عنتاب، تشرين الثاني/ نوفمبر 2017

"يا ولدي، حياتنا مليئة بالآلام والآثام، أولئك الجهَّال أرادوا الخلاص من موروث القهر بالقهر، ومن ميراث الاضطهاد بالاضطهاد، وكنت أنت الضحية"

الأسقف نسطور المرعشلي[1]

[1] ولد الأسقف نسطور في قرية مرعش شمال غرب مدينة حلب سنة 380 بعد الميلاد، واشتُقَّ من اسمه مذهبُ النساطرة المسيحي. وصل إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية سنة 428، ومات منفياً سنة 449.

المحتويات

تقديم
الأنظمة الاستبدادية: تعددت الأسباب والموت واحد

لكلّ نظام استبدادي طريقته في الموت؛ في صراعٍ داخلي، أو في مواجهة قوة خارجية، أو بوصوله إلى طريقٍ مسدود وتفكّكه بفعلٍ تبدلات الزمن. تسبّبت منذ بداية القرن العشرين الأيديولوجيات الشمولية بالمزيد من الكوارث من جرّاء طموح قادتها وحشدهم للجماهير وراء أهداف قومية أو دينية أو مثالية، في أوضاع تاريخية محدَّدة، مستغلين حاجة الجموع الجاهلة والمُجهَّلة لاسترداد كرامة مفقودة أو أمجاد ضائعة أو التعلُّق بأحلام مستحيلة.

حشدت النازية في ألمانيا وحليفتها الفاشية في إيطاليا الجماهير وراء شعارات قومية وعنصرية، واندفعت في محاولة مجنونة إلى السيطرة على العالم في الحرب العالمية الثانية التي انتهت بهزيمتهما الساحقة، بعد أن خسرت أوروبا عشرات الملايين من الضحايا وكثير من المدن المدمَّرة، في أفدح الكوارث الحربية عبر التاريخ.

في السبعينيات، بعد وفاة مؤسسه، استنفذ نظام الجنرال فرانكو في إسبانيا طاقته العنفية، وتحوَّل تدريجيًا نحو الديمقراطية من خلال استعادة المَلَكية الدستورية السابقة للحرب الأهلية[2].

كما سقط نظام بينوشيت في تشيلي في الثمانينيات تحت وطأة التظاهرات الشعبية والتحالف بين القوى اليسارية والكنيسة الكاثوليكية[3]، وحدث مثل ذلك لمعظم دكتاتوريات أميركا اللاتينية.

---

[2] نشبت الحرب الأهلية الإسبانية (1936- 1939) بين الجمهوريين والقوميين إثر الانقلاب على الشرعية الذي قامت به بعض الجنرالات ومنهم فرانكو. تدخلت الأطراف الخارجية في هذه الحرب، إذ ساعد الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه الجمهوريين، في حين دعمت إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية القوميين والانقلابيين.

[3] أدى تحالف القوى اليسارية مع "لاهوت التحرير"، الذي يتبع الكنيسة الكاثوليكية (تحالف قوى الشعب) دورًا مهمًا في دحر الدكتاتوريات في بلدان أميركا اللاتينية. ارتبطت الكنيسة الكاثوليكية في هذه البلدان بمساعدة الفقراء بخلاف الكنيسة الأم في روما.

أقامت الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي السابق، أنظمةً بوليسية يقود في كلّ منها حزبٌ واحد وزعيمٌ أوحد، وتحققت فيها تطورات اقتصادية مهمة؛ لكن بأثمان باهظة تمثلت بمقتل الملايين، والزجّ بالآلاف في المعتقلات السرية كقربان يقتضيه الوصول إلى الجنة الأرضية الموعودة- الشيوعية. أسس ذلك على فكرة لينين المتمثلة بإمكانية بناء الشيوعية خارج حلقة البلدان الرأسمالية المتطورة، بخلاف ما ذهبت إليه الماركسية التقليدية[4].

استرخصت الأنظمة الشيوعية الإنسان تحت مسميات الصراع الطبقي والثورات الثقافية، وطُبّقت فيها أساليب عمل أقرب إلى العبودية. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تحولت هذه الأنظمة بالتدريج إلى مجرد هياكل فارغة بعد استنفاد طاقتها التاريخية، ثم انهارت كأحجار الدومينو في نهايته[5]. ولم يحلْ امتلاك الاتحاد السوفياتي لآلاف الرؤوس النووية دون انهياره المدوّي.

[4] اعتبرت الماركسية، على وجه التقريب، المرحلةَ الشيوعية تتويجًا للرأسمالية في أقصى مراحل تطورها.

[5] سقط الدكتاتور الروماني تشاوشيسكو بعد انتفاضة عسكرية مفاجئة عام 1989، وأُعدم مع زوجته بصورة دراماتيكية. كما سقط جدار برلين في العام ذاته وانفصلت دول أوروبا الشرقية تباعًا عن المركز السوفياتي، وتفكك الاتحاد السوفياتي أواخر عام 1991.

لاقى نظام طالبان القروسطي في أفغانستان المصير نفسه على يد القوات الأميركية[6] عام 2001، وسقط نظام صدام حسين بالضربة القاضية في عام 2003 بعد إضعاف نظامه وإنهاك المجتمع العراقي بالعقوبات الأممية التي تلت غزوه للكويت وحرب الخليج الأولى التي استتبعته[7].

كان للصين الشيوعية طريقها الخاص، إذ قاد دينغ سياو بينغ عام 1978 بعد وفاة ماو تسي تونغ عام 1976، تحولات اقتصادية عميقة أفضت إلى ما يسمى "اشتراكية السوق"؛ لكن بتخطيط مركزي[8]. انتشلت التحولات الاقتصادية الجديدة عشرات ملايين الفلاحين من تحت خط الفقر، ونما الاقتصاد بصورة مضطردة وبنسب فاقت الـ 10 في المئة سنويًا. كان ذلك مخرجًا تاريخيًا مناسبًا للصين كمرحلةٍ انتقالية؛ لكن بثمن سياسي باهظ، ولو من الناحية الرمزية، إذ قُمع المطالبون بالديمقراطية في ساحة تيانانمن بتاريخ 4 حزيران 1989. وبعد مضي أكثر من ثلاثة عقود، حمل التطور الاقتصادي والتقني كثيرًا من الحريات للصينيين، وتحول الحزب الشيوعي الحاكم إلى ما يشبه جهازًا إداريًا لتنظيم عملية التطور المتسارعة، ولن يطول الأمر كثيرًا حتى تحلق الصين، البلد الأكبر في العالم من حيث تعداد السكان، بجناحيها الاقتصادي والديمقراطي معًا.

***

---

[6] بدأ الهجوم الأميركي على منظمة القاعدة وحماتها من حركة طالبان في 7 تشرين أول/ أكتوبر عام 2001؛ بعد هجوم القاعدة على برج التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من العام نفسه.

[7] غزا النظام العراقي الكويت في 2 آب/ أغسطس 1990، ونشبت حرب الخليج الأولى في بداية عام 1991.

[8] http://www.chinaasia-rc.org/index.php?p=32&id=414

ومع مجيء "الربيع العربي[9]"، انهار نظاما الحكم في تونس ومصر بسرعة مقارنة بنظام القذافي في ليبيا، على الأرجح؛ بسبب المستوى الأقل نسبيًا لاحتكار السلطة، والحدّ الأدنى من الحريات وتجارب التنوير السابقة في هذين البلدين، وما تميَّزت به تونس في عهد الرئيس بورقيبة من إرساء الكثير من الحقوق المدنية خاصَّة[10].

تعقَّد الوضع في اليمن لأسباب عدّة؛ منها النزاعات القبلية والتدخلات الخارجية. ودخلت الحالة السورية في أسوأ السيناريوهات، إذ تحولت المطالبات المشروعة بالحرية والكرامة إلى صراع عدمي مسلّح عزّزه تدخل الأطراف الإقليمية والدولية التي عملت على إيقاظ السعير الطائفي من رقاده أو تصفية حساباتها على الأرض السورية، ما حجب المسألة الأساس؛ تجاوز حالة الاستبداد إلى استعادة الديمقراطية الغضّة التي عاشها السوريون في منتصف الخمسينيات.

لم يكتمل الاندماج الوطني السوري بعد الاستقلال جراء الانقطاع التاريخي الذي تلا بضع سنوات فقط من ممارسة الديمقراطية[11] كمنتج لثقافة مدينية برجوازية ضعيفة التي ما لبثت أن اجتاحتها موجتا المدّ القومي الناصرية (1958) والبعثية (1963). وتعرّض المشروع القومي العربي العاطفي، برمّته، إلى هزيمة ساحقة في حرب العام 1967.

---

[9] انطلقت الاحتجاجات في تونس في 17 كانون أول/ ديسمبر 2010، بسبب حادثة البوعزيزي؛ البائع الذي أحرق نفسه أمام مقر ولاية سيدي بوزيد؛ احتجاجًا على مصادرة شرطة البلدية لعربة بيع الخضار خاصته. اعتُبرت هذه الحادثة الشرارة الأولى لاندلاع أحداث "الربيع العربي"، ويالها من شرارة!

[10] لعلّ من أهمها المساواة الحقوقية بين النساء والرجال، بما في ذلك منع تعدد الزوجات.

[11] 1954- 1958، أي: منذ سقوط الشيشكلي وحتى قيام الوحدة المصرية- السورية.

إنّ عدم قدرة طبقة الصناعيين[12] على تمدين الريف لفتح أسواق جديدة، وصراعها المرير مع الإقطاع حول إجراءات الإصلاح الزراعي، سمح للبعثيين بالنفاذ إلى السلطة في سورية والقيام بالإصلاح الزراعي والتأميم، ولو بصورة ارتجالية، الأمر الذي أكسبهم تأييد الأوساط الريفية الفلاحية التواقة للتخلص من مختلف المظالم الاجتماعية المتراكمة منذ العهد العثماني.

منذ وصوله إلى السلطة، عشَّشت في حزب البعث مختلف العصبيات المذهبية، وتسلسلت عمليات الإقصاء حتى وصلنا إلى حكم الفرد الواحد عام 1970 ووريثه عام 2000، بالتوازي مع ترسيخ نظام أمني شمولي متعدد الارتباطات والركائز في المجتمع السوري.

في تلك الأثناء، تراجعت عملية التمدُّن التي كانت تجري بصورةٍ بطيئة وطبيعية منذ بدايات القرن العشرين، وانقلب اتجاه هذه العملية التاريخية لصالح تشكيل ثقافة هجينة، مدينية- ريفية، فبدا وكأنّ هاتين الثقافتين تلاقتا في منتصف الطريق وسدَّت كلّ منهما الطريق على الأخرى!

***

[12] كان خالد العظم وعبد الرحمن الشهبندر من أبرز ممثلي هذه الطبقة، ومن مؤيدي تطوير الريف وحلّ المشكلة الفلاحية.

تميز نظام الحكم في سورية بطبيعته الاستبدادية الشمولية منذ بداية الثمانينيات على الأخصّ، إذ ضاقت حرية التعبير السياسية أو انعدمت، وحُطِّم ما تبقّى من البنى الأهلية والمدنية، وحُظر النشاط السياسي، فعاش الناس في كنف سلطة جمعتهم لتراقبهم وتفرّق بينهم؛ كان ثمة تعايش، ولم يكن ثمة مواطنة بحقوقٍ وواجبات، إلا على أوراق الدستور المنسيّة.

قبل ذلك وبعده، كان حزب البعث مطيةً لتنفيذ سياساتٍ صِّيغت في دوائر ضيقة استحوذت على السلطة وتقاسمت الثروة والنفوذ بحماية منظومة أمنية معقدة، واحتفظ هذا الحزب بمشروعية هيمنته الشكلية على المجتمع من خلال المادة الثامنة من الدستور السابق، ولم يتغير شيء عمليًا بعد إلغاء هذه المادة في الدستور الجديد [13]!

لم تكن الموارد المادية قادرةً على تحسين أوضاع العيش نوعيًا؛ بالنظر إلى تصاعد عمليات النهب وغياب الشفافية والصحافة الحرة ورقابة المجتمع المدني المكبّل بالمخاوف؛ وبسبب موروث ثقيل من الفقر والجهل وارتفاع نسبتي الأميّة والولادات، ووجود كمّ هائل من الأعراف والتقاليد التي لا تساهم في تحرير طاقات الأفراد وتحقيق ذواتهم، في نمط من العلاقات يقوم على التّلقين لا على رعاية التفكير المستقل، فساهم ذلك في تعزيز الاستبداد السياسي لا في تقويضه؛ الاستبداد الذي حمل في أحشائه جنين استبداد إسلامي أمرّ وأدهى.

---

[13] اعتمد الدستور الجديد في 27/2/ 2012.

من الناحية السياسية، ومنذ انقلاب 1970[14]، تمثّل النشاط المعارض للسلطة بنشاط حزب "الإخوان المسلمين" في أحياء المدن القديمة والضواحي ذات الأغلبية السنيّة، في صفوف الطبقة الوسطى أساسًا، فيما نشطت الأحزاب اليسارية والقومية بصورة عابرة للمذاهب؛ لكن بنسبة أكبر في بيئات الأقليات الدينية والعرقية[15]. لم يكن أي من هذين الطرفين السياسيين قادرًا على تشكيل رافعة وطنية معارضة، كما لم ينجم عن تحالفهما أحيانًا [16] نتائج سياسية تذكر؛ بسبب ميلان الكفّة لصالح "الإخوان"، الذين استغلوا حالة الكتلة الشعبية "الخاملة"، تاريخيًا، والمنقادة بثقافة دينية مفوَّتة.

أما الأحزاب اليسارية، مع أن أدبياتها كانت متجاوزة للواقع نظريًا، فلم يكن لديها برامج فعلية تختبر فيها صلاحية نظرياتها على أرض الواقع، فظهر أنّ ثمة انفصامًا بين الرؤى المكتوبة والواقع المعيش. كما أنّ الأفكار ذاتها لم تكن، في معظم الأحيان، سوى قشرة رقيقة حجبت الانتماءات القبْلية ولم تتجاوزها، ما يفسر، ولو جزئيًا، تحلُّل هذه الأحزاب وانكفاء كثير من أعضائها إلى انتماءاتهم السابقة، بخاصة بعد عام 2011.

---

[14] ما سمي بالحركة التصحيحية.

[15] على سبيل المثال، وجود نسبة أكبر من اليساريين بين العلويين والمسيحيين والأكراد.

[16] كما في التحالف بين الإخوان وبعض الأحزاب اليسارية، وعلى رأسها الحزب الشيوعي- المكتب السياسي أوائل الثمانينيات. استعيدت تجربة هذا التحالف في 2011 عند تشكيل "المجلس الوطني السوري"؛ لكن من خلال تجمع يساري جديد هو إعلان دمشق، وضمن شروط التحالف ذاتها تقريبًا، ما قاد إلى فشلٍ آخر وأكثر مأسوية؛ بسبب الظروف المعقّدة التي استجدّت هذه المرة.

لا نغفل أيضًا العامل الأهم الضاغط على النَّفَس السياسي، ألا وهو ساطور القمع. فمنذ بداية الثمانينيات أصبحت التُّهم جاهزة، وتراوحت بين السجن والإعدام لعناصر حزب "الإخوان المسلمين"[17]، الذي كان اختار أيضًا استخدام السلاح كوسيلة للتغيير في النصف الثاني من السبعينيات، وتهمة "وهن نفسية الأمة" لأعضاء باقي الأحزاب، ما يفضي إلى الزجّ بهم في السجون لسنوات من دون محاكمة أو بمحاكمات صورية.

***

حين حصل التوريث "الانتخابي" عام 2000، كان السوريون ما يزالون شبه مخدَّرين بثلاثة عقود من الموات السياسي، يحدوهم الأمل في أن يثمر العهد الجديد عن بعض التجديد في المياه السورية الراكدة؛ لكنَّ التغييرات جاءت بخلاف المتوقَّع والمأمول.

في العهد الجديد، بعد عام 2000، اعتمدت سياسة "اقتصاد السوق" واللبرلة الاقتصادية لمصلحة الفئات البرجوازية المحمية من قبل النظام والمرتبطة بفساده وسياساته. استفاد أرباب الاقتصاد السوري الجدد هؤلاء من غياب الحريات السياسية والإعلامية للدفع باتجاه انفتاحٍ اقتصادي يساعدهم في الحصول على الربح- النّهب غير المحدود؛ لكنّه وضع في دائرة الخطر قاعدة الاقتصاد السوري المؤلفة من الورش والأعمال الصغيرة، التي تمتَّعت لسنوات عديدة ببعض إجراءات الحماية الحكومية في مواجهة السلع الأجنبية الأكثر تطورًا والأرخص ثمنًا، وسيكون ذلك من بين أسباب اندلاع الاحتجاجات عام 2011 في الأحياء الفقيرة والمهمَّشة. ولم تعمل السياسات الحكومية على تحسين أوضاع العمل المتخلِّفة؛ لتتمكّن الصناعة المحلية والورش الصغيرة من الاندماج بالدورة الاقتصادية العالمية من خلال تحسين مواصفات السلع.

---

[17] القرار 49 لعام 1980، القاضي بإعدام أعضاء حزب الإخوان المسلمين.

في هذا السياق، عُقدت الاتفاقات الاقتصادية المجحفة مع الخارج، مع تركيا[18] خاصَّة، وارتفعت نسبة البطالة إلى درجة لم تستطع السياسات الحكومية استيعاب أكثر من خُمس الوافدين الجدد إلى سوق العمل سنويًا[19]. لا نغفل بالطبع موجة الجفاف التي تعرضت لها الجزيرة السورية بين عامي 2008 و2010، المخزن الغذائي لسورية التي أدّت إلى إفقار ونزوح آلاف الأسر. بالنتيجة، أُعيد توزيع السلطة والثروة في أوساط النُّخب الاقتصادية العليا، وقلّت فرص الهجرة التي كانت، وما زالت، سبيلًا مهمًا لكسب العيش بالنسبة إلى مئات الآلاف من السوريين.

في هذه الأثناء، استمر النظام بإغلاق المنافذ كافَّة في وجه أي إصلاحات أو مطالبات سياسية، وواصل اختراع التوصيفات الأيديولوجية لاستمراره في الحكم، مثل ادّعاء "المقاومة والممانعة"[20]، في مفارقة مؤلمة انطلت على بعضهم، فيما كان جنود العدو يتثاءبون على أرض جولاننا الغالية من فرط الانتظار، وفي وقت تشير فيه جميع التقديرات العقلانية إلى عدم إمكانية الفوز في أي حرب، في المدى المنظور على الأقل.

---

[18] اتفاقية التجارة الحرة مع تركيا عام 2004 التي دخلت حيز التطبيق في عام 2007. انظر حول الأسباب الاقتصادية للثورة السورية ما ورد في كتاب عزمي بشارة "سورية ودرب الآلام نحو الحرية"، ص، 290- 298.

[19] قُدِّر عدد الوافدين إلى سوق العمل سنويًا في العقد الأول من القرن 21 بـ 250 ألفًا، بينما بلغت القدرة على التوظيف بحدود الـ 50 ألفاً (إحصاءات شبه رسمية).

[20] تعني كلمة "ممانعة" سياسيًا بقاء حالة "اللاحرب واللاسلم" التي تناسب النظام وأعوانه من أجل الاستمرار في الاستحواذ على السلطة والثروة بهدوء؛ لكن من دون القطع مع فكرة الحرب وتحرير الأرض بالقوة، كضربٍ من إلهاء الناس وإبعادهم عن التفكير بمصالحهم الملموسة. وتعني كلمة "مقاومة" عمليًا الدفع بالمنظمات الحليفة، كحزب الله وبقايا التنظيمات الفلسطينية، إلى مناوشة العدو الإسرائيلي بين الفينة والأخرى؛ بغية تبرير الشعارات المرفوعة.

هكذا، على امتداد عدة عقود، كانت سورية مثل بحيرة راكدةٍ وراء سدٍّ محكم، وقد حجب السكون الخادع كمًّا هائلا من التفاعلات والتخمُّرات التي كانت تحدث في أعماق البحيرة وتهدِّد بانفجارها، ما لم تُتَّخذ خطواتٌ سريعة لتنفيس الاحتقان في محيطٍ يعجُّ بالتطرُّف الإسلامي الذي يجهِّز سواطيره الفكرية والمادية للحلول مكان الاستبداد السياسي، مستغلًا المظالم التي راكمها القمع خلال العقود الماضية، ومن أجل إلحاق هزيمة حضارية بالشعب السوري وآماله في التحرُّر من كلّ استبداد.

لكن، هل يمكن لنظامٍ مستبدٍّ أن يكون شريكًا في حلّ المشكلة التي كان له باع طويل في مفاقمتها واستفحالها؟ أو أنه سيتابع العبث في المستنقع السوري؟ اختار النظام الحلَّ الثاني بالطبع في محاولته تأبيد حكمه. ولجملةٍ من الأسباب[21]؛ على رأسها تغلغل النظام عميقًا في الواقع السوري واستغلاله لتنوّعه وتناقضاته، صار من الصعب رحيل النظام من دون حصول انقسام اجتماعي مرشَّح للتصادم بعنف عند توافر أوضاع التغيير ووعيها.

---

[21] من العوامل الأخرى، وبحسب التسلسل الزمني: 1. الدعم الخارجي من قبل حلفاء النظام، إيران وروسيا الاتحادية خاصَّة، و2. عدم جدية أعدائه الخارجيين بالتخلص منه، و3. اعتراض قوى التطرُّف الإسلامية خط المطالب المشروعة للشعب السوري.

حاول النظام السوري مع اندلاع انتفاضات "الربيع العربي"، مقاومة هذا التيار الجارف قبل أن يصل، والإيحاء باختلاف الحالة السورية [22]، في محاولة لليّ عنق التاريخ وتفادي استحقاق التغيير بعد انقضاء أكثر من عشر سنوات على الوعود بإجراء إصلاحات سياسية كانت ضرورية لتنفيس الاحتقان في أكثر من محطة [23] الذي سيتسبب باندلاع الاحتجاجات في آذار/ مارس عام 2011.

لم تلبث رياح التغيير التي هبَّت على المنطقة أن هزَّت الركود السوري بشدّة، فظهرت للعالم سلطة مطلقة وشعب مستلب. وفور اندلاع الاحتجاجات، اشتغلت ماكينة النظام الإعلامية لتتحدّث عن المؤامرة على سورية، وضرب "المقاومة والممانعة"، وإقامة الإمارات الإسلامية[24].

كان القاسم المشترك بين جميع انتفاضات "الربيع العربي" وجود الأرضية التي يمكن أن تستغلها التيارات السياسية الإسلامية المتستِّرة بالدين للعودة إلى أوهامها الماضوية والتدخل في خصوصيات الجماعات والأفراد وطمس تنوُّع أنماط الحياة، الذي تتميَّز به سورية.

لم يكن النظام غائبًا عن هذه اللعبة منذ البداية في محاولته للنجاة والاختباء وراء متاريس الإرهاب الذي تفاقم خطره لاحقًا واجتذب القوى الكبرى لمحاربته. كما ساهمت في ذلك المعارضة الشعبوية المرتبطة بمصالح إقليمية ودولية[25] التي تسلّقت على سلَّم مطالب السوريين المشروعة، الأمر الذي جعلها مشاركةً في الجريمة الكبرى

---

[22] استبعد الرئيس بشار الأسد في مقابلة مع صحيفة وول ستريت جورنال الأميركية في 31 كانون الثاني/ يناير 2011 تكرار سيناريو تونس ومصر في بلاده، وبرر ذلك بقوله: إن سورية في وضع أفضل من مصر؛ لأنها لا تقيم علاقات مع إسرائيل. كما استبعد الأسد تبني إصلاحات سريعة وجذرية؛ بحجة ضرورة تحسين التعليم قبل الانفتاح السياسي (كذا!)

http://www.presidentassad.net/index.php?option=com_content&view=article&id=1094:31-2011&catid=9&Itemid=472

[23] كان أبرز هذه المحطات ما سمي بربيع دمشق (2000- 2001).

[24] سيطرح الشعار الأخير ابتداءً من عام 2012 بهذه الصيغة أو بصيغة "الخلافة الإسلامية" من قبل جماعات الإسلام الجهادي التي اجتاحت سورية، بما فيها القاعدة، وبتواطؤ وتبرير من معارضين سوريين، ونتيجة لتقاطع الكثير من المصالح الإقليمية والدولية.

[25] ربما يمكن القول: إن المعارضة التي تسلّقت على الانتفاضة الشعبية في سورية هي من أسوأ المعارضات التي عرفها التاريخ!

بحق الشعب السوري، أرواحًا وممتلكات، ومساهمةً في إقصاء الممثلين الحقيقيين لمصالح الشعب[26].

استغلت جماعات الإسلام السياسي[27] النقمة الشعبية على ممارسات النظام وحالة الفوضى في المناطق التي تحررت من سيطرته للترويج لمشاريعها التي تستند جميعها إلى فكرة إنشاء دولة الخلافة الإسلامية؛ لكنّها نجحت، فحسب في خلط الأوراق، فبرّرت للنظام مقولة الحرب ضد الإرهاب، وأبعدت مطالب الحرية والتغيير التي قام من أجلها السوريون إلى خلفية المشهد الدامي.

***

[26] عملت هذه المعارضة على إقصاء الآخرين سياسيًا، والاستحواذ على خدمة مصالح الدول الأجنبية، على أمل مساعدتها في الوصول إلى سدّة الحكم، مثلما أقصى النظام جميع الأصوات الوطنية أو الفاعلة على الأرض بمختلف وسائل القمع.

[27] سنستخدم مصطلح الإسلام السياسي في مختلف تجلياته التي تتراوح بين شكله العنفي الجهادي السافر للوصول إلى السلطة، والشكل "الناعم" الذي يستغل الديمقراطية للوصول إلى السلطة، من دون أن يؤمن بها أسلوبًا للعمل السياسي في إطار التعددية، وفي الحالتين، يريد الإسلام السياسي استغلال الدين للتشبث بالسلطة وممارسة الإقصاء.

مرَّت الانتفاضة/ الثورة السورية بثلاث مراحل على وجه التقريب:

1. **المرحلة الأولى:** غلب عليها التظاهر السلمي، واستمرت حتى بداية خريف 2011. رُفعت في هذه المرحلة الشعارات الوطنية، ولو بصورة ضبابية نوعًا ما، وامتلكت المبررات التاريخية والأخلاقية كلها لتجاوز حالة الاستبداد. وفيها أيضًا تحولت الانتفاضة المطالبة بإصلاحات سياسية، تدريجًا، إلى ثورة شاملة لإسقاط النظام.

2. **المرحلة الثانية:** بدأت من خريف 2011 وحتى منتصف 2012، حيث اختلطت فيها العسكرة بالمظاهرات السلمية. بدأ المسلحون و"الجيش الحر" بحماية المظاهرات السلمية، علاوة على عمليات استهداف الجيش والقوى الأمنية واللجان الشعبية- الشبيحة، وترافق ذلك مع ارتفاع النغمة الطائفية المتوافقة مع قنوات الدعم الخارجية، وبروز ملامح الحرب الأهلية المقنَّعة بالثورة.

3. **المرحلة الثالثة: بدأت** منذ أواسط عام 2012، وفيها علا صوت العسكرة على ما عداه من الأصوات المدنية، واقترن بالتوجه الطائفي والاعتماد على الخارج بصورة رئيسة. كما تسارع تسرُّب المقاتلين الأجانب عبر الحدود، بالتوازي مع دخول "حزب الله" على خط المعارك إلى جانب النظام[28]، فحضر الصراع الإقليمي إلى الساحة السورية بصورةٍ سافرة، وبصبغةٍ سنية- شيعية، كغطاء لمصالح طرفي الصراع؛ الطرف الإيراني وحلفائه مقابل الطرف السعودي القطري التركي، فيما تمثلت الخلافات على المستوى الدولي أساسًا بافتراق وجهتي النظر الأميركية والروسية حول الموضوع السوري كما في قضايا أخرى، على رأسها المسألة الأوكرانية.

لا يصحُّ تطبيق المفاهيم ولا المصطلحات نفسها على هذه المراحل الثلاثة، مثلما لا يجوز الفصل بينها تمامًا. وما زال من المبكر الحديث عن التطورات الدراماتيكية التي ما تنفكّ تتلاحق فصولًا، التي خَفَت فيها صوت الثورة لصالح الدعوات الجهادية

---

[28] منها، على سبيل المثال لا الحصر، التفجيرات التي حصلت قرب مراكز أمنية وحزبية بدمشق، وراح ضحيتها كثير من الأبرياء. تبنت جبهة النصرة تفجيرين إرهابيين؛ حصل الأول في 23 كانون الأول/ ديسمبر 2011 والثاني في 12 أيار/ مايو 2012.

المضادة [29]، واتّضحت أكثر الحرب الإقليمية والدولية على أرض سورية، وعلى حساب دماء أبنائها.

ليس هذا العمل تأريخًا للتفاصيل الإخبارية التي شهدتها سورية في السنوات الأخيرة، وإن جاء كثير منها في السياق؛ بل عرضٌ للإرهاصات التي اختمرت قبل "الانفجار السوري"، وذكريات الحوادث والمواقف التي شارك فيها الكاتب وعاشها على أرض الواقع، ورؤيته الفكرية والسياسية في مختلف مراحل تطور الحدث السوري في السنتين الأولى والثانية خاصَّة، بما في ذلك كثير من مشاعر الخوف والبهجة والإخفاقات والآمال.

(29) نقصد بالثورة المضادة: كل فعل أو جهة استغلت اسم "الثورة" لتمرير مشاريع لا علاقة لها بما قام المنتفضون السوريون من أجله عامَّة؛ أي تجاوز حالة الاستبداد إلى مجالٍ سياسي أرحب لم تكن ملامحه قد اتّضحت بعد، ذلك أن فكرة الحرية والكرامة التي طغت في البدايات، كانت قد امتلكت مشروعيتها من عدة عقود امتهنت فيها الكرامات وقمعت الحريات بصورة ممنهجة؛ لكن مجرى التاريخ قد يخادع أحيانًا ويغير اتجاهه، ليعاود اندفاعه من جديد، فقد تجد الحاجة الماسة إلى تغيير مخارج لها غير اعتيادية، بما فيها تلك الأكثر غرابة ودموية.

الفصل الأول
إرهاصات وتصدُّعات

يوم الجمعة 18 آذار/ مارس 2011

كنت في زيارةٍ لقريتي في ضواحي مدينة الدريكيش، حيث جلسنا نصف مغمضي الأعين؛ اتِّقاءً لأشعّة شمس الظهيرة الساطعة، وهبّت نسمات ربيعية منعشة، فاحتكَّت أغصان شجرة اللوز المورقة برفقٍ. لم يلفت ذلك انتباه أحد، إذ احتدم النقاش واضطربت المشاعر حول أحداث "الربيع العربي" بعد سنواتٍ عديدة من الركود.

غالى بعضهم في النتائج التي يمكن أن يقود إليها هذا "الربيع"، فيما شكّك بعضهم الآخر في حدوث أي تغيير حقيقي في المنطقة، في سورية خاصَّة. لم يكن النقاش سويًا؛ بل أقرب للقتال بوساطة الكلمات؛ تطاير الزبد من أفواه بعضهم، وتجرّأ آخرون على نطق ما ابتلعوه من كلماتٍ في حواراتٍ سابقة، فمن أين للسوريين ثقافة الحوار أو الجرأة على الكلام بعد عدة عقود من التصحُّر السياسي الممزوج بالرُّعب؟

أعرب أحد الأشخاص المتوحِّدين[30] الذي أحبُّ استشارته في مثل هذه الأوضاع، عن رأيه بهدوءٍ واقتضاب: "ستسيل دماءٌ كثيرة؛ لأنهم لن يتركوا السلطة إلاّ بالقوة، وسيقاتلون حتى النهاية." لم يكن أكثرنا تشاؤمًا يعتقد أنّ الأمور ستأخذ مثل هذا المنحى التدميري، أو أن يحلّ شعار "الأسد أو نحرق البلد" مكان شعار "الأسد للأبد"، أو أن يتقاطر الإرهابيون والطائفيون إلى سورية، في أكبر تظاهرة بربرية في العصر الحديث!

---

[30] المصاب بمرض التوحُّد Autism؛ طيف من الأعراض السلوكية تجمع بينها العزلة، إضافة إلى مشكلات تتعلق بالتواصل والمهارات الاجتماعية.

وعلى حين غرَّة، تناقلت وكالات الأنباء أصداء التظاهرات التي انطلقت في مدينة درعا! ها قد وصلت موجة "الربيع العربي" إلينا إذن، وشرع المستنقع السياسي السوري بالتّصدّع أيضًا. إنّه التغيير الذي انتظرته وحلمت به منذ عقود، وكنتُ على أتمِّ استعداد للانخراط في مجرى الحوادث التي ستعصف ببلدي، في محاولة لعمل شيء ما بغية الحدِّ من التداعيات السلبية التي سترافق تلك التطورات التاريخية المعقّدة وغير العكوسة!

دفعت الاحتجاجات التي نشبت في المحيط الإقليمي السوريينَ إلى اجتراح مغامرة الحرية المغمّسة بالدم؛ على خلفية كمّ الأفواه على امتداد عقود في نظام الحزب الواحد والقائد الأوحد، وما نجم عنه من ظلمٍ وغبنٍ واستنقاع سياسي، وها هي الشرارة قد قدحت.

عبّرت من جهة، عن مشاعري هذه بالابتهاج وفيضٍ من الحركة، وآلمتني من جهة أخرى، تلك البداية التي سقط فيها ضحايا، كمؤشرٍ على المنحى الخطير الذي ستتّخذه الحوادث. وفي جميع الأحوال، مثَّلت تلك اللحظة انعطافًا في تاريخ سورية الحديث.

ارتبط بدء التظاهرات في درعا بالاحتجاج على اعتقال أطفالٍ كانوا قد كتبوا على جدر مدرستهم شعاراتٍ مناهضة للنظام[31]؛ لكن ذلك لم يكن سوى "القشة التي قصمت ظهر البعير"، ويشبه إرجاع سبب الاحتلال الفرنسي للجزائر في القرن التاسع عشر إلى ضرب "الداي" الجزائري السفيرَ الفرنسي بكشاشة الذباب[32]!

قامت قبل ذلك بشهر أول مظاهرة عفوية في منطقة الحريقة التجارية وسط دمشق؛ ردًّا على اعتداء الشرطة على أحد المواطنين، ورفع فيها شعار "الشعب السوري ما بينذل!"[33] كما أقيمت بعض مسائيات التضامن مع حوادث "الربيع العربي"[34]، وتظاهر ناشطون في دمشق القديمة[35]، كما اعتصم بعض المثقفين والسياسيين أمام مبنى وزارة الداخلية [36]؛ من أجل إطلاق سراح المعتقلين.

***

[31] في 2011/2/26.

[32] ضرب الداي الجزائري حسين السفيرَ الفرنسي بكشاشة الذباب في أثناء مشادة كلامية بينهما. اعتبرت فرنسا تلك الإهانة حجة لاحتلال الجزائر عام 1830، وبالطبع كان أمر الاحتلال مقررًا سلفاً كسياسة استعمارية.

[33] 2011/2/17.

[34] في 3 شباط/ فبراير نظم اعتصام ليلي بالشموع للتضامن مع الثورة المصرية، وآخر في حي باب توما. وفي 22 و23 شباط نُظم اعتصام أمام السفارة الليبية للتضامن مع الثورة في هذا البلد.

[35] 2011/3/15.

[36] 2011/3/16.

صار يوم الجمعة موعدًا لبدء التظاهرات انطلاقًا من الجوامع ومحيطها، في استغلالٍ للمكان الوحيد الذي كان يستطيع الناس التجمُّع فيه الذي لم تتجرأ أيّ سلطة على حظره في هذا الشرق؛ فالدين هو جناح السلطة الثاني الذي تطير به للإمساك برقبة المجتمع، تحتمي به ويحتمي بها، يمهِّد السبيل لحكمها ويقتات على موائدها. مع ذلك، لكلّ توازن هفوات اختلاله، ليُستعاد من حين لآخر.

تحوّل خلال عدة أسابيع، شعار "الله.. سورية.. حرية وبس" إلى شعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، وانتشرت التظاهرات في محافظاتٍ وبلداتٍ عدة، مستثنيةً مركزي عاصمتي الشمال والجنوب؛ حلبَ ودمشق. لامست المطالب التي حملها وجهاء درعا في لقائهم مع الرئيس بشار الأسد في الحادي والعشرين من الشهر ذاته، الهم السياسي فحسب، وكان جلها مطالب خدمية، إضافة إلى المطالبة بمعاقبة المسؤولين

عن الحوادث الأخيرة[37]؛ لكنّ مطالب أهالي دوما تضمّنت عناوين سياسية أكثر وضوحًا[38].

[37] تضمنت مطالب أهل درعا على وجه التقريب:

1. الاعتذار من الشهداء وذويهم، حيث أبرزت وسائل الإعلام المحلية وبعض المنتفعين، الإهانة التي وجهت إليهم (الشهداء وذويهم) وإلى أبناء درعا واعتبارهم مندسين ومخربين، ولم يشهد تاريخ محافظة درعا سوى طليعة الوطنيين في القطر على الرغم مما لحق بها من حيف وطمس لدورها الوطني.

2. محاسبة من أطلق الرصاص الحي على المتظاهرين، أو من أمر بإطلاق الرصاص، ومحاسبة من كان سببًا في قتل الشباب أو جرحهم أو خنقهم بكثافة الغازات المسيلة للدموع، ومن كان السبب في طمس مطالب الشباب بمحاربة الفساد والتسلط وتحسين الواقع المعيشي .

3. عدم ملاحقة المصابين أو ذويهم .

4. عدم اعتقال أي شخص خرج في التظاهرات السلمية يومي الجمعة والسبت حتى تحقيق المطالب.

5. الإفراج الفوري عن أي شخص اعتقل إثر التظاهرات.

6. الإفراج عن المعتقلين السياسيين قديمًا وحديثًا.

7. الإفراج عن طلاب الجامعة الذين اعتقلوا منذ فترة قريبة.

8. إلغاء قانون الطوارئ المقيد للحريات العامة.

9. إلغاء الموافقات الأمنية التي تقيد حركة البيع والشراء للأراضي والشقق السكنية والنشاط الاقتصادي العادي مهما كان.

10. تخفيض الضرائب والرسوم التي أثقلت كاهل المواطن.

11. تخفيض أسعار المحروقات والأغذية.

12. اتخاذ الإجراءات المشددة لمكافحة الفساد الإداري والمالي وهدر الأموال العامة في مؤسسات الدولة، من أعلى مستوى حتى أدناه بما فيها سلكا القضاء والشرطة.

13. إعادة المدرسات المنقبات إلى التدريس في مدارسهن واحترام الحرية الشخصية، مثلما تعمل السافرات في المدارس، ولا يعترض عليهن أحد في إطار الحرية الشخصية.

14. السماح بعودة المهجرين المطلوبين إلى سورية.

15. إلغاء القانون رقم 60 لعام 1979 وتعديلاته بالقانون رقم 26 لعام 2000 المطبق في مدن مراكز المحافظات وينزع ملكية المالك بهدف التمليك للغير، وهو قانون جائر لا يقبل به أحد سوى المنظرين من خلف الطاولات، فمن يريد إنشاء مشاريع إسكان فعليه أن يشتري الأرض اللازمة بالسعر الرائج مثل أي مواطن.

16. إعادة النظر في أسعار الأراضي التي يطبق عليها التوزيع الإجباري مؤخرًا والجائرة بحق المواطنين.

17. نقل كراج البولمان لمحافظة درعا من كراج السومرية إلى المكان المقرر في المدخل الجنوبي لدمشق.

18. معالجة محلات سوق الشهداء التابعة لمؤسسة الخط الحديدي الحجازي.

19. تثبيت العاملين المؤقتين في دوائر الشؤون الاجتماعية

20. http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=78555#ixzz3IVcHRFxB

***

عدت إلى منزلي في مدينة اللاذقية، يحدوني أملٌ كبير في بزوغ شمس الحرية. راقبت التغيّرات التي صار بالإمكان ملاحظتها وتتبُّعها على الوجوه كانعكاسٍ لحالاتٍ انفعالية متباينة بدأت تعصف بالنفس أيضًا، مثلما يحدث في أثناء التحولات التاريخية الكبيرة؛ فإذا كان مجرد تغيير بسيط في شكل ومظهر شخص ما يدخل السعادة أو التعاسة إلى قلبه، فكيف لا يفرح مَن يستنشق هواء الحرية والعدالة، ويحلم أن يصبح شريكًا في وطن كان مجرد سجن كبير بالنسبة إليه؟ وكيف لا يخاف التغيير من اعتاد العيش في العتمة، واضطر لمواجهة النور على حين فجأة!

كان في ذلك الحين، قد مضى نحو عام على فصلي من جامعة القلمون الخاصة بكتاب سري من مكتب الأمن القومي[39]. كنتُ قد انتقلت للتّدريس في هذه الجامعة بعد أن صُرفت من وظيفتي في كلية الطب بجامعة تشرين في اللاذقية عام 2006[40]، في ختام مرحلة شاقة من المخاوف والاستدعاءات "الأمنية"، التي لم تتوقف يومًا ككابوس لا شفاء منه، وقدر لا فكاك من سطوته.

ومع أن المقالات التي كتبتها في على النت، نُشر القليل منها في الصحف، والتعبير عن رأيي بصورة واضحة في أكثر من مناسبة وموقف، كانت السبب الأساس لفصلي من عملي في الجامعة؛ العمل الذي أحببته وكرَّست له جلّ جهدي ووقتي، فإنَّ التوقيع على إعلان بيروت دمشق في 12 أيار/ مايو 2006 كان السبب المباشر لهذا الفصل، وذلك من بين 17 موظفًا حكوميًا وقّعوا على هذا الإعلان أو تضامنوا مع الموقعين، وكنت من بين الموقعين[41].

---

[38] أهم هذه المطالب: 1- رفع حالة الطوارئ عن البلاد، 2- حرية الأحزاب، 3 -الإفراج عن معتقلي الرأي والمعتقلين السياسيين، 4- محاسبة القتلة في الحوادث التي شهدتها مدينة دوما مؤخرًا.

[39] القرار 923/5/أ ق، تاريخ 2010/7/7 الموقع من قبل رئيس الأمن القومي اللواء هشام اختيار.

[40] قرار رئيس مجلس الوزراء ناجي العطري رقم " 2746" بتاريخ 14-6-2006.

[41]http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=10066&article=369169&feature=#.VN3OlCySKSo

بين التّرهيب والتّرغيب

في خريف عام 2003، وفي أثناء استدعائي إلى فرع أمن الدولة في مدينة اللاذقية، قال الضابط المحقِّق [42] ساخرًا:

- كم عددكم في مدينة اللاذقية؟ خمسون معارضًا؟ بوسعي اعتقالكم في نصف ساعة!

- لا شكّ أنّ بوسعكم القيام بذلك، فأماكن إقامتنا معروفة لديكم؛ لكن ما الفائدة من ذلك في نهاية المطاف؟

- أنتم تشكلون أصواتًا خارجة عن السرب، ولا أمل في أن تحققوا شيئًا.. نحن نخاف فقط من الاضطرابات الأهلية التي يمكن أن تحدث في المجتمع.

- وهل قمع الرأي الآخر والأصوات الوطنية يمكن أن يساعدكم في ذلك؟ أم أنه سيلغي أي أملٍ في التعبير عن الرأي، ويعزز من حدوث الاحتقان الاجتماعي الذي تخافون منه؟

- الأمر تحت السيطرة دكتور.

- ......

- من تدافع عنهم هم أناس متخلِّفون ولن يفهموك، ولا يمكن التعامل معهم بالديمقراطية. أنا من مدينة الباب شمال حلب، وستحدث مظاهرة لو ذهبت امرأة إلى هناك غير محجّبة أو ترتدي فستانًا قصيرًا.

- ....

- عمومًا، لقد أجرينا دراسةً عنك لعدة أشهر؛ يبدو أنك تتمتع بسمعة طيبة وغير معروف عنك أي انخراطٍ في حالة فساد[43] ولا أي ارتباطات خارجية أو حزبية. نحن

---

[42] النقيب غ. العـ.

[43] هذا نوع من المجاملة السمجة إن صح التعبير؛ فالأجهزة الأمنية هي حارسة الفساد ومديرته، وهي من يفسد ويدين بالفساد في الوقت ذاته، إذ يكفي الخوف اللاعقلاني للناس من سلطتها حتى يغتني مسؤولوها بعد تحويل الخوف إلى نقود في سوق الصيرفة السورية العجيبة! تمسك الأجهزة الأمنية بملفات الجميع حتى تتمكّن من إخضاعهم واحداً تلو الآخر متى تطلّب الأمر ذلك. ووفقاً

نمدّ أيدينا للتعاون معك.. لكن قل لي (تحول مزاج المحقق إلى ضربٍ من المُزاح): أليس لديك نقطة ضعف في حياتك؟ ألا تحبّ النساء؟

- أحبّهنّ بالطبع. قلت مبتسمًا؛ لكن أخشى أن لا يكون الأمر بالطريقة التي تفكِّر فيها!

صمت الضابط قليلًا، ويبدو أنه تجاوز ملاحظتي القاسية، ثم أردف:

- هل تقبل دعوتي للعشاء في أحد المطاعم المحترمة؟

- آسف، لا أذهب إلى هذه الأماكن لأسبابي الخاصة؛ منها أنّ دخلي المتواضع لا يسمح بارتيادها، كما أنّه من غير الممكن الوصول إلى مثل هذه العلاقة بيننا.

- ما المانع دكتور إن كنتُ أدعوك وأمدُّ لك يد الصداقة؟

- أولًا، نحن نعمل في مؤسستين لا تقاطع مباشرًا في عملهما، وثانيًا، وهو الأهم، لا يمكن أن أقيم معك علاقة شخصية حتى لو كنت أرغب في صداقتك، فكونك ضابط استخبارات تنتمي إلى أجهزة تضع نفسها فوق القانون، ولها تلك السمعة التي تعرفها، ويتعامل الآخرون معها من خلال الخوف والنفاق، فإنّ "تعاوني" معكم يجعل مني تابعًا لا متعاونًا، ويطيح بسمعتي واحترامي لذاتي، ولا شيء يحول دون صداقتنا، بالطبع، حين نصبح في دولة تتمتّع فيها المؤسسات باستقلاليتها تحت سقف القانون.

- برأيي، أنّ أي إنسان يريد لرغباته أن تتحقَّق ولكن بثمن ملائم[44].

فهمت قصده، وأجبته بطريقة دبلوماسية، كاستجابة لتعامله المهذَّب في المهمّة المكلَّف بها:

لرأي الدكتور طيب تيزيني حول السياسة غير المعلنة للأجهزة الأمنية، فإن الدولة الأمنية تعمل على "إفساد من لم يُفسد بعد، بحيث يصبح الجميع ملوثين وتحت الطلب."

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?t=0&aid=296079#sthash.iRhrqaof.dpuf

[44] قدّم الضابط عروضاً مغرية، منها ما يتعلق بمساعدتي في الوصول إلى المناصب الجامعية، وإنشاء معهد للدراسات برئاستي وبمرتَّبٍ يبلغ 20000 ليرة سورية شهريًا (ضعف مرتّبي الشهري في تلك الأثناء)، إضافة إلى تزويدي بأخبار قابلة للبيع لوكالات الأنباء.

- لكلّ نظرية استثناءاتها على ما يبدو، ألم تصادفوا مَن لا يريد أن يبيع نفسه بأي ثمن؟

- نعرف أنّ ثمنك غالٍ يا دكتور ونحن جاهزون لدفعه، وسيكون بوسعك تحقيق كل ما تصبو إليه، و"أمن الدولة[45]" كلُّه على استعداد تام لدعمك في الجامعة وفي أي مكان.

تنهَّد المحقق بعد تقديم عروضه، والتفت نحوي منتشيًا: "أمن الدولة كلُّه وراءك، لا تتردّد في طلب المساعدة عند التعرُّض لأي مشكلة"، وقدم إليَّ بطاقةً تحمل اسمه وهاتفه الخليوي.

لم أكن قد اقتنيت هاتفًا من هذا النوع بعدُ؛ الأمر الذي أثار استغراب المحقق!

انتهى حديثنا عند هذه النقطة، خرجت غير مصدِّق أنّ الأمور جرت على هذا النحو، فثمة بعض الوقت لأرتاح من ضغوط أشهرٍ عدّة عشتها بترقّبٍ وخوف، وبوسعي، ولو موقتًا، العيش مع المقربين منّي كإنسان شبه طبيعي قبل أن يعاودني القلق في الأيام الآتية، مجرّد فسحة ضيقة بين تلك السحب المكفهرّة في سمائي، ولا ريح تكنسها بعيدًا، فإلى أين المفرّ؟ لقد انكشفتُ، ولم يعد التواري ممكنًا.

من طريقة استقبالي واستدعائي كان من الواضح أنّ ثمة محاولة لاستيعابي كما فعلوا مع آخرين، ومن خلال المزج بين الترهيب والترغيب. في غضون عدة أشهر، اتصل الضابط أكثر من مرة لتهنئتي في مناسبات وأعياد، ولم أتصل به البتة. بعد أن فشلوا في اصطيادي بوساطة "الجزرة الدسمة"، سيكون لـ "العصا الغليظة" الكلمة الفصل في المرحلة المقبلة.

[45] الاستخبارات العامة.

مسوِّقوا سياسات النظام

وضع الاتصال الذي طُلب منّي بموجبه الحضور إلى فرع أمن الدولة في اللاذقية حدًا لانتظار مضنٍ، ووددت مواجهة ما يخيفني مهما كانت النتائج، حتى لو وصل الأمر إلى حدّ الاعتقال، وذلك كوسيلةٍ للتخلص من الرعب الذي شلّني؛ كنت كطفل ينتظر عقابًا من أبٍ قاسٍ؛ ليتخلص من انتظارٍ قلق!

كنت قبل أربعة أشهر من استدعائي قد تجادلت بحدّة مع أحد الإعلاميين اللبنانيين المجنَّدين لتسويق سياسات النظام، وقد جاؤوا به في صيف عام 2003 لـ "يُحاضِر" في جامعة تشرين وغيرها، بعد أن صار الأمريكي المدجج بالسلاح على حدودنا الشرقية[46]؛ لربما كانوا يريدون اختبار نخبهم والتأكُّد من طاعتها وخوفها. ومع أنّ هذه الحادثة كانت السبب الرئيس لاستدعائي، فإنّ المحقِّق لم يُشر إليها البتّة؛ بل إنّه وفي معرض استدراجي للتعاون معهم، أشاد بي، وقال: إنّهم يحترمون شجاعتي في التعبير عن رأيي!

لم يكن ما تفوَّه به (ن. ق.) محاضرةً بالطبع؛ بل ضربًا من "اللغولوجيا[47]" الإنشائية التي تحتقر وتسفِه ما تبقّى من الكرامة السورية، إذ يؤتى بمثل هؤلاء المأجورين لاستغلال طلاقة ألسنتهم في تأليه رموز السلطة وتمجيدهم، فوجدت نفسي مضطرًا لمواجهة عنجهيته، حفاظًا على كرامتي على الأقل، بيد أنّ الرجل، بالنسبة إليهم، ليس كأيٍّ كان!

قلت في التعليق على "المحاضرة": إنّ ما يتفوّه به هذا الإعلامي هو تلك "الثقافة" الممجوجة التي سادت عندنا لعقود وصدّرناها إلى لبنان، فعادت إلينا عن طريق أمثاله كبضاعة أعيد إنتاجها، محاولًا بهذه الطريقة الساخرة التخفيف من وقع انتقاداتي، ولم ينفعني ذلك في شيء!

---

[46] في العراق.

[47] علم اللغو، مصطلح من عندياتي، ولا قيمة اصطلاحية له خارج هذا السياق الساخر.

كان ردُّه، مدعّمًا بردود جوقةٍ من البعثيين الطامحين لتقلُّد المناصب الجامعية، يتلخص بجملة واحدة: "لا يجوز أن يوجد مثل هذا الدكتور في جامعات حافظ الأسد![48]"، بما حمله ذلك من تحريضٍ واضحٍ على إلغائي.

خرجت أخيرًا، من القاعة حتى لا أضطر لمواجهة الهجوم المنفلت عليّ من أبواقٍ امتهنت التعبير عن رأيها بهذه الطريقة، ربما بسبب حرمانها من حرية التعبير الحقيقية، ومن أجل التخفيف أيضًا من ردّ فعلي على الاستفزاز الذي ما انفكّ يتصاعد في القاعة، فوعدت "المحاضر" بالردّ عليه في مقالٍ، وفعلت[i].

ما إن صرت في البهو حتّى أدركت مدى صعوبة موقفي. لعنت الزميل الذي حثَّني على مرافقته إلى ذلك المكان، وقد تحوّلت الشجاعة التي أبديتها في الداخل إلى قشعريرة اجتاحتني، وما كان حلمًا مزعجًا عشته لسنوات تحوّل إلى كابوس لن ينتهي قبل أن يترك أثرًا لا يُمحى في حياتي وحياة أسرتي.

خرجت من باب الجامعة في غبش الغسق، مشيت تحت رذاذ المطر المنهمر على إسفلت الشارع، شعرت بحاجةٍ إلى الطيران، واستبدلته بالممكن؛ الركض. ركضت وركضت، اختلطت قطرات المطر بحبيبات العرق على جبهتي، انتقيت طريقًا متعرجةً للوصول إلى البيت؛ مخافة أن يكون أحدهم في إثري. تمنيت حينئذٍ ألاّ أكون قد تزوَّجت، فكيف أواجه زوجتي وأخفي عنها ما حصل، وهي حامل في شهرها الثامن؟ على الرغم من قناعتي أنها ستقف بجانبي ولن تتركني وحيدًا.

صارت سحنتي بمثل سحنة الموت، انتشر الخدر في ساقيّ فيما كنت أتسلَّق درج البناء إلى الطبقة السادسة، وتنفّست بعمق عدة مرات قبل أن أضغط على مفتاح الجرس الكهربائي.

لم تمضِ بضعة أيام حتى عاجلت زوجتي الولادة، ففهمت كم عانت في داخلها من دون أن تُظهر لي شيئًا. في ذلك الحين، انتابني شعور غامض بالتحرُّر من أمرٍ

---

[48] التعبير الفاقع عن العبودية والانتهازية التي يعيشها هؤلاء طوعًا أو نفاقًا، وإخلاصهم لمالكي المزرعة التي صارتها سورية!

أثقلني، ولم أعد "عبدًا مخصيًا" في مزرعة الاستبداد؛ صرتُ رجلًا بالمعنى الاجتماعي للكلمة، ولا يهمّني ما سيحصل لاحقًا!

حين ذهبت إلى عملي في اليوم التالي، كان الخبر قد انتشر في الجامعة. حاولت التظاهر باللامبالاة، متمسكًا بقوة الحرية في داخلي، فالتراجع يعني الإهانة، وهذا لن يحصل أبدًا بعد أن استعدتُ بعض كرامتي.

***

لم تكن الأجهزة الأمنية غائبة عن الاجتماع بالطبع، فقد احتلّ ممثلوها المقاعد الأمامية في أثناء "المحاضرة" المشؤومة، التي انتهت عمليًا فور خروجي، ولم يبقَ سوى أولئك الذين أحاطوا بالمحاضر لمواساته، ووجدوها مناسبة للتذلُّل وإبداء الولاء، مستنكرين "إهانتي" للضيف، ومقترحين أشدّ العقوبات بحقّي.

اجتمع عناصر الأمن مع قيادة فرع الحزب الحاكم في الجامعة مساء اليوم نفسه ليتشاوروا في أمري، كما استلموا نسخًا من أشرطة التسجيل المتعلقة بمجريات المحاضرة، ومضوا بغنيمتهم غير المنتظرة ليضعوها في صباح اليوم التالي فوق مكاتب رؤسائهم.

كان أمين فرع الحزب في تلك الفترة من أولئك الذين امتلكوا بعض الشهامة الفطرية، وقد فرضته قوى من خارج الجامعة، ومن ثم فإنّ بوسعه، على الأقل، أن يحتفظ بماء وجهه، وينأى بنفسه عن جوقة المواقف المسعورة، فأسكت الانتهازيين الذين تشبّثوا بمقاعدهم من حوله:

- كفى! الأمر في عهدة "الأمن"، والأدلّة موجودة في التسجيلات.

ارتاح هؤلاء الوصوليون بعد أن اطمأنّوا إلى أنّ الأمور تسير في الاتجاه المطلوب، وصار بوسعهم الاسترخاء وقتًا أطول في مكتب أمين الفرع؛ ليفرغوا ما في نفسهم من تزلُّف ودونية، قبل أن يخرجوا من مكتب أمين الفرع و"أذيالهم بين أرجلهم."

***

كم ندمت على حضوري تلك المهزلة، من دون أن أندم على موقفي حين اقتضى الأمر إبداء الرأي بوضوح. ومرّت الليالي الطويلة التي دهمني فيها الأرق بانتظار سماع مكالمة هاتفية أو طرقات زوار الفجر على الباب. في تلك الفترة، بدأت أتخلى عن جبني وخوفي على مراحل، كضرب من شجاعة الضرورة، فقد طفح الكيل، وصار الصبر هوانًا.

كنت قبل ذلك بأشهر قد نشرت مقالًا مطولًا عن التعليم العالي ومشكلاته في جريدة تشرين السورية[49]، أوضحت فيه بعضًا من معيقات تطوير التدريس والمناهج في الجامعات الحكومية، منها هيمنة حزب البعث، إضافة إلى ما كابدته من مظالم بعد عشر سنوات من محاولة التكيُّف الصعبة مع أوضاع العمل التي احتملت فيها تسلُّط الفاسدين والمتحكِّمين من خلال ممارسة التقيّة، إلى أن "انفجرتُ" كما سينفجر الكثير من المظلومون في سورية لاحقًا.

[49] "التعليم الجامعي في سورية.. آمال وآلام". نُشرت المقالة في مواقع عدة، منها هذا الموقع، بعد نشره أول مرة في جريدة تشرين السورية.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=15106#sthash.ALa1ENSO.dpuf

الفصل الثاني

ألاعيب الاستبداد [50]

تعمل أنظمة الاستبداد على التلاعب بعواطف الجماهير[51] وحشدها وراء شعاراتٍ جوفاء، قوميةً أو وطنية أو دينية، بعيدًا عن مصالحها الملموسة، والدفع بها إلى مساراتٍ تُبعد الأنظار عن جوهر الاستغلال والفساد المرتبطين بالاستبداد على نحو وثيق، فتتصادم مصالحها بصورةٍ مضبوطة تحت سقف الخوف المرتبط بغريزة البقاء، وهو "سقف الوطن" أو "مصالح الأمة"، تبعًا للإعلام الدعائي.

تنكشف أوهام الاستبداد وأكاذيبه في أثناء التحولات التاريخية المفاجئة التي تعقب وضعًا مستقرًا بالإكراه أو بحكم بالعادة، فتنفجر التناقضات الاجتماعية على اختلافها، وتحصل مختلف أشكال الصراعات الأهلية التي لا تضبطها أي قوانين، فتُمارس الوحشية وتُقتسم المخاوف، في وقت تتراجع فيه الجماهير إلى بناها الاجتماعية القبْلية، ملاذها الوحيد في مثل هذه الأحوال.

أغلق النظام السوري منذ بداية الحدث السوري باب الحلول السياسية ذات الجدوى[52]، وقرَّر استعمال فائض القوة الهائل ضد المنتفضين، فضلًا عن استخدام دعاية إعلامية مكثّفة لإبراز قوى التطرُّف التي عزّزها القمع التي صارت تتعزّز أكثر كلما أُوغل النظام في انتهاج سياسة الحلّ الأمني.

---

[50] "العوام هم قوَّة المستبد وقُوتُهُ، بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم، يقولون كريمًا؛ وإذا قتل منهم ولم يمثِّل، يعتبرونه رحيمًا؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة."

من كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي (1854- 1902)، أحد رواد النهضة العربية ومفكريها في القرن التاسع عشر.

[51] الجماهير هي المعادل البشري للقطيع في عالم الحيوان؛ لا جماهير من دون مستبدّين ولا مستبدّين من دون جماهير تخضع لهم، كرهًا أو طوعًا.

[52] أولها تحديد صلاحية الأجهزة الأمنية وإعادة هيكلتها في جهاز أمن وطني.

ساعد النظام في ذلك غياب معارضة فاعلة بعد أن سُحقت خلال عقود، ومن ثم عدم وجود قيادة وطنية فاعلة لتشكِّل غطاءً سياسيًا لمجريات عملية التغيير، فلعبت بالثورة الأهواء والدول والفضائيات وشذّاذ الآفاق. عمل التدخُّل الخارجي لاحقًا، المتمثل بالجهات المسيسة للدين، مثل بعض أنظمة الخليج وإيران وما يرتبط بها من أحزاب وجمعيات دعوية وأهلية، على إذكاء نار الصراع وإضفاء الصبغة المذهبية عليه.

عقدت مستشارة الرئيس بثينة شعبان مساء 24 آذار/ مارس 2011، مؤتمرًا صحفيًا[53] وعدت فيه، استنادًا إلى اجتماعٍ عقدته القيادة القطرية لحزب البعث، بإجراء حزمةٍ من الإصلاحات على المستويين الخدمي والسياسي، وأشارت إلى وجود مؤامرة طائفية، ونفت أن تكون عناصر من حزب الله قد شاركت في قمع التظاهرات في درعا، بحسب ما نقلته بعض وسائل الإعلام، نقلًا عن ناشطين.

كان حديث بعض وسائل الإعلام حول مشاركة إيران أو حزب الله منذ الأيام الأولى ضربًا من الحماقة، ويهدف لاستدراج ردود أفعال إقليمية، مثله مثل حديث ممثلي النظام عن إقامة إمارات إسلامية في سورية أيضًا؛ كلاهما كان يكذب وقتئذٍ؛ لكنّهما يتمنيان حصول ما يتحدثان عنه أكثر ممّا يخافانه. جاء الجهاديون في نهاية المطاف إلى سورية بمباركة من معظم "أنصار الثورة"، ودخلت قوات حزب الله لتقاتل إلى جانب النظام!

أُثيرت المخاوف في مساء اليوم التالي، الجمعة 25 آذار/ مارس 2011، بطريقة مُمنهجة في أحياء مدينة اللاذقية ذات الانتماءات الطائفية المتباينة، كأنّ ثمة تأكيدًا على ما أثارته مستشارة الرئيس قبل يوم واحد!

قدتُ سيارتي قُبيل غروب شمس ذلك اليوم؛ لأُقِلَّ صديقًا إلى محطة انطلاق البولمانات. تفاجأنا في حي "قنينص" المجاور بمجموعة من الشباب يتقدّمون إلى حدود حيّنا. كان بحوزتهم هراوات خشبية وفي عيونهم خوف ودهشة. توقفت في منتصف الشارع مذهولًا، استدرتُ وقدتُ سيارتي عبر طريقٍ آخر. كانت الشوارع

[53] www.elaph.com/Web/news/2011/3/642080.html

شبه خالية، وثمة دخان كثيف ينبعث من الدواليب المطاطية التي أضرم المتظاهرون النار فيها في حيّ "السكنتوري".

رأيت في طريق عودتي إلى البيت بعض المسلحين الموالين للنظام بجانب مساكنهم العسكرية، وكانت نظرات الخوف والدهشة نفسها على وجوههم! هل ستتحول الحوادث بهذه السرعة إلى حرب أهلية؟ ما الذي حدث حتى تضطرب الحياة بهذه الصورة؟ كيف لأناسٍ تعايشوا منذ عقود أن يصلوا إلى هذه الحال من الريبة والخوف خلال أيام قليلة؟ ومن هو "المايسترو" الذي فعل ذلك على وجه السرعة؟

ركنتُ سيارتي قرب البناء الذي أقطن فيه، وذهبت أستطلع الأمر في حيّين متبايني الانتماء الطائفي. سأكذب إن قلت بأنّي لم أكن خائفًا، إنّما لم أسمح للخوف أن يقف حائلًا دون استطلاعي لهذه الظاهرة الجديدة والغريبة التي بدت، بالنسبة إليّ، خارج إطار المعقول أو الممكن. فهمت من الذين استطاعوا الكلام بأنّ ثمة سيارة تجوب الأحياء لهذا الغرض، ويقوم من فيها بشتم مقدسات السكان وتخويفهم. كما تتالت الشائعات "الارتدادية" عن وجود مندسين ومسلحين يتسلّلون إلى داخل الأحياء الموالية بهدف ترويع الناس، ولم يكن ذلك صحيحًا، إلا بوصفه أمرًا مدبَّرًا[54].

إن الأمر كما هو واضح يتعلق بنشر شائعات مقصودة؛ لاستكشاف مزاج الناس ودبّ الذعر في نفسهم، كما حدث في أواسط تسعينات القرن العشرين، حين سرت شائعة حول حدوث زلزال في ليلة معينة، فنام جميع الناس في الحدائق والشوارع! لكنّ الشائعة هذه المرة تتعلق بأشد القضايا فتنةً! وسيتعقّد المشهد أكثر مع تدخّل بعض رجال الدين المهووسين لمغازلة الشارع طائفيًا [55].

---

[54] جرى في هذا الصدد، القبض على بعض الصبية، ثم أطلق سراحهم في مسرحيات غير متقنة الإخراج، وكان هؤلاء يطلبون فور القبض عليهم تسليم إلى أجهزة الأمن!

[55] خطبة الجمعة للشيخ القرضاوي في 2011/3/25.

https://www.youtube.com/watch?v=u8FfSd6Zh9E

حمص في الأسابيع الأولى للانتفاضة

لعلّ صورة الأحداث في مدينة حمص تلقي الضوء على الأسلوب الذي اتُبع في "معالجة" المشكلة، وبالطريقة ذاتها كما في اللاذقية. وسيبقى ما حصل في هذه الفترة موضوع تحليلات واستقراءات ما لم يُنشر أرشيف الأجهزة الأمنية، أو الحصول على شهادات موثقة لأفراد منها شاركوا في حوادث تلك المرحلة.

كنتُ قد طلبت من أحد معارفي في حمص أن ينقل صورة الحوادث في تلك الفترة بأمانة وموضوعية قدر الإمكان، وجاء في رسائله:

"يوم الجمعة، 25 آذار/ مارس 2011، بعد تظاهرات قليلة العدد في الجمعة السابقة، قُوبلت بالقمع، خرجت تظاهرات من عدة جوامع ونجحت في الوصول إلى ساحة الساعة، ثم انضم إليها العديد من الشبان والشابات من مختلف أحياء حمص. كانت الشعارات راقيةً ووطنية، وكان صوت إسقاط النظام خافتًا. قام بعض المراهقين بأعمال تخريبية، وحصل اشتباك بين البدو والشيعة في قرية الوعر أسفر عن جرح ستة أشخاص من الطرفين[56]. بدأت مسرحية المندسين الذين يعبرون أحياء الأقليات ويتعرّضون للضرب من قبل "اللجان الشعبية"، وهم يتوسَّلون تسليمهم للأمن[57].

"اعتدت اللجان الشعبية على كثير من العابرين غير المندسين، وحدث إطلاق نار تخويفي من بيوت رجال الأمن وسكان حيِّنا ذي الطابع الأقلَّوي، كما استمر الحديث عن المندسين الذين ينوون مهاجمة هذه الأحياء، وسرت شائعات راعبة في المدينة طوال الأسبوع، ثم توقّفت بعد مسيرات التأييد[58]!

---

[56] قُتل في اليوم التالي 2011/3/26 العامل عادل فندي في نادي صف ضباط حمص من قبل المتظاهرين، وبلا مبرّر. أغفل الراوي هذه الحادثة المبكرة.

[57] تمامًا كما حدث في اللاذقية (الكاتب).

[58] على الرغم مما يتمتع به النظام من قدرات، فقد كان هذا الشكل من الاحتجاج جديداً عليه، ولا شك أنه كان في قمة ارتباكه وخوفه في تلك الأيام، فكيف سيستعمل فائض قوته ضد شعبٍ أعزل إن لم يظهر حملة السلاح؟

"في يومي الجمعة 1 و8 نيسان/ أبريل، بعد إشارات الخطاب[59]، لم أنزل إلى الشارع لأرى بنفسي؛ لكنّي تأكدت من عدة مصادر، أنّ جوامع الأحياء الغنية والمتوسطة لم يخرج منها أحد، فيما اندلعت التظاهرات في أحياء الخالدية وعشيرة وبابا عمرو، وهي أحياء فقيرة ومهملة. لم يمنع رجال الأمن بعض المتظاهرين من التخريب؛ بل منعوهم، بحزم، من الخروج خارج أحيائهم. فجأةً، ظهرت العصابات المسلحة وأطلقت النار على متظاهرين سلميين في حي الأرمن وعلى رجال الأمن. لم يوقفهم أحد[60]، وأظنكم رأيتم إحدى هذه السيارات على التلفاز[61]. في هذا اليوم قتلت اللجان الشعبية بالخطأ ثلاثة ديريين[62] كانوا في سيارة تنقل الخضار، وسقط قتلى وجرحى من المتظاهرين ورجال الأمن. كما قُتلت صبية في الخالدية على شرفة منزلها من قبل الأمن؛ لأنها كانت تصور إطلاق النار على المتظاهرين الذين كان بعضهم يخرِّب(؟). اعتقل العشرات، وساد التوتر في الأحياء الفقيرة المختلطة طائفيًا، وسط تخريبٍ وإطلاق نار."

"يوم الثلاثاء 12 نيسان، تمت الدعوة للتظاهر، ولم يستجب أحد. الشائعات الطائفية تملأ المدينة، ورجال الأمن يساهمون في نشرها. سكان المدينة اختبؤوا في بيوتهم منذ الثالثة عصرًا."

"يوم الجمعة 15 نيسان، قامت مظاهرات سلمية حاشدة في جميع الأحياء من دون أن تتعرض للقمع في البداية؛ لكنهم منعوا المتظاهرين من الوصول إلى ساحة الساعة وفرقوهم بعنف، من دون إطلاق نار. سقط أحد رجال الأمن شهيدًا، وفي عزاء هذا الشاب العلوي، جاء رجل أمن وبدأ بشتم السُنَّة، فأسكته أخو الشهيد وردّ على شتيمته، محملًا "الأمن" المسؤولية. ارتياح عام من تراجع العنف، واختفاء العصابات والمندسين (كلهم اختفوا سويةً، سبحان الله!)."

---

[59] يقصد الخطاب الأول للرئيس في 31 آذار/ مارس 2011.

[60] حدث مثل ذلك في اللاذقية أيضاً (الكاتب).

[61] في ذلك إشارة إلى فيديو عُرضت إحدى السيارات التي تطلق النار بطريقة عشوائية في أحد شوارع مدينة حمص.

[62] من مدينة دير الزور.

"السبت 16 نيسان، مظاهرة مسائية في باب السباع تحاول التحول لاعتصام، فتقمع بشدة ويسقط 7 شهداء وكثير من الجرحى والمعتقلين. بعد قمع المظاهرة مباشرة، يستنفر حيّنا (عكرمة)؛ بسبب انتشار إشاعة بأن سنّة حي "باب السباع" سيهاجمونهم، فيخرج جميع الشباب إلى الشوارع، وتوزع أجهزة الأمن السلاح على أغلب أبنية الحي. تبدأ العصابات المسلحة، وليس أهل باب السباع، بمهاجمة هذه الأحياء بسيارات منفردة تطلق النار عشوائيًا، وتنصب إحداها كمينا للعميد عبدو خضر تلاوي وولديه وابن شقيقه وتقتله مع عائلته وتمثل بجثته[63]. أحد سائقي هذه السيارات يلتجئ إلى الإطفائية بسيارته المرشوشة بالرصاص ويطلب تسليمه للأمن وحمايته من اللجان الشعبية، وهذا ما حصل. الحصيلة 8 من الشهداء العلويين يحظون بالتغطية الإعلامية والأوسمة في اليوم التالي، و7 شهداء في مظاهرة باب السباع لا يذكرون أبدًا في الإعلام الرسمي!"

"الأحد 17 نيسان، تشييع شهداء باب السباع يتحول إلى مظاهرة سلمية عارمة تقدر بعشرات الآلاف. المشايخ، الذين كانوا مع التهدئة، يتقدمون المظاهرات ويمنعون المتظاهرين من أي عملية تخريب، بما فيها مبنى الحزب. مسيحيو حيّ الحميدية يرشون المشيعين بالأرز، وينزل بعضهم إلى التشييع. يلتقي الجميع عند الساعة الجديدة ويبدؤون اعتصامهم السلمي الذي لم يخرج منه أي شعار طائفي. رجال ونساء وأطفال من جميع الطوائف على الرغم من الطابع السني الواضح، وانضم آخرون إلى الاعتصام من جميع أرجاء المحافظة. عشرات الآلاف من المتظاهرين المنظمين والسلميين لم يكسروا حجرًا في رصيف، ولم يمزقوا حتى صورة للرئيس."

"نحو الساعة الثانية من صباح يوم الاثنين 18 نيسان، وكان قد بقي نحو ألفي شخص في الساحة. قُرأ بيان وزارة الداخلية[64] على المتظاهرين، المتضمن ضرورة إخلاء الساحة، ثم تلا ذلك إطلاق النار ما أدى إلى قتل وجرح العشرات. لم تستقبل المستشفيات الجرحى، وسيارات الإسعاف تسلمهم لفروع الأمن. الجوامع تدعو

---

[63] في الواقع، لا يوجد إثبات حول الجهة التي وقفت وراء هذه الجريمة حتى الآن.

[64] اتهم البيان "مجموعات سلفية" بقيادة "تمرد مسلح" والعمل على إقامة "إمارات سلفية".

للانضمام إلى الاعتصام لمساعدة المعتصمين وتقديم الدم والأدوية، ويدعو بعضها للجهاد. كما أطلق بعض أهالي حيّنا النار والزغاريد احتفالًا بالنصر!"

"الاثنين 18 نيسان، المدينة مكلومة وحزينة، الأبنية المحيطة بالساعة عليها آثار كثيفة لطلقات نارية. أغلب جثث الشهداء محتجزة، ومُنع الناس من تشييع الشهيدين اللذين سَلِمت جثّتاهما من الاختطاف، إذ قمع المشيّعون وفُرّقوا بعنفٍ شديد، ولست متأكدًا إن كانا قد دُفنا أم لا. الشوارع فارغة تمامًا، وزعران حيِّنا أصبحوا سادة الحي، وربما البلاد!"

تُقدِّم هذه الرسائل بعض التفاصيل المتعلقة بما حدث في الأسابيع الأولى في مدينة حمص والمنحى الذي اتخذته الحوادث فيها، وهي تتقاطع بلا شك مع ما ورد في وسائل الإعلام بخطوطه العريضة. حصل السيناريو نفسه في مدينة اللاذقية المختلطة طائفيًا أيضًا، لكنّ مسار الحوادث انقطع فيها لاحقًا؛ بسبب السيطرة الأمنية. لم يحدث ذلك في مدينة حمص، ربما بسبب السلاح الذي تدفّق عبر الحدود مع لبنان.

رسائل ذات دلالة

تابعتُ اندلاع انتفاضات "الربيع العربي" وكتبت عنها عدة مقالات[65]؛ لكنَّ بدء الحوادث في سورية ذاتها هزّ أعماقي؛ فالحدث في بيتك لا يترك الأثر نفسه كما لو كان في بيت جارك. تباينت المواقف منذ اللحظة الأولى؛ انخرط بعض المثقفين في حركة الشارع مباشرةً أو من خلال الإعراب عن التأييد والتضامن، فيما وقف آخرون ضدّ التظاهرات وشكّكوا في محتواها السلمي، وفضَّل فريق ثالث الانتظار والوقوف على الحياد إلى أن يزول حاجز الخوف نهائيًا أو يتضح مسار الحوادث.

وصلتني ردًا على كتاباتي الحماسية في 19 نيسان/ ابريل 2011 رسالة[66] من امرأة سورية جاء فيها:

[65] www.ahewar.org/m.asp?i=120

[66] وصلت مثل هذه الرسائل على بريدي الخاص في موقع التواصل الاجتماعي- الفيسبوك.

"أستاذ منير، تحية طيبة، أتابع أخبارك وما تكتب على صفحتك، واسمح لي بالقول: إنّ أغلبه يعجبني وليس كلّه. هذه التسريبات[67] التي تحدثتم عنها أنت والدكتور برهان[68] قد تكون من أساليب النظام التي يجب أن نتوقعها، مثلما قد توجد عناصر سلفية مندسّة بالفعل. أنا لا أنفي بالمطلق فكرة المؤامرة التي تتحفنا بها الفضائيات السورية؛ وأنت تعرف أنه لا بد أن يكون هناك أعداء للنظام، وليس لسورية فحسب، همُّهم إسقاطه بأي طريقة ممكنة، وهذه الأوقات هي المثلى لتحقيق غرضهم، وأظن أنّك، والدكتور برهان، تستبعدان هذه الاحتمالات، لكن لماذا لا نفكِّر فيها؟"

"هل تظن أنّ ما نكتبه على صفحات التواصل الاجتماعي من الاستغاثات مثل: "سورية تستغيث.. سورية تحترق!"[69] له أي قيمة عند الرأي العام العالمي؟ وهل أنت مقتنع أنّ أحدًا في الخارج، شخص أو مجموعات أو دول أو حتى رأي عام عالمي، يهتم فعلًا لأرواحنا ولحياة شبابنا؟ ألا تعلم أن جميع الأطراف الخارجية لها مطامع في بلدنا، وهم، بصورة ما، مثل أولئك الذين نثور عليهم الآن في الداخل، أو حتى أسوأ!"

"... ألا تتفق معي أنّ الحلّ الوحيد حاليًا هو التهدئة والانتظار؟ وإن لم يكن هذا رأيك، فبالله عليك أخبرني ما هي التطورات التي يمكن أن تحدث من زيادة الاعتصامات وزيادة عدد الشهداء؟ واسمح لي أيضًا أن أقول رأيي فيما يكتبه الدكتور برهان؛ أظن أنه تطرَّف كثيرًا في التحريض، لقد أرسلت له كثيرًا من الرسائل، وقرأت رأيًا مشابهًا لرأيي في كثير مما يكتبه أو يصرح به على شاشات الفضائيّات؛ لكنه لم يستجب. في الحقيقة، بدأت أعتبره محرِّضًا فحسب، وبدأ يفقد مصداقيته عندي. لم يكن هذا رأيه في بداية المظاهرات، وقد ذهب بعيدًا باتجاه المزيد من التحريض!"

---

[67] المقصود هنا ما كان ينقله إعلام النظام عن وجود مسلّحين مندسين بين صفوف المتظاهرين في أثناء المظاهرات الأولى بدرعا.

[68] الدكتور برهان غليون، الذي سيرأس ""المجلس الوطني" السوري" لاحقًا.

[69] إشارة إلى عنوان مقالة كنت قد كتبتها عند اندلاع تظاهرات درعا بعنوان: "الدم السوري يسيل وسورية تستغيث".
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=252187

"برأيي، من في الخارج، مهما كانوا وطنيين، فهم ليسوا بيننا، وهذا يكفي كي لا يكون لرأيهم أهمية رأي السوريين في الداخل، وأنّ أيّ شخص يقوم بالتحريض من الخارج عليه أن يأتي إلى سورية ويتظاهر بنفسه، فيكون له صدقية أكبر في الدفاع عن شبابنا!"

".. وأضيف طلبًا آخر من فضلك، علينا في هذه المرحلة ألاّ نستفزّ الطرف الآخر بإطلاق الشتائم أو الصفات الإجرامية عليه؛ لأنّه، بكل بساطة، سوف يبرهن لنا أنه على استعداد للردِّ باستخدام مزيدٍ من العنف، وعلينا إيجاد الطريقة التي توصلنا لحقِّنا بأقلِّ الخسائر."

***

أعتقد أن هذه الرسالة حملت في طياتها بعض المخاطر والمخاوف التي استشعرها عقل امرأة بعيدًا عن جميع الرغبات، وكشفت عن العاطفة الجياشة التي أخذتنا، وعدم قدرتنا، كمعارضة، على استخدام أدوات العقل والحكمة لمواجهة نظام يخطط وينفذ في الخفاء، ويستدرج خصمه إلى الحفرة التي يريدها.

لكن؛ كيف لي أن أقف على الحياد وقد انتظرت هذه اللحظة طوال حياتي، ودفعت ثمن خياراتي أكثر من مرّة. أنا الذي طحنني الاستبداد وعصف بحياتي مثل كثير من السوريين؟ مع ذلك، ربما أدخَلَنا الظلمُ في حالةٍ من انعدام التركيز بالفعل، وكنّا نحتاج لبعض الوقت حتى نستدرك ونفكّر في عقلٍ بارد، وحين وصل بعضنا إلى هذه الحال كان الخراب قد ذهب بعيدًا، ولفظنا الصراع الدامي على هامش الحوادث.

جاء في جوابي على رسالة هذه المرأة:

"قرأت رسالتك بانتباه في محاولة للاستفادة منها؛ لأنّ حدس المرأة يصدق في كثير من الأحيان. أقدِّر خوفك وتعقُّلك كامرأة من طبيعتها المحافظة على الحياة، فيما نرتكب نحن- الرجال- الحماقات في لحظات طيشنا وصراعاتنا."

"عمّمتُ ما نشره الأستاذ برهان غليون من منطلق أن ذلك قد يمنع قتلَ شخص آخر، وأشاركك ملاحظاتك ونقدك لبعض الذين يعيشون في الخارج، ويتجاوزون كثيرًا

من الحدود، ولو بحسن نية، إذ تأخذهم حرية التعبير بعيدًا، فيسيئون إلى القضية التي يدافعون عنها! للأسف، لا بدّ من تقديم التضحيات وواجبنا الحدّ منها؛ لكنّ ما العمل إن كان ثمة مَن لم يتوقفوا يومًا عن التنكيل بكل رأيٍ حر وحظر مختلف أشكال التعبير؟ ومع أنّ كلامك يشعرني ببعض الخجل، فالنيَّات الطيبة لا تجدي نفعًا في مثل هذه الأوضاع، ولا يمكن لأحد إيقاف الطوفان إن حدث، وكان لا بدّ من التنبؤ بحدوثه والحيلولة دونه من خلال القيام بإجراءات سياسية حكيمة. في جميع الأحوال، يسعدني أن نتشاور، وأتمنى ألاّ تبخلي عليّ بملاحظاتك، مودتي."

***

وصلت كثير من الرسائل التي عبّر أصحابها عن التضامن والحذر، ووصلت رسائل أخرى مليئةً بأقذع الشتائم وأخطر التهديدات من قبل موالين للنظام[70]، كما وصلت رسائلَ ذات طابع استفزازي، وتطرح وجهة نظر أنصار النظام وطاقمه الأمني، ومنها هذه الرسالة (22 نيسان/ أبريل 2011):

"السيد المعارض العبقري، أين أنت من المعارضة وما هو برنامجك؟ وكونك عبقري بالفلسفة (؟) حتمًا، فأنت تعتبر نفسك وطنيًا أكثر من الباقين، وأنا أقترح عليك أن تكون الناطق باسمهم (؟) كي يكون لك موقع مرموق، وذلك لفهلويتك ووطنيتك الفائضة التي صنعت نهرًا يصل إلى البحر. يمكن اسمك ينوّر لثورتكم البائسة الطريق، ويمكن أن تجدوا حلًا لكلّ مشكلة بحسب الأوامر التي تأتيكم من الخارج، فمبروك عليك أنت الوطني الذي يمشي الآن مع القتلة، ويكشر عن أنيابه تجاه بلده.[71]"

---

[70] من لا يقبلون أي رأي آخر ومستعدون لإلغاء صاحبه.

[71] جاءت هذه الرسالة من شخص يدعى س. ك. م. عُدل النص في محاولة لتصحيح الأخطاء والارتباكات. إشارات الاستفهام بين قوسين من عندي. وللأسف لم أحتفظ بروابط هذه الرسائل؛ بل كنت قد احتفظت ببعضها منسوخةً

تتضمن هذه الرسالة معظم النقاط التي يتعامل بها النظام وأجهزته الأمنية مع أي تحرُّك معارض:

- عدم وجود برنامج لدى المعارضة.
- لا وطنية غير تلك التي نحدّد مقاسها نحن.
- الربط بين من يعارض ووجود طموحات شخصية لديه.
- الربط بين المعارضة والعمالة للخارج.
- الربط بين المعارضة والخيانة الوطنية.
- أنْ تعارض يعني أن تكون خائنًا أو قاتلًا؛ الأمر الذي يبرر التعامل معك بالطريقة ذاتها.

سمعت في ربيع 2013، بعد مضي سنتين على هذه الرسالة، اسم هذا الشخص بالمصادفة حين دخلت بصورة شبه سريّة إلى نادي النقابات العمالية في اللاذقية، حيث انعقدت إحدى جلسات "الحوار الوطني" بين السلطة وشخصيات أهلية ومعارضة. أردت الاطلاع على ما يجري داخل هذه الجلسات عن كثب، من دون أن أسيء لمصداقيتي من خلال المشاركة فيها بصورة رسمية، وكنت قد تلقيت دعوةً من أحد الأصدقاء المشاركين في جلسة الحوار هذه. لم أعتقد يومًا بجدوى أيّ حوار تحت هيمنة سلطةٍ قامت على الإقصاء أو الاحتواء وليس على الشراكة، ولم يستجدّ ما يقنعها على الحوار أو التفاوض.

تفاجأت بوجود صاحب هذه الرسالة في الاجتماع الذي كان يخوّن ويسفّه جميع من يتكلم بعقلٍ من الحضور. وفتحت عينيّ على اتساعهما حين عرفت مِمَّن دعاني، وهو عضو سابق في حزب العمل الشيوعي، أنّ هذا الشخص هو عضو في لجنةٍ لصوغ مبادرة سلمية قُدِّمت إلى اجتماع الحوار الوطني هذا [72]

[72] ضمت اللجنة المهندس ف. ج. (من قياديي حزب العمل الشيوعي)، والدكتور م. ع. (عضو سابق في الحزب)، والمدعو س. ك. م، هذه المعلومات ذكرها على مسامعي الدكتور م. ع.

الفصل الثالث

من ذاكرة الحدث

الدم السوري في الشوارع

لم يعترِ الشك أي سوري بخصوص رخص دمه، وإمكانية أن يبدأ أول تحرُّك له للتعبير عن رأيه بإصرار السلطة المستبدة على قمعه بمختلف الوسائل، في وقت تتشدَّق فيه هذه السلطة ليل نهار بجرائم الاحتلال الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني؛ الاحتلال الذي يصارع شعبًا آخر صراعًا وجوديًا على أرضه!

دفع الشعب السوري طوال عقود عدة من حريته ولقمة عيشه ثمن المتاجرة بالشعارات والأكاذيب التي تخفي المزيد من الاستغلال والظلم؛ من أجل ذلك وظّف النظام الأمني ناطقين باسمه، في الداخل والخارج؛ ليروِّجوا لسياساته وينفخون في وطنيته المزعومة، في وقت قمع فيه أيَّ صوت سوري معارض في منتهى القسوة. أراد النظام موالين لا يتعاطون إلا سياساته، ويخضعون، بضغط الخوف، لمختلف التدخّلات الأمنية في شؤونهم، لا يتطرّقون إلى قضايا الفساد أو، بالأحرى، لأسبابها العميقة، ويعيشون تحت سقف ممارسة غرائزهم.

لم تكن السلطة القضائية لتتجرّأ على رفض ما تأمرها به الأجهزة الأمنية في التضييق على كل من تسوِّل له نفسه الاحتجاج بالتعبير عن رأيٍ مخالف، فكانت، في أحيانٍ كثيرة، واجهة لإرادات هذه الأجهزة في التنكيل بالمعارضين والزجّ بهم في السجون أو قطع أرزاقهم كما في عصر العبودية! كانت سلطة الظلّ الأمنية تتجاوز أي قانون، أو تسنُّ بنودها الخاصة في كلِّ قانون[73].

---

[73] تقضي المادة 137 من قانون العاملين الموحد لعام 2004 بأنه يحق لرئيس مجلس الوزراء فصل أي موظف حكومي من دون ذكر الأسباب؛ الأسباب هنا أمنية بالطبع، ورئس مجلس الوزراء هو من ينفذ توجيهات مكتب الأمن القومي بلا اعتراض. حين فصلت من جامعة تشرين باللاذقية عام 2006، أرسل وزير التعليم العالي كتابًا (رقم 945/ د تاريخ 16 حزيران 2006) إلى الجامعة يستفسر فيه عن سبب فصلي، على الرغم من أنه يحضر اجتماعات مجلس الوزراء!

***

لم يهدِّئ الخطاب الأول للرئيس في 31 آذار/ مارس، ولا مساعي النظام لتشكيل حكومة جديدة في منتصف شهر نيسان/ أبريل، ولا إلغاء حالة الطوارئ التي استمرت 48 عامًا[74] واستبدالها بقانون تنظيم التظاهر، لم يهدِّئ ذلك كله من غضب الشارع؛ ربما لإدراكه أن النظام يتلاعب بالنصوص من دون أن يُطبق منها شيئًا. كان وقت الأفعال الملموسة وليس للتحايل والوعود.

زُجَّ الجيش في الحوادث منذ أواخر شهر نيسان، ولو بصورة محدودة وانتقائية،[75] ما زاد من عدد الضحايا، وكانت ذريعة النظام في ذلك وجود عناصر مسلحة بين المتظاهرين[76]. ما كان يجب أن يفعله الجيش هو حماية التظاهرات، كما حدث في مصر، ومن ثم قطع الطريق على المسلحين ومثيري الشغب وعزلهم؛ لكنْ هيهات أن يكون الجيش العقائدي الذي تهيمن عليه الأجهزة الأمنية قادرًا على ذلك، وسيكون الجيش ذاته من بين ضحايا المقتلة السورية أيضًا.

كان لا بد من الخضوع لإرادة المنتفضين والاستجابة لمطالبهم المشروعة من أجل أن تستمر عجلة الحياة، وحتى لا تتدحرج كرة الثلج وتكبر، إذ لن يفضي القمع إلاّ إلى تفاقم المشكلة وتعقيد الحلّ. وكان الثائرون سيقتنعون بالإصلاح الذي يبدأ بتحجيم السلطة المطلقة للأجهزة الأمنية التي سلبت حرية الجميع وتغوَّلت عليهم، على أن تكون تلك الإجراءات حقيقية وتُفضي إلى تغيير تدريجي وملموس في بنية

---

[74] أُلغيت حالة الطوارئ في 21 نيسان/ أبريل 2011 واستبدلت بقانون جديد للتظاهر.

[75] اعتمد النظام على انتقاء مجموعات أو أفراد لمواجهة الاحتجاجات خشية حدوث الانشقاقات وبسببها، ولم تتحرك وحدات الجيش بصورة منظمة، ما حال تدريجًا من دون قيام هذا الجيش بأي أفعال منسقة وأصاب إرادته بالشلل، فضلا عن الأسباب الأخرى وأهمها البنية العقائدية والارتباط بالسلطة من خلال الأجهزة الأمنية، إذ تحتوي كل قطعة عسكرية على ما يسمى "ضابط أمن" يعمل كسلطة موازية. ومن ثم لم يكن بوسع الجيش القيام بمسؤولياته الوطنية عند الضرورة إلا من خلال مفهوم السلطة التي تفصِّل مفهوم الوطنية على مقاسها، بحيث لا يتجاوز مصلحتها في التأبيد والتوريث، إضافة إلى انتشار الفساد وعدم إمكانية تأمين الحدّ الأدنى من الموارد لجيش كبير ومترهِّل وغير محترف.

[76] مثلت الأعمال المسلحة في المرحلة الأولى للثورة مقدماتٍ أنذرت بتحوُّل المظاهرات السلمية العارمة إلى صراعٍ مسلّح. وجرت بعض الهجمات ضد الجيش والعناصر الأمنية، ومنها الهجوم على باص يقل عسكريين على الطريق الدولية في مدينة بانياس، والهجوم على مراكز أمنية في درعا وجسر الشغور وغيرها. ولم يُعرف حتى الآن إن كانت مجرّد ردود أفعال أم استفاقة عنفية "إخوانية" مؤجلة.

السلطة ذاتها. لقد عجز النظام عن فهم الأسباب العميقة لما حصل، وفشل في التقاط اللحظة التاريخية للتغيير بأقل الخسائر؛ بسبب أنانيته وفرط القوة التي اختزنها لمثل هذه الأوقات، فاتحًا بذلك المجال لجميع أشكال التدخّل الخارجي في الجسد السوري الحساس.

حين عشت وطنيتي السورية على الأرض

لم أطق متابعة الحوادث من خلال شاشة التلفاز أو الحاسوب، ولم أستطع إقناع نفسي بأنّ ما يحدث على الأرض هي ثورة شباب فحسب، وأنّ علاقة جيلنا بها لا تعدو كونها مجرد إحساس بتحقُّق الحلم الذي عانينا كثيرًا من أجله، فقرّرت الانخراط في مظاهرات الشارع؛ لأعيش الحلم بجميع حواسي ومشاعري؛ ولأكون صوتًا في جوقةٍ تنشد للحرية في شوارع مدينة من المدن السورية، إنّه إغراء عظيم لمن قضى عمره في الخوف والتنكيل من نظام الفرد الواحد والحزب الواحد والأجهزة الأمنية المتعددة.[77]

انتعلت حذائي الرياضي بنشوة عامرة، استقلّيت سيارة أجرة إلى ساحة "الشيخ ضاهر" في اللاذقية، في جمعةٍ سُمّيت "جمعة الصمود"[78]. توقّف السائق على حين فجأة قبل الوصول إلى الساحة بعد أن شاهد تشكيلات متنوعة من عناصر الأمن والجيش، واعتذر عن المضيّ قُدُمًا.

ترجّلت من السيارة، واتجهت إلى مدخل شارع القوتلي. كانت التظاهرة قد بلغت نهاية الشارع عند ساحة "أوغاريت"، فهرعت للالتحاق بها. في بداية الشارع وقف رجال بأيديهم مختلف أنواع الهراوات، منها ما انتزع من مكان ما على عجل، كان منظر هؤلاء راعبًا والشارع مقفرًا، وشعرت بخوف من أن ينهالوا عليّ بالضرب في أي لحظة؛ لكنّي غذّيت الخطى إلى الأمام، كمن يركض وراء حلمٍ غامض!

---

[77] ولدتُ عام 1958؛ العام الذي شهد نهاية مرحلة ديمقراطية قصيرة (1958-1954) قامت في نهايتها الوحدة بين سورية ومصر، كبداية ملتبسة لاستبداد طويل.

[78] 8 نيسان/ أبريل 2011.

وقف عناصر من شرطة الشَّغب في منتصف الشارع في أنساقٍ متسلِّحين بعتادهم الكامل؛ شباب في مقتبل العمر وعلى وجوههم براءة الأطفال، لم أشعر بالخوف عند مروري قربهم؛ بل انتابني إحساس أبوي تجاههم.

حين بلغتُ التظاهرة، مشيت في محاذاتها، التقطت الصور بخوف في البداية، ثم تجرَّأت ونزلت من الرصيف إلى أرض الشارع، كمن ينزل من عالمٍ إلى آخر، وتغلغلت بين الحشد خطوةً فخطوة، يصمّني ضجيج دقات قلبي المتسارعة. في البداية، ردّدت شعاراتهم في نفسي، ثم ردَّدتها بصوتٍ سمعته وحدي، إلى أن اختلط صوتي بأصوات الآخرين، فاجتاحتني قشعريرة لذيذة، وانتشيت بتلك العلاقة التي تربطني بأبناء بلدي.

لم أعتقد أنّ الأمور منظمةٌ إلى هذا الحدّ؛ كان الإيقاع منسجمًا والهتافات تتبدَّل من حينٍ إلى آخر، يتخلَّلها الشعار الرئيسي: "الشعب يريد إسقاط النظام"، وترتجُّ الحناجر بقوة عند ترديده!

رأيت أشخاصًا ينتمون إلى جميع ألوان الطيف الاجتماعي في المدينة، بأغلبية سنية، وتراوحت الشعارات بين إسقاط النظام والتضامن مع مدينة درعا والحضِّ على عدم التفرقة الدينية والطائفية ووحدة الشعب السوري، كردٍّ على محاولات إثارة الفتنة في مدينة ذات تنوع اجتماعي مبهج؛ الأمر الذي يجعل الحياة فيها حلوةً على الرغم من كل شيء.

تقدَّمت التظاهرة نحو عشرين امرأة وفتاة، رفعت إحداهن لافتة كتب عليها "شبابنا خط أحمر". وحين حاذت التظاهرة منزل أحد أعضاء "مجلس الشعب" الذي لا علاقة فيه للمضاف بالمضاف إليه، نعته المتظاهرون بالجبان، ومن إحدى الشرفات فتح شاب كيس أرزّ ونثر حباته على الحشد كمن يبذر أرضًا بكرًا!

تحوّلت التظاهرة عصر ذلك اليوم، إلى اعتصامٍ في إحدى الساحات[79]. شكّل المشاركون حلقة كبيرة توسطتها عدة نساء محجَّبات، إضافة إلى امرأتين غير محجَّبتين. استمر ترديد الشعارات، وتجلت تظاهر رائعة من التضامن الاجتماعي، إذ دار أحدهم على المعتصمين لجمع المال في قبعة، وبعد ذلك بدقائق كان الطعام والحلوى يوزَّع بسخاء على المعتصمين.

ركبت سيارة أجرة كانت تنتظر قرب مكان الاعتصام من أجل العودة إلى البيت بكل فخر واعتزاز، كمن قام بأمر جلل. بدا واضحًا من أسئلة السائق أنّه من عناصر الأمن أو من مخبريهم، إذ بادرني بالحديث قائلًا: "إنّ عدد هؤلاء المتظاهرين قليلٌ (قدّرت العدد وقتها بما يتراوح بين 5000 و10000 آلاف متظاهر ومتظاهرة)، وإن القنوات التلفزيونية مغرضة، وضرب مثال عليها قناة "العربية" ونعتها بـ "العبرية". كان السائق يحاول إقناعي بوجهة نظره فيما كنت قادمًا من مكان الحدث! إنّها عقلية دعائية جرَّت وراءها أتباعًا تزيَّف وعيُهم في لحظة خوف أو ارتباط مصالح، فاندفعوا في مقاومة التغيير بلا هوادة.

كم كنت مبتهجًا وقتها لأتحدّى السائق، ومن ورائه، بهذه الطريقة "الانتحارية"؛ قدّمت له اسمي وصفتي، وترجُلت من السيارة، متّجهًا بزهوٍ إلى البيت. أردت التحليق بسعادتي وليكن ما يكون!

سمعت قبيل منتصف تلك الليلة، فيما كنت أستعيد مشاعري بهدوء، أصوات طلقات نارٍ غزيرة قرب مكان الاعتصام. فهمت بأنّ الهدوء الحذر الذي عايشته في المكان كان أمرًا عارضًا فحسب. تعرضت في اليوم التالي سيارتي للتخريب والرشّ بالدهان، إضافة إلى الكتابات الاستفزازية، لقد بدأت المواجهة غير المتكافئة!

أثبت السوريون في تلك الأثناء أنهم لن يقبلوا رشاوى النظام بهدف الالتفاف على مطالب المتظاهرين السياسية، فقد رفض الأكراد في الشارع بكبرياء رشاوى

[79] تعرف هذه الساحة بساحة العلبي.

الجنسية[80] التي باشر النظام بمنحها للذين كانوا قد حُرموا منها، وعبّروا عن وحدة مطالبهم مع جميع أطياف الشعب السوري. ولم يُجدِ النظام نفعًا وعدُه بإنشاء محطة فضائية دينية[81]، والسماح بعودة المعلِّمات المنقّبات اللواتي فُصلن من التعليم[82]، على الرغممن أن شيوخ النظام هلّلوا لهذه المكرمات!

وليس للأقليات من رشاوى سوى الإمعان في تخويفها من الخطر الإسلامي؛ لتبقى صامتةً في وقتٍ لا يجدي فيه الصمت نفعًا. لاحقًا، سيتجلّى هذا الخطر بشدة؛ بسبب انسداد آفاق الحلول، وغزو الجهاديين أرض سورية من جميع الأصقاع، واتخاذ الصراع بين مصالح الدول الإقليمية مظهر حرب سنيَّة- شيعية.

أجاد النظام اللَّعب بالأوراق الخارجية بجدارة، ثم انتقل عند اندلاع التظاهرات إلى اللَّعب على التناقضات الأهلية بصورةٍ مكشوفة، فهو يعرف نقطة ضعف مواليه ومعارضيه على حد سواء[83]. كان الواقع السوري على مفترقٍ خطر؛ إما وحدة أبنائه وتضامنهم للتخلص من الاستبداد أو الانتقال إلى مرحلةٍ سافرة من الانقسام الاجتماعي العمودي الحادّ. كانت معظم المؤشرات تقول بحدوث الاحتمال الثاني، نظرًا لعدم توافر قيادة وطنية مؤهلة لعملية التغيير، فتُركت الساحة مفتوحةً لمختلف التدخلات الخارجية.

---

[80] أعلن الرئيس بشار الأسد في يوم الخميس 7 نيسان/ أبريل عن تنفيذ قرار منح الجنسية لآلاف من المواطنين الأكراد السوريين بعد حرمانهم منها لعقود.

[81] أطلقت قناة "نور الشام" الفضائية كمحطة ناطقة باسم المؤسسة الدينية الرسمية في 31 تموز/ يوليو 2011.

[82] صدر قرار عام 2010 بإحالة المعلمات المنقبات إلى وظائف أخرى.

[83] في مجتمعات غير ناضجة، تؤدي الشائعات دورًا رئيسًا في التحشيد والتخويف، ومن خلالها يمكن إثارة ردود الأفعال وتوجيهها.

تجلّى الموقف اللاأخلاقي لأنصار النظام[84] الذين تقصّدوا تخويف الموالين العاديين[85]، من اللحظة التي ركّزوا فيها على أصوات نشاز وشعارات على الهامش[86]، وصمّوا آذانهم عن سماع شعارات وطنية لا لبس فيها، مثل "الشعب السوري واحد" الذي بحّت به أصوات المتظاهرين على امتداد أشهرٍ عدة! كما تجلّى انخداعهم بالوطنية المزعومة عندما استبدلوا شعار "الله.. سورية.. حرية وبس" بشعار "الله.. سورية.. بشار وبس!"

---

(84) مَن يرتبطون بالنظام عضويًا من خلال المصلحة والمصير.

(85) مَن يوالونه انطلاقًا من اعتقادهم بأنه نظام دولة، أو نظام "ممانعة ومقاومة".

(86) من مثل شعار: "المسيحي ع بيروت والعلوي ع التابوت." بالنسبة إلي لم أسمع هذا الشعار في المرات التي شاركت في التظاهرات أو راقبتها؛ لكنّ مصادر موثوقة أكدتها في بعض المناطق؛ فقد حدّثني أحد الأصدقاء من بلدة بداما بريف إدلب عن قيام أطفال بترديد هذه الشعارات أمام مدرسة البلدة، وطردتهم إدارة المدرسة. كانت المدرسة تحتوي حينها على أكثر من 20 مدرِّسة علوية ومسيحية.

الثلاثاء 19 نيسان/ أبريل 2011

تصاعدت الاحتجاجات، وطالبت بإسقاط النظام. حاولت السلطات بشتى السُّبل منع تحوُّل التظاهرات إلى اعتصاماتٍ في الساحات، بعد أن منعت وسائل الإعلام من تغطية الحوادث، وعبّأت جميع إمكانات إعلامها الدعائي، بما فيه الحديث عن المندسين والعملاء والتمرد السلفي المسلح، كما جاء في بيان وزارة الداخلية في الليلة التي سبقت اعتصام الساحة في حمص، وقُبيل قمعه بقسوة بالغة[87].

شعرت باكتئاب شديد؛ لأنّ ثمة نظامًا مغلقًا لا صوت فيه للعقلاء، وأن بعض تجليات العنف الطائفي بدأت بالظهور في وسائل الإعلام، وليس ثمة إمكانية للسيطرة على الشارع؛ بسبب غياب قيادةٍ سياسية للانتفاضة/الثورة على المستوى السوري؛ الأمر الذي سيجعل الاحتمالات السيئة كلها متاحةً. لم يكن بوسع النظام النجاة إلاّ إذا استطاع تغيير طبيعة الحدث وجرِّ الآخرين إلى ملعبه، وسيقدم له التطرُّف الإسلامي وداعموه هذه الرغبة على طبقٍ من ذهب.

نظرتُ في عيون طفلتيَّ، وفكّرت بمستقبل أطفال سورية، فيما كنت محاصرًا بين جدران منزلي منذ نحو سنة؛ بعد أن قطع عني النظام موارد العيش جميعها ومنعني من السفر، كضربٍ من القتل البطيء. لقد دارت عجلة التاريخ ولا سبيل لإيقافها، مع أن كثيرين كانوا على استعداد للتلاعب بمسارها.

---

[87] حدث ذلك فجر يوم الاثنين 18 نيسان، كما ذُكر سابقًا، بعد قراءة بيان وزارة الداخلية حول إخلاء الساحة وامتناع معظم المعتصمين عن تنفيذ ما ورد في البيان.

20 نيسان/ أبريل 2011

حدثت بعض أعمال العنف في بانياس[88]، وأُهين معتقلون في ساحة قرية البيضا[89]. كما بدأت فوضى الإعلام بالانتشار وتأجيج الفتن، وخشيت أن تغطي أوساط المعارضة، ضعيفة الخبرة، على أعمال العنف، فيخسر "إعلام الثورة" مصداقيته. كما اعترتني مخاوف كبيرة من منزلقاتٍ محتملةٍ قد تقود إلى حربٍ أهليةٍ شاملة، فكتبت من فرط حميتي بيانًا باسمي شخصيًّا بعنوان: "إلى أبناء وبنات الشعب السوري العظيم[90]"، ولم يجدِ ذلك نفعًا بالطبع! كما وقع مثقفون سوريون على بيان يؤكد المضي في انتفاضة الشعب، باعتبارها ثورة ضد الاستبداد، والمحافظة على

---

[88] قُتلت مجموعة من المتظاهرين الشاب محمد جنود من ريف بانياس بتاريخ 2011/4/11 بطريقة بشعة، واستغلت ذلك قناة "الدنيا" الفضائية شر استغلال لتخويف الكثيرين. http://youtu.be/wFHcKm5f41A ، كما هاجمت مجموعة مسلحة جامع أبي بكر الصديق عند الفجر وأطلقت النار على المصلين عند خروجهم من الجامع.

[89] قامت عناصر مسلحة بقيادة الضابط في الأمن السياسي أ. ع. باعتقال شبان وإهانتهم في ساحة القرية المذكورة.

http://www.alrassedonline.com/2011/04/blog-post_8414.html

http://www.alarabiya.net/articles/2011/04/15/145494.html

[90] هذا نص البيان:

"وصلت انتفاضة الشعب السوري المطالب بحريته إلى مفترقٍ حرج، وكان النظام الاستبدادي يستجدي منذ البداية أمرين؛ الطائفية والعنف؛ ليحوِّل مسار الحركة الاحتجاجية في هذين الاتجاهين؛ ما يبرِّر له القمع الدموي الذي بدأه، وشقّ صفوف المجتمع السوري بتخويف مكوِّناته بعضها من بعض."

"وما حدث في الأيام الأخيرة أن جاء ما كان النظام يبحث عنه، ولو بصورة جزئية وملتبسة، فأعلنت وزارة الداخلية وقف الاحتجاجات بأشكالها كافة، وهذا ما يؤشر إلى أن النظام فتح عينًا على الحل الأمني وأغلق عينه الأخرى على الحل السياسي، ضاربًا عرض الحائط مطالب الشعب المحقّة في العيش في وطن حرٍّ كريم تسوده العدالة والقانون وتكافؤ الفرص."

"إنني أهيب بالثوّار المحافظة على شعاراتهم الوطنية التي جرى رفعها في جميع أنحاء سورية، ورفض أي شكل من الدعوات المذهبية والعنفية؛ لقطع الطريق على الحمقى من جميع الأطراف، الذين يحاولون وضع الماضي أمام المستقبل، ويساهمون من ثم في وأد حركة الشعب السوري لاستعادة حريته ورفع المظالم التي سبّبها له نظام استبدادي لعب على جميع التناقضات الداخلية والخارجية."

"وأتوجه بشكل خاص إلى الآلاف من طلابي وطالباتي في أنحاء سورية كلِّها، الذين شاركوني مسيرة العلم والثقة بلا حدود، قبل أن يحرمني النظام الأمني من فرصة التواصل مع شباب سورية الذين يصنعون المعجزات، وأُهيب بهم أن يعوا خطورة منزلقي الطائفية والعنف على مستقبل الثورة السورية، وحرمان السوريين من الأمل بمستقبل يليق بهم، وكلي ثقة بأنّنا سنجتاز هذه المرحلة بأقل الخسائر، وذلك بفضل وعينا وتلاحمنا."

opl-now.org/?p=3956

المنحى السلمي للانتفاضة، وتطوير فعالياتها للوصول إلى تحقيق الهدف بأقل الخسائر[91].

25 نيسان/ أبريل 2011

يبدو أنّ النظام اتَّخذ قراره بمواجهة الانتفاضة، مدعيًا أنها مجرّد حركة سلفية فحسب، ومهّد لذلك في إعلامه بعرض جثثٍ مُثِّل بها من بعض المسلّحين. لا شك في أنّ ثمة سلفيين وغيرهم ضمن الحراك؛ لكنّ ذلك لا يبررّ اعتبار الحراك كله حركةً سلفية مسلحة والتعامل معه على هذا الأساس. ربما يحاول النظام تطبيق الحلّ الذي اعتمده ضد تمرد حزب الإخوان المسلمين في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات على واقعٍ مختلف.

دفعني الخوف من الاعتقال هذا اليوم إلى التواري بعد أن وقّعت على بيانٍ ضد الكذب الإعلامي للنظام والقمع[92]، ثم قررت العودة إلى البيت خوفًا على أسرتي من تمادي بعض الجيران في الأذى. أغلقت هاتفي الخليوي، فصلت الهاتف الأرضي، وتابعت الأخبار لحظة بلحظة من خلال شاشة التلفاز.

---

[91] www.odabasham.net/show.php?sid=44290

[92] www.aljazeera.net/.../2E0A7991-F7F7-4348

26 نيسان/ أبريل 2011

ازدادت حدّة التّنكيل بأسرتنا، وصار المراهقون من أبناء الجيران يرددون شعار "الله.. سورية.. بشار وبس" في وجوهنا، وتتجدّد كل يوم الكتابات المستفزة على سيارتنا، إلى جانب التخريب المتعمّد. كما حفروا على مقدمة السيارة عبارة "أنا معارض[93]". في هذا الصباح، كان زجاج السيارة مرشوشًا بالدهان الأسود، فلم أستطع الخروج. ثمة تحريض واضح لشبان في مقتبل العمر على إيذائي.

سرت إشاعات في المناطق الموالية تتضمن تهديدات ضد جميع المعارضين، وبأنّه ستجري تصفيتهم بعد انتصار النظام. كما وجدتُ ورقة ملصقةً على السيارة مكتوب عليها كلمة واحدة بالخط العريض: "خلصت"! شعرتُ بالارتباك والخوف على أسرتي في هذه الأجواء التي تنذر بالخطر الشديد، إذ بدا بعض المؤيدين للنظام وكأنّ مسًّا قد أصابهم!

[93] ما زال هذا الحفر موجودًا على مقدمة السيارة حتى الآن ولم أزلْه قصدًا، كضرب من المقاومة السلبية، ولكوني أفتخر بمعارضتي وأعتبرها واجبًا أخلاقيًا، فيما حاول من فعل ذلك أن يخيفني ويحرض عليّ.

5 أيار/ مايو 2011

سورية في مهبِّ القمع والثورة و ... الحرية!

بعد نحو شهرين على انتفاضة لم نشهد لها مثيلا منذ مرحلة الانتداب[94]، صار بالإمكان استنتاج ما يلي:

أولًا. حدّد النظام خياره في القضاء على الحركة الاحتجاجية والتظاهرات بوساطة الحلّ الأمني الذي ينسجم وطبيعة ممارساته تجاه معارضيه منذ أن أسّس.

ثانيًا. استمرت الحركة الاحتجاجية في الشارع، وإن تفاوتت من مدينة إلى أخرى، تبعًا لدرجة تجاوز حاجز الخوف وممارسة الشجاعة الجماعية، كما حافظت الشعارات والهتافات على وطنيتها وسلميَّتها بدرجةٍ معقولة. في الوقت ذاته، ما زال الخوف مسيطرًا على شرائح واسعة من الشعب؛ بسبب الخوف من القمع أو الخوف من الشارع نفسه.

ثالثًا. استخدمت من أجل القضاء على الانتفاضة، "خلطة" من الجيش والأمن والشرطة واللجان الشعبية أو الشبيحة [95]، وسيكون الجيش ضحيتها الأولى؛ بسبب فشله في الوقوف على الحياد وحماية الشعب في مثل هذه التحولات السياسية العميقة.

رابعًا. إنّ أخطر الأوراق التي لعبها النظام هي الورقة الطائفية، منذ أن أشارت نائبة الرئيس إلى ذلك في مؤتمرها الصحفي في 24 آذار/ مارس 2011. نجحت حملة التخويف في انكفاء أبناء الأقليات الذين كان نزولهم إلى الشارع مرتبكًا وحذرًا. كما

---

[94] المقصود هو تلك الاحتجاجات التي كانت تندلع أحيانًا ضد المستعمر الفرنسي (1920- 1946)، وأهمها إضراب 1936 الستيني الشهي الذي دعت إليه "الكتلة الوطنية."

[95] الشبيحة، في الأصل، هم مجموعة من حراس أفراد من العائلة الحاكمة وأعضاء شبكات التهريب المرتبطة بهم في اللاذقية، المدينة التي عانت كثيرًا من تجاوزاتهم في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، وربما اشتقت التسمية من سيارات المرسيدس- الشبح التي كانوا يستخدمونها؛ لكن الاسم الذي صار يطلق على الشبيحة بعد الثورة لا علاقة له بهؤلاء تقريبًا، إذ شمل المتطوعين في اللجان الشعبية وبعض خريجي السجون من الجنائيين الذين أطلق سراحهم في مراسيم العفو الرئاسية المتتالية منذ بداية الانتفاضة، إضافة إلى قوى محلية للدفاع الذاتي. ثم تعمَّم هذا المصطلح ليشمل كل موالٍ للنظام، في خلط مقصود وكضربٍ من الشتيمة. انضوت تلك المجموعات لاحقًا تحت مسمّى واحد هو "جيش الدفاع الوطني"، وارتكبت كثيرًا من الأعمال غير المسؤولة والجرمية، إضافة إلى أعمال النهب والتعفيش في المناطق التي تمكّن الجيش من السيطرة عليها.

لم تكن معظم الفئات الميسورة من الأغلبية الطائفية معنيةً بما يحدث على وجه التقريب. ولئنْ كان لاستخدام الورقة الطائفية وقع الصاعقة في البداية، في المناطق المختلطة خاصَّة، فقد تراجع أثرها من دون أن يختفي؛ بسبب تنامي التوجهات الإسلامية المتطرفة في الشارع، وتدخل بعض الدعاة[96] المنخرطين في الصراع السني-الشيعي القائم منذ 1400 سنة!

خامسًا. ثمة قناعة شبه مؤكدة باستحالة إصلاح النظام من الداخل، وأن لا صوت للعقلاء فيه، وأنّه يفضِّل التعايش مع نقيضه السلفي الذي يستحضره كفزّاعة كلما هبّت عليه رياح الانتقادات من بلدان الغرب أو احتجّ الشعب على فساده واستبداده.

سادسًا. بخلاف ما يدعيه النظام حول وجود المؤامرات الخارجية، فإنه ما يزال يتمتّع بطوق أمانٍ عربي ودول لم يتوافر لغيره من أنظمة الاستبداد؛ ولم تكن التحرُّكات الخارجية ضدّه إلا نوعًا من رفع العتب، فيما توجَّهت تصريحات أحد النافذين في النظام إلى طمأنة أميركا وإسرائيل![97]

سابعًا. يحاورُ النظام أشخاصًا لا يمثلون في الغالب سوى أنفسهم، فضلًا عن أنّ مطالبهم بعيدةٌ كل البعد عما يريده من تجرّأ على النزول إلى الشارع ليطالب بالحرية، بما يتضمنه ذلك من تغيير سياسيّ أساسًا. وبهذا الخصوص، يحتاج أي حوار مباشر بين الطرفين؛ السلطة وممثلي الشارع، إلى إعادة التوازن على الأرض، أي وقف القمع واستمرار التظاهر السلمي وتنظيمه.

ثامنًا. ظهرت ملامح ممارسات فاشية سافرة في الأوساط المؤيدة للنظام، إذ صار التنكيل والتحرش والأذى يطال المعارضين بدءًا من عتبات بيوتهم حتى الشارع ومواقع التواصل الاجتماعية والمكالمات الهاتفية.

---

[96] الشيخ العرور على سبيل المثال لا الحصر. كانت المشكلة، وستبقى إلى أمدٍ غير معروف، في تقبُّل هذا الصنف من الدعاة والدجالين من قبل عامة جاهلة ومجهَّلة!

[97] منها تصريح رجل الأعمال المقرَّب من السلطة رامي مخلوف لصحيفة نيويورك تايمز الأميركية عن أنّ استقرار إسرائيل مرتبط باستقرار سورية.

all4syria.info/Archive/8263

تاسعًا. قد ينجح النظام في قمعه لفترة محدَّدة؛ لكنّه لن يستعيد أبدًا شرعيته عند أغلبية الشعب السوري بعد أن فقد هيبته وأغطيته الأيديولوجية. إنّ استمرار الاحتجاجات وتطورها مرهونٌ بمدى قدرة المتظاهرين على تطوير أساليب جديدة، وصولًا إلى مرحلة من العصيان المدني إلى هذه الدرجة أو تلك.

الجمعة 6 أيار/ مايو 2011

سُميت هذه الجمعة بجمعة التحدي، وكان العدد الأكبر من الضحايا من نصيب مدينة حمص. في تظاهرة بحيّ الميدان بدمشق اعتقل صديقي[98] بعد ضربه، وأُفرج عنه بعد أسبوع من اعتقاله. كانت معنوياته عالية، وقال لي، على الهاتف: إنّه التقى شبابًا "ينعشون الروح"، واعتبر اعتقاله "حجّة مباركة!"

في هذه الأثناء، محت المشاعر الجياشة وأجواء التضامن كثيرًا من الفروق بين الإسلاميين والليبراليين والعلمانيين؛ لكن ذلك لم يدمْ طويلًا، حيث ستحمل العسكرة والأسلمة معها بذور التفتيت والانقسام والإقصاء. المرحلة مفتوحة على الاحتمالات السيئة كافة، ولا حلّ في الأفق غير الحلّ الأمني المدمِّر.

استمرّت الإزعاجات والتهديدات من جهة أخرى، وتوقّف معظم جيراننا عن إلقاء التحية؛ خوفًا من بعضهم أو حقدًا من بعضهم الآخر. أصبحنا لا نغادر المنزل إلا عند الضرورة، نعيش في قلق شديد وننتظر انتهاء العام الدراسي للسفر إلى الدريكيش، إلى حيث سبقتنا تسريبات تفيد باعتقالي، ربما لاختبار ردّ فعل الناس. إنّ إضافة معتقل آخر إلى آلاف المعتقلين لن يغير في الأمر شيئًا، وربما هو أفضل من الوقوع بين أيدي الرعاع من الموالين. ومع أنّ التجوّل في شوارع المناطق الثائرة كان يعدّ خطرًا، فقد شعرت فيها بضربٍ غريب من الأمان، على الأرجح انطلاقًا من تضامنٍ لا سابق له مع الثائرين.

---

[98] ستتكرر كلمة "صديقي" كثيرًا في هذا النص والمقصود بها شخصيًا الأستاذ رياض سيف، وعلى العموم، تمثل وجهة النظر السياسة التي فشلت في القيام بدور وطني في أحوج الأوضاع التاريخية إليها.

الجمعة 20 أيار/ مايو 2011

سُمّيت هذه الجمعة بجمعة الحرية أو أزادي باللغة الكردية، كإشارةٍ إلى التضامن العربي- الكردي. تجوَّلت في شوارع اللاذقية برفقة صديقين. كانت متاريس الجيش منتشرة في نقاط أساسية من المدينة، كما دارت سيارات الأمن واللجان الشعبية في شوارع المدينة لمنع أي تجمعٍ أو تظاهر. لم يظهر الخوف على وجوه الناس؛ بل يبدو أنّهم يشعرون بالطمأنينة في أحيائهم وبين أهلهم. النساء كنّ يراقبن الحركة في الشوارع من الشرفات العالية، وينذرن المتظاهرين بالتفرُّق عند قدوم سيارات الأمن. وكان الخوف والارتباك باديين بوضوح على ملامح من يحاولون قمع التظاهرات.

ظاهرة جديدة تتمثّل بالتكبيرات في منتصف الليل من على شرفات المنازل والأسطح، كضربٍ من التحدي[99]، وقد أثارت حفيظة رجال الأمن لصعوبة قمعها، مثلما أثارت حنق أنصار النظام في الأحياء المجاورة، الذين لم يفهموا منها سوى نداءات للجهاد والحرب، مع أنها لم تكن سوى صرخاتٍ عجز معظم السوريون عن استبدالها بأشكالٍ أخرى من التعبير السياسي! كما أثار التحريض الذي مارسه بعض الدعاة[100] مشاعر سلبية تاريخية عند بعضهم، وذكرياتٍ لمراحل ساد فيها الاضطهاد الديني، وعزَّز الانطباع بتزايد التوجهات الدينية المُجانبة للوطنية في صفوف الثائرين؛ الأمر الذي لا يخدم، على وجه التوكيد، ثورة شعبية تهدف إلى التغيير الوطني الديمقراطي.

وعند قيام بعض المتظاهرين بأفعال متطرفة، ويجري تضخيمها مرّات، كنتُ أنال نصيبي من الأذى؛ باعتباري "مندسًا" ومشاركًا في التظاهرات، وينظر إليّ بعض جيراني بحقد، كأنني المسؤول عن "الأزمة"، أو أنني القائد الذي لم يتحمّل مسؤولياته وينقذ بلده في اللحظات العصيبة!

---

(99) كان في ذلك تقليدًا لما حدث في أثناء الثورة الإيرانية عام 1979.

(100) وصل التحريض الديني في العقود السابقة إلى درجات غير مقبولة، واتخذ أشكالًا مختلفة مثل استعادة الصراع المذهبي السني- الشيعي من خلال عشرات الفضائيات التي احتلت مساحة هامة من الإعلام، إلى جانب القنوات التجارية التي تستغل الدين وقنوات الفن الرخيصة، ما يعبر عن ثقافة مأزومة على جميع الصُّعد. بيد أن التحريض الديني هو الأخطر؛ لما يحمله من ثقافة إلغاء الآخر، فضلًا عن ضمور الجانب الروحي والإنساني في مثل هذا الخطاب أو انعدامه!

الخميس 26 أيار/ مايو 2011

يجري التحضير لانعقاد لقاء تشاوري في الداخل، في وقت لم يحرز النظام نجاحًا ملحوظًا في قمع التظاهرات، على الرغم من عملية خلط الأوراق بهدف تبرير الحلّ الأمني. البارحة دخلت في نقاشٍ حادّ مع عدد من الأشخاص في قريتي، ويبدو أن بعضهم بدأ يتعلّم التفكير، فيما يتّخذ المتضررون من النظام مواقف شديدة الوضوح فيما يتعلق بالتضامن مع الثائرين، من دون أن يكون بوسعهم فعل أي شيء ملموس. ثمة من يضمرون مشاعر خوفٍ مشحونة بعدائية شديدة. كما اختلطت عند بعضهم الآخر مفاهيم الوطن والطائفة والنظام. على وجه العموم، من المبكر استشفاف ملامح التطورات المقبلة التي ستتوقّف على المسار الذي ستتخذه الحوادث أو الكيفية التي ستنتهي بها.

ربما أمكن التمييز بين وطنيتين؛ وطنية غامضة وعاطفية تؤمن بسورية الجغرافية كوطن نهائي، ووطنية ممسوخة على مقاس السلطة الضيق التي تضع كل من يعارضها في عداد "الخونة والمتآمرين!"، فيما يتجاوز معظم الإسلاميين مفهوم الوطنية ذاته. الأمر المؤثر هو تواصل بعض طلابي وطالباتي في اللحظات الصعبة ليخبروني عن اعتقال أحدهم أو استشهاد آخر أو المشاركة في نشاط ما أو لاستشارتي فيما ينوون فعله. كم ترضيني تلك الثقة، إنها تجعلني غير قادرٍ على احتباس دموعي.

2 حزيران/ يونيو 2011

شعرنا بأمان افتقدناه لعدة أشهر حين عدنا إلى الريف. أعوام عشرة قضيتها في بناء منزلنا هذا ولم يكتمل، وقد نقلنا إليه بعض الحاجات البسيطة من بيتنا في اللاذقية، بما يكفي للعيش فيه صيفًا.

كم هو ملهم هذا المكان الساحر؛ تضرب قطرات المطر الأعشابَ الطويلة التي تنحني وتهتزّ تحت ثقلها، ثم تبكيها دمعةً دمعةً، تهرع الفراشات إلى مكان ما لتحتمي فيه من وابل المطر، تتمايل شقائق النعمان الحمراء وحيدة بعد أن فارقتها أخواتها الزرقاء لسبب مجهول، وتضفي رائحة العشب المبتل مزيدًا من الإحساس إلى المشهد المميَّز. في الجوار، تكتسي أشجار الزيتون بأزهارها الصفراء الناعمة لتضيف لونًا آخر إلى خضرتها الدائمة، فيما تتعالى زقزقةُ العصافير المنهمكة في إطعام صغارها داخل الأعشاش، ومن بعيد يتعالى نهيق الحمير وهي تنادي بعضها بعضًا، آملةً بلمّ الشّمل وتبديد الملل. حاولت ترتيب بعض الأفكار، بعيدًا عن التوتر والصّخب والجدال، فيما كنت أتملى تلك الفرجة الغربية المفتوحة على البحر التي طالما ألهبت مشاعري منذ الطفولة.

6 حزيران/ يونيو 2011

تحدّثت الأخبار عن هجوم مسلح تعرضت له قوى النظام المختلفة في مدينة جسر الشغور، وذهب ضحيته العشرات[101]، بعد عدة أيام من التظاهرات ومحاولات قمعها. أعلن المقدم المنشق حسين هرموش[102] مسؤوليته عن الهجوم على المراكز الأمنية في هذه المدينة؛ لكن المشاركة في هذه المعارك المبكرة لم تكن تقتصر على العناصر المنشقّة عن الجيش.

حدثني أحد الأصدقاء من منطقة الجسر عن العلاقات المعقدة لمفارز الأمن مع المهربين في تلك المنطقة، ومنها تقاسم غنائم التهريب، وابتزاز المهربين من قبل هذه العناصر، والتنافس بين عوائل المنطقة، والتحاق كثير من المهربين بخط "الثورة"! كما تحدث بغرابة عن عدم نجدة النظام لعناصره المحاصرين لأكثر من 24 ساعة. كما وردت مثل هذه الأقوال ممَن نجا من هذه المذبحة التي تلقّى فيها النظام أكبر خسائره في تلك الفترة المبكرة، ومثّلت أخطر إشارة لما ستؤول إليه الحوادث لاحقًا.
وقال الصديق: إنّ المسلّحين شجعوا الأهالي في المناطق الحدودية المحاذية للهجرة إلى تركيا؛ بحجّة أنها فترة مؤقتة يعودون بعدها إلى بيوتهم بعد سقوط النظام، مثلما حدث أيضًا في مناطق سورية أخرى[103]. يذكّر ذلك بما فعلته الجيوش العربية بعد قيام دولة "إسرائيل" عام 1948، حين طلبوا من الفلسطينيين النزوح موقتًا حتى تُحرر بلدهم- فلسطين- ومن ثم يعودون إلى بيوتهم.. ما زال الفلسطينيون في الشتات حتى الآن، وما زالت مفاتيح بيوتهم الصدئة تذكِّرهم بذاك الأمل!

---

[101] www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/06/110606_syria_deaths.shtml

[102] من أوائل الضباط المنشقين، وسيرأس لاحقًا "لواء الضباط الأحرار".

[103] روى بعض المواطنين الذين خرجوا من جوبر للكاتب أن جبهة النصرة طلبت منهم النزوح عن ديارهم لفترة محددة ريثما يجري إسقاط النظام!

14 حزيران/ يونيو 2011

أعداد المتظاهرين والمظاهرات أيام الجُمَع في تزايد مستمر، علاوة على التظاهرات الليلية في باقي أيام الأسبوع. كما تواصل آلة النظام الإعلامية الحديث عن العصابات المسلحة، مع العلم أنّ الأمر كان يتعلق بالمنشقين عن الجيش وبعض المجموعات المسلحة، التي لا يمكن أن تحجب الطابع السلمي للاحتجاجات وضرورة الاستجابة لمطالب المتظاهرين سياسيًا.

آفاق الحراك الشعبي في شهره الرابع

ازداد بعد أربعة أشهر من الاحتجاجات التي عمّت معظم المدن والبلدات السورية، زخم التظاهرات وتواترها، ولم تعد تقتصر على أيام الجُمَع. كما ما يزال الفرق شاسعًا بين ما يحدث على الأرض وما يفهمه النظام منه، أو ما يحاول أن يصوّره، في وقت تجاوزت فيه الأمور تلبية بعض المطالب الخدمية إلى ضرورة إعادة ترتيب البيت السياسي السوري برمته، ومعالجة المسائل الحقوقية والسياسية التي لا يمكن أن تحصل إلا بالتوازي مع التغيير المتدرج لبنية النظام.

قدّم خطاب الرئيس الثالث[104] وعودًا بإجراء إصلاحاتٍ سياسية؛ لكنّه لم يحدد طبيعتها ومحتواها، فبدت فوقيّةً وبلا آلياتٍ ملموسة لتطبيقها على أرض الواقع، فيما اتّسعت فجوة الثقة بين النظام ومعارضيه.

المسكوت عنه في هذه الخطابات والمؤتمرات الصحفية هو غياب الحديث عن سيطرة الأجهزة الأمنية على مؤسسات الدولة والأفراد وتدخلها في أدقّ التفاصيل، جوهر المشكلة في سورية، فضلًا عن تجاوز هذه الأجهزة لاختصاصاتها والتركيز على

[104] حازت في 20 حزيران 2011. الخطابات الأولى لرأس النظام على اهتمام العالم كله، على أمل أن تحصل فيها بعض المفاجآت الجدية، التي تفتح نافذة على حلّ سياسي، لكن عبثًا! بل إن المفارقة تمثلت بتلك الانفجارات العاطفية وتصنُّع اللامبالاة للإيحاء بالثقة. كان ذلك أمرًا غير مفهوم أو غير طبيعي قياسًا لفداحة الحدث وخطورته!

حماية النظام [105]. من دون الحديث في هذا الموضوع صراحةً، يبدو الخوض في المشكلات الوطنية الأخرى أمرًا بلا معنى، إذ لا يمكن استبدال مطلب الحرية، التحرر من القبضة الأمنية خاصَّة ووضعها تحت سلطة القانون، بمطالب ثانويةً مثل تخفيض الأسعار أو الحصول على بعض الخدمات!

لم يكن ثمة شيء ملموس ليقدم كاستجابة لمطالب المنتفضين، بالسرعة والإيقاع المطلوبين في مثل هذه الأوضاع. كما لم يكن أيّ من خطابات رأس النظام على مستوى ما حدث في سورية من قتلٍ واعتقال وتهجير، ولم تزل حالة الإنكار والتجاهل هي السائدة، في محاولة للقول: إنّ الأمور تحت السيطرة، فيما يتلاشى الأمل، تدرّيجًا، ليترك الساحة مفتوحة لمزيد من العبث، ويُدخل سورية في دهاليز المتاهة المقبلة.

ترافقت التظاهرات المعارضة للنظام بحشود المسيرات التي ينظّمها مؤيدوه تحت حمايته، شكّل ذلك بدايةً لانقسامٍ اجتماعي ما انفكّ يتصاعد، وسيمرّ بعض الوقت قبل أن يجد المعارضون والموالون أنفسهم عاجزين عن أي فعل أو تأثير، ويتحولون إلى ضحايا صراعٍ عدمي مرير.

لو بدأت مشاريع الإصلاح المزعومة بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين السلميين، بما فيهم معتقلو التظاهرات الأخيرة، ومحاكمة من أطلق النار على المتظاهرين والجيش والسماح بالتظاهر السلمي للمعارضين مثل المؤيدين وحمايتهم من "العصابات المسلحة التي تطلق النار على المتظاهرين والأمن"، لو حدث ذلك لكان منطلقًا يمكن البناء عليه[106]، ما يفضي لعزل المتطرفين من الجانبين. بخلاف ما سبق لم يكن ثمة حلٌّ يلوح في الأفق، بانتظار توافق دولي لا يبدو أنه سيحصل قريبًا؛ بسبب التناقضات العميقة في مواقف الدول المعنيّة ومصالحها.

---

[105] اقتحمت منذ بداية الثمانينيات الأجهزة الأمنية المجال السياسي بقوة، وصارت الاستخبارات العسكرية هي اليد الطولى في الرقابة على المجتمع. تبادلت هذه الأجهزة أدوار السيطرة أكثر من مرة، إلى أن صارت الاستخبارات الجوية القوة المركزية في القمع بعد اندلاع الحوادث.

[106] كان الأمر يتطلب شبه معجزة؛ ليقوم النظام بذلك.

عُقِد في هذه الأثناء اللقاء التشاوري[107] للحوار الوطني في دمشق، بحضور نائب رئيس الجمهورية فاروق الشرع، وقاطعه معظم المعارضين في الداخل. حيث خرج اللقاء بتوصياتٍ [108] غير ملزمة لم يُطبَّق منها شيء، واستمرت الحوادث بالتقدُّم، بثباتٍ، صوب الهاوية!

[107] في 10-11 تموز/ يوليو 2011. www.al-akhbar.com/node/16352.

[108] منها وقف القتل، وسحب الجيش والأمن من الشوارع، وإطلاق المعتقلين السلميين جميعهم، والسماح بالتظاهر السلمي ومحاسبة القتلة، كدليل حسن نية للبدء بحوار جدي.

27 حزيران/ يونيو 2011

عُقد **مؤتمر سميراميس**[109] وسط دمشق بمشاركة نحو 200 شخصية من المعارضين المستقلين في الداخل، بعنوان "سورية للجميع في ظل دولة ديمقراطية مدنية"، وواجه المؤتمر هجومًا عنيفًا من المعارضة الخارجية ومجموعة مؤتمر أنطاليا[110].

كان ثمة ضوءٍ أخضر خجول من السلطة لانعقاد هذا المؤتمر، وتعلَّق المجتمعون بكلمة الرئيس حول أنّ كلّ شيء قابل للبحث فيما يتعلق بالإصلاح، فكانوا يأملون أن يصلحوا النظام مثلما حاول النظام إصلاح المعارضة من خلالهم! ومع أنّهم أكّدوا معظم مطالب الشارع نظريًا، معترفين بمحوريتها، فقد كان بعضهم يبحث عن دورٍ من خلال إمساك العصا من منتصفها.

---

(109) http://www.dp-news.com/pages/video-detail.aspx?vid=198276

أكد البيان الصادر عن المؤتمر أنّ المؤتمِرين هم جزء من الحراك الشعبي، كما رفض البيان التدخل الخارجي، وبحث سبل الانتقال إلى دولة ديمقراطية مدنية، وإنهاء الحل الأمني.

(110) من أوائل مؤتمرات المعارضة السورية. عُقد يوم الأربعاء في الأول من حزيران/ يونيو 2011، وطالب بتنحي الرئيس وحلول نائبه فاروق الشرع مكانه، ريثما تجري انتخابات تشريعية. حضره الإخوان المسلمون كمراقبين، وفي اليوم التالي، طاروا إلى بروكسل لعقد مؤتمر آخر، في سباق للاستحواذ على غنيمة التمثيل المنتظرة!

30 حزيران/ يونيو 2011

أسست هيئة التنسيق الوطنية[ii] في سورية، وسبقتها بأسبوع حركة "معًا" من أجل سورية حرة وديمقراطية"[iii] بمساهمة مثقفين ومعارضين معظمهم من أبناء الساحل. اعتذرت عن الدعوة للانضمام إلى هذه الحركة، إذ لم أشأ الانتساب إلى تجمُّع ينتمي معظم المنضوين في إطاره إلى المنطقة الساحلية، حتى لا يُفهم الموضوع بصورة خاطئة، أو يستغله أصحاب المشاريع الطائفية من متسلّقي الثورة، الذين كانوا قد بدؤوا ببثّ سمومهم من خلال وسائل الإعلام.

13 تموز/ يوليو 2011

تظاهرة المثقفين بدمشق

سافرت صباحًا إلى دمشق للمشاركة في تظاهرةٍ دعا إليها مثقفون وفنّانون في حيِّ الميدان [111]. انطلقنا مساءً؛ صديقي وزوجته وأنا، ووصلنا إلى جوار جامع الحسن متأخرين 5 دقائق عن موعد التظاهرة في تمام الساعة السادسة.

بدأت الاعتقالات لعدد من الفنانين منذ اللحظات الأولى، ومع ذلك، تقدمت التظاهرة ورُفعت الشعارات. واصل عناصر الأمن التقاط الناشطين وضربهم، وبذلنا جهدنا لتخليص أحد الناشطين الجرحى بلا جدوى، وحصانتنا النسبية هي كبر أعمارنا.

اقترب مني أحد العناصر وهو يهزُّ عصا غليظة في وجهي: "لستم وحدكم مثقفين، أنا أيضًا مثقَّف، وأريد الحريّة!"، وعلى إحدى الشرفات كانت مجموعة من النسوة والفتيات الصغيرات يرددن شعاراتنا بسعادة.

---

(111) http://www.hamasatdamad.com/vb/showthread.php?t=28957&page=59

جرى تفريق التظاهرة بقوة حين تجاوزت الشعارات حدودًا معيّنة. لا شك في أن ثمة مشكلة كبيرة في طريقة تنظيم التظاهرات، ولم يُحسب حسابٌ كافٍ لأهمية الحدّ من الاستفزاز، ضماناً لاستمرار التظاهرة أطول مدةٍ ممكنة.

أما المشاعر التي تنتاب الفرد في تظاهرة، بعد عقود على الصمت والخوف، فلا يمكن وصفها ببساطة؛ إنها مزيج من جميع المشاعر وقد تكثّفت إلى حدّ الانبهار، كطبخة لذيذة اختلطت فيها الطعوم، فلا تعود تميّز أيًا منها. الخوف في التظاهرة مختلف عن مثيله في الأحوال العادية، إذ يتوزع على الجميع فلا يبقى منه غير ارتعاشة عابرة!

التقينا في طريق عودتنا إلى مكان ركون سيارة صديقي في أحد أزقة حي الميدان، بعض التجار من معارفه. سلَّم الرجال الثلاثة علينا، وعبّروا، باستخفاف وسخرية مبطَّنة، عن رفضهم لما نقوم به، ولاموا زميلهم الصناعي- صديقي- على مشاركته في التظاهرة، فردّ عليهم بأنّه يدافع عن حريته وكرامته. شعرت حينها بأنَّ مفهوم الحرية والكرامة بدا سقيمًا وبائسًا كطفلٍ مشرَّد!

كان اثنان من التجار يرتدون بناطيل قصيرة في حارة شعبية لا تستطيع أي امرأة فيها الخروج من دون حجاب أو نقاب. ولفت انتباهي الطريقة المبتذلة التي تحدّث بها هؤلاء، الذين ينتمون إلى تيار عريض من التجار المعتادين على النأي بأنفسهم عن السياسة ومهادنة أي سلطة، على مبدأ: "اللي يتزوج أمي أقول له عمي!" أو "ما دخلنا!"

استُدعي في مساء اليوم التالي للتظاهرة صديقي إلى فرع أمن الدولة في جادة الخطيب بدمشق. رافقناه، زوجته وأنا، إلى مكان قريب من الفرع، وانتظرناه في إحدى الكافيتريات. بعد نحو ساعتين، عاد وأخبرنا بأنّهم طلبوا منه عدم إجراء مقابلات مع السفراء الأجانب في منزله أو مكتبه. وبدوره، كما قال لنا، برّر ما يقوم به من منطلق كونه عضوًا سابقًا في مجلس الشعب.. واستمرت اللقاءات من دون إزعاجات جدية.

15 تموز / يوليو 2011

كانت جمعة "أسرى الحرية" في هذا اليوم، ونزل مئات الآلاف من المتظاهرين في مدن وبلدات عدة. كانت الأعداد غفيرةً في مدينتي حماه ودير الزور خاصَّة، وسقط المزيد من الضحايا. كما نُشر شريط مصور قام فيه متطرفون بذبح بعض الأشخاص في حماه ورميهم في نهر العاصي[112]، ما أثار موجةً من الاستنكار واليأس، مخافة أن يشوه العنف الأرعن مجريات الانتفاضة الشعبية ويقدم المبررات لمزيد من القمع. لا شك أن ثمة عناصر متطرفة وطائفية بدأت في نخر الجسد السلمي للتظاهرات، والعمل على تخويف وتهديد من يعتبروهم أعوان النظام، أفرادًا وعائلات، كضرب من التطهير المذهبي، خاصة بالنسبة إلى العلويين خاصَّة[113]؛ الأمر الذي أدى إلى هجرة وتهجير هؤلاء من المناطق الساخنة.

اجتاح الجيش مدينة حماة في نهاية شهر تموز 2011، وسبق ذلك إقالة وزير الدفاع[114] لرفضه، كما قيل، استخدام الجيش في قمع التظاهرات.

---

(112) http://i.aksalser.com/vic.flv

(113) استندتُ في ذلك إلى مقابلات مع عشرات الأشخاص الذين لا علاقة لهم بأجهزة السلطة الأمنية والعسكرية كالمدرسين والمهنيين، وللحق فإنهم وجدوا في جيرانهم المساعدة في تأمين خروجهم من الأماكن الساخنة في أغلب الحالات.

(114) العماد علي حبيب.

20 تموز/ يوليو 2011

جنون الحلّ الأمني

تدحرجت كرة الثلج من درعا لتعمَّ مدنًا وبلداتٍ كثيرة، وردّ النظام بطريقة عكست عدم خبرته في التعامل مع التحرُّكات الشعبية، مقارنةً بخبرته الطويلة والعميقة في التعامل مع الأفراد والأحزاب والتنظيمات.

بدأت التظاهرات في المدن الصغيرة والضواحي، حيث البؤس أكبر، والسلطة الشمولية أقل حضورًا، فيما ساهم الركود السياسي المديد في خشية بعضهم من التغيير، فضلًا عن المشاركة في صنعه. وعلى الرغم من جميع محاولات تحويل مسار الثورة الشعبية إلى العنف والطائفية، كانت الأمور ما تزال ضمن الحدّ الطبيعي الذي يمكن أن يشوب أي انتفاضة من هذا النوع، من حيث استخدام الوسائل المتوافرة للدفاع عن النفس في بعض الحالات، أو ظهور بعض التوجهات الطائفية؛ بسبب الاستفزازات المتكررة أو من دونها.

اضطر الثائرون إلى التراجع إلى الأحياء الشعبية التي تشكل ملاذًا آمنًا نسبيًا في وجه آلة قمع لا ترحم، ما حدّ من التحاق كثير من أبناء الطبقة الوسطى والمثقفين[115] بالتظاهرات؛ لتبقى الشعلة متأججة بفضل أبناء الطبقات الشعبية، الذين ليس لديهم كثير ليخسروه؛ لكن من السهولة بمكان السيطرة عليهم بالعاطفة أو الحاجة.

ساهم عزل المدن والبلدات والأحياء في حصر النشاط الثوري في أماكن ضيقة؛ الأمر الذي أثار عند الثائرين شعورًا بالغيظ والحنق أحيانًا، فكانت طريقة مطالبتهم الآخرين بالمشاركة في الثورة من أسباب ابتعاد هؤلاء عنها! كما علت الدعوات التي تُلقي باللّوم على المدن الهادئة مثل حلب[116]، متهمة أياها بمساندة النظام، وأنه لن

[115] كما حدث في مدينتي حماه ودير الزور، حيث نزل مئات الآلاف إلى الشوارع (22 تموز/ يوليو، 2011).

[116] تعرضت مدينة حلب لاحقًا لأكبر كارثة بعد أن هاجمها "الثوار" صيف 2012 من أنحاء الريف الحلبي، ومن ثم تدمير كثير من أحيائها وسرقة وتخريب منشآتها الصناعية. كان ثمة شبه إجماع من أهل مدينة حلب الذين التقيتهم على الأقل، على رفض ما حصل تحت أي ذريعة. قدرت مساهمة مدينة حلب بثلث الناتج الصناعي الوطني في عام 2010.

http://www.aksalser.com/?page=view_news&id=b95924bc8144a225d880892b16ede1c8

يُسمح للصامتين بالمشاركة في جني ثمار الثورة، ما أثار نوعًا من التوجّس والريبة من مثل هذه السياسات الصبيانية!

التجأ المتظاهرون في الوقت ذاته، إلى قيم تراثية وإيمانية تساعدهم على الصمود في هذه المواجهة غير المتكافئة، كقيم الشهادة والتضامن في الملمّات. صارت الأوضاع هنا ملائمة لبعض رجال الدين المهووسين ليحشدوا الجهاديين من أنحاء العالم كافَّة، وبدأ تغلغل القوى المتأسلمة في المشهد الفوضوي لتحويل المطالب الوطنية المستحقة إلى مجرد أوهام ماضوية عقيمة، ولو إلى حين.

***

ترافق تطبيق الحلّ الأمني بالتركيز الإعلامي على بؤر التطرُّف، ومحاولة اختزال المشكلة بصراعٍ مع "المجموعات الإرهابية المسلحة"، التي، بناء على ذلك، يمكن تبرير التعامل معها باستخدام الأسلحة الملائمة. ساعد النظام في ذلك لجوء بعض المتظاهرين إلى السلاح بحجّة حماية التظاهرات، وبدوافع إسلامية واضحة، لتتحول الثورة، تدريجًا، إلى مجموعات مسلحة يقودها أمراء حرب لا يخضعون إلاّ لمموِّليهم، فيما تواجه نظامًا يمتلك مؤسسات الدولة وبقايا شرعية داخلية وخارجية، ما يمكِّنه من حشد قوى لا بأس بها ضدّ معارضيه. وهكذا تسارعت خطوات الحل الأمني في سباق مع الزمن، على أمل السيطرة على الاحتجاجات، في موازاة تزايد الضغوط العربية والأجنبية.

أفضى زجّ الجيش في قمع التظاهرات، ولو بصورةٍ انتقائيةٍ وحذرة، إلى مخاطر كبيرة على وظيفته وتماسكه، فكثرت الانشقاقات في صفوفه من دون أن تتحول إلى انشقاقات "كتلية" ذات مغزى عسكري مهم. كما ساهم استخدام القوى غير النظامية في خلط الأوراق، باعتبار أنّ مرجعياتها وقياداتها يشوبها الغموض، ومن ثم يمكن التنصل رسميًا من ممارساتها أو التزام الصمت حولها. وشيئًا فشيئًا، صار من شبه المستحيل تراجع النظام أو معارضيه بعد أن تشابكت الخيوط الإقليمية في الواقع السوري الهش.

***

كان استمرار الثورة السورية حتى تحقيق أهدافها في التغيير الديمقراطي مرهونًا بعدم الوقوع في المحظورات الثلاثة: العنف، والطائفية، واستدعاء التدخل الأجنبي خارج إطار المنظومة الدولية؛ لكنّ مجريات الحوادث على الأرض ابتعدت تدريجًا عن تحقيق هذا "الحلم" أو وضعته على الرّف! فالعنف والطائفية هما سلاحا النظام وقوى الإسلام السياسي لتأجيل استحقاق التغيير في الاتجاه الوطني الديمقراطي، بعيدًا عن أي استبداد، كما أنّ التدخل الخارجي على الطريقة الليبية، من دون ضمانات دولية لحلّ سياسي، كان سيعقد الوضع أكثر[117].

من جهة أخرى، لم تدفع الأوضاع الاستثنائية في سورية المعارضةَ للإسراع في التوحّد والتحلّي بالروح الوطنية- السورية [118]، ريثما تتشكل قوى سياسية جديدة. على العكس، كان الادعاء بتمثيل الثورة سبيل هؤلاء ليكونوا أتباعًا للقوى الإقليمية والدولية، فشكّلت أورامًا معارضة عوضًا عن جسمٍ حيّ معارض. انسحب ذلك أيضًا على مجموعات المسلحين، فضاعت مصالح السوريين وأرواحهم وأرزاقهم في لجّة تضارب هذه المصالح أو تلك، كما تراجعت أهداف الثورة في الحرية والكرامة، واقتصرت، لاحقًا، على مطلب إسقاط الرئيس.

---

[117] اقتنعت الأطراف الدولية المراقبة بسبب التنوع السوري المذهبي والقومي وبدء ظهور الانقسامات العمودية في المجتمع، بأن لا حلَّ عسكرياً للوضع، وكان بيان جنيف 1 صيف 2012 ثمرة هذه القناعة.

[118] اقترح الصديق المفكر جاد الكريم الجباعي استخدام مصطلح "السوري" عوضًا عن "الوطني" في الإشارة إلى ما يجمع السوريين؛ بسبب التباس فكرة الوطنية في هذه المرحلة.

قلّل بعض المعارضين من خطر المجموعات الإرهابية مستعجلين سقوط النظام، متذرعين بخطر بقاء النظام ذاته، وهو حقٌّ يراد به باطل؛ فمع أنّ بقاء النظام فترةً أطول لن يفضي إلا لمزيدٍ من التأزم، فإنه لا يجوز الاستخفاف بفداحة المخاطر التي قد تتعرض لها سورية بعد هذا العنف والقمع كله، بما في ذلك الفوضى المفتوحة، ولا يعفي المعارضة من واجباتها في تقديم البديل السوري الوطني(119). نشير هنا إلى أنّ تحذيرات عديدة جاءت من مراكز أبحاث عالمية بهذا الصدد، ومفادها أن المعارضة السورية تركز على إسقاط النظام ولا تهتم، بدرجة كافية، بمخاطر المرحلة الانتقالية(120).

حاول الناشطون السلميين في هذه المعمعة، تدشين تلك التحولات التي قد تفضي إلى عملية التغيير المنشودة، وعلى الرغم من جميع التعقيدات والمشكلات التي راكمها النظام الاستبدادي خلال عقود، وعبّروا عن مزيدٍ من النُّبل الوطني في أحيانٍ كثيرة. لكنّ استمرار القمع دفع بالقوى الأكثر جهلًا وتطرفًا إلى احتلال واجهة الحوادث بقوة السلاح. وفي ذات الوقت، أعلنت الدول الغربية أن النظام قد فقد شرعيته، ودعت رئيسه إلى التنحي، بعد أن طالبته بإجراء إصلاحات سياسية على امتداد ستة أشهر.

---

(119) http://www.crisisgroup.org/ar/Regions%20Countries/Middle%20East%20-%20North%20Africa/Egypt%20Syria%20Lebanon/Syria/146-anything-but-politics-the-state-of-syria-s-political-opposition.aspx

(120) مجموعة الأزمات الدولية؛ مؤسسة مستقلة غير ربحية تحاول مقاربة الأوضاع الدولية بصورة موضوعية.
www.crisisgroup.org/ar.aspx

أواخر تموز/ يوليو 2011

الانتقال إلى دمشق

كنا متوجِّسين من العودة إلى منزلنا في اللاذقية بعد أن غادرناه في أواخر شهر أيار/ مايو 2011؛ بسبب الأجواء العدائية والأذى من الموالين للنظام. خلال الفترة بين شهري أيار وتموز، اتصل صديقي مرات عدة ليقنعني بالانتقال والعيش في دمشق بغية العمل معًا من أجل المرحلة المقبلة. كنا قد استضفنا صديقي وزوجته في اللاذقية بعد اندلاع الحوادث في تونس، واتفقنا حينها على متابعة التشاور والتواصل في حال امتدت الاحتجاجات إلى سورية.

تعارفت وصديقي أول مرة عام 2006 على الطريق الدولية بين دمشق وحمص، قرب بلدة دير عطية، وكان قد طلب مني، هاتفيًا، موافاته للتعارف، وكنت حينها أدرِّس في جامعة القلمون الخاصة بعد فصلي من جامعة تشرين باللاذقية [121]. منذئذٍ، حصلت بيننا لقاءات عديدة، واستشارني مرارًا في أثناء التحضير لاجتماعات "المجلس الوطني" لإعلان دمشق أواخر العام 2006[122].

---

[121] بهذه المناسبة، وبعد فصلي من جامعة تشرين في شهر حزيران/ يونيو عام 2006، هاتفني المحامي الأستاذ حسن عبد العظيم[121] من إعلان دمشق وطلب مني إعداد بعض الوثائق من أجل رفع دعوى أمام القضاء الإداري بدمشق للطعن في لا دستورية الفصل، وأعلن عن استعداده وتطوعه، مع عدد آخر من المحامين، للدفاع عن المفصولين مجانًا أمام المحكمة. كما زارني وفد من إعلان دمشق مؤلف من 6 شخصيات، وحمل أعضاء الوفد معهم هدية هي طقم طناجر ستانلس ستيل. استضفناهم على مائدة الغداء، وأصرت زوجتي على أن تطبخ لهم بصورة مميزة، لكن بطناجر أخرى! في حديث مع صديقي بعد سنوات، ذكر لي عرضًا أن هذا الوفد كان قد كُلِّف بنقل مبالغ مالية إلى المفصولين الـ 17! فهل كان تبديل المبلغ المالي بالطناجر لفتةً ذكية من الوفد حتى أتقبل الهدية، أم كان ثمة أمر آخر خمَّنته بعد أن نظر صديقي إلى زوجته بصورة معبِّرة؟

[122] إحدى الترتيبات التي كان يُعدُّ لها وراء الكواليس في التحضير لانطلاق المجلس الوطني لإعلان دمشق، أو رغبة صديقي على الأقل، هي أن تكون السيدة د. فداء حوراني (ابنة الزعيم السوري المعروف أكرم الحوراني) رئيسة للإعلان وأن أكون نائبًا لها؛ لكني عبرت لصديقي عن عدم رغبتي بالعمل السياسي في تلك الفترة، فقد أردت ترميم حياتي بعد فصلي من العمل وتعرضي لحالة صحية. في النهاية، صارت السيدة فداء رئيسةً للإعلان و د. عبد العزيز الخير نائبًا لها بعد رفض "علوي" آخر من بعدي هو عباس عباس (رحمه الله) لهذا المنصب. كان من المتفق عليه أن رئيس الإعلان يجب أن يكون "سنيًا" بينما يكون نائبه "علويًا"، وبهذا الصدد لمحت مرة بين أوراق صديقي ورقة كتبت عليها أسماء الأعضاء المقترحين للمجلس الوطني لإعلان دمشق، ومقابل كل اسم دُوِّنت الطائفة التي ينتمي إليها!

أغدق صديقي، على زوجتي وعليَّ، كثيرًا من الوعود، أهمها تأمين عمل لكلينا، لكن، تبيَّن أنّ هذه الوعود، مع افتراض حسن النيّة، لم تكن سوى بقايا محاولات إعادة اعتبار ذاتية لرجل أنهكه السجن وترك في نفسه اضطرابات عميقة من الصعب تجاوزها[123]. ما لنا وهذه الأمور الثانوية، فقد كان الهدف الأساس لمجيئنا هو المساهمة في تشكيل تجمع سياسي معارض ليواكب التطورات المتسارعة، باعتباره ضرورةً ملحة يجب بذل الغالي والرخيص في سبيلها. حصل لاحقًا أن تحوّل صديقي للترويج لاتجاه سياسي إقصائي مدعوم من دول إقليمية بعينها من أجل قطع الطريق على الجهود الهادفة للبحث عن توافقات وطنية داخلية، ومن ثم الحوار والتفاعل مع جميع الأطراف خدمةً للمصلحة السورية، ما أفضى، في نهاية المطاف، إلى مزيدٍ من الارتهان والإخفاق في عمل المعارضة السورية، ووصولها إلى طريق مسدود.

انتقلنا في بداية شهر آب إلى مدينة دمشق، وعشنا في منزل ابنة صديقي الشاغر في ساحة الميسات بالمزرعة لمدة عشرة أيام، كضربٍ من الاختبار على التكيُّف. كان الجو حارًا ولم نعتد العيش في أجواءٍ مكيّفة، فشعرنا بمزيد من الاكتئاب والغربة. ثم عرض علينا الصديق الانتقال إلى منزله بضاحية قدسيا لتسهيل تواصلنا، فاشترطنا توقيع عقد اكتراء نظامي. أخيرًا، سكنا في الشقة الأرضية[124]من المنزل المؤلف من طابقين.

كان صديقي مضيافًا، يعيش نمط حياة يتلاءم وحالته المادية وأسلوب عيشه الليبرالي، ومن أولئك الذين جنوا المال من خلال تطبيق أنظمة العمل الحديثة في الثمانينات. من جهتنا، علمتنا الحياة الحذر فيما يتعلق بالتعاملات المادية غير المتكافئة إن أردنا الاستقلال في مواقفنا، فلكم أفسد المال علاقات واشترى ذممًا! كانت وظيفة زوجتي، إضافة إلى عملنا المشترك في الترجمة، هي مصدر العيش، ولم

---

[123] حتى إنّ أحد الذين ساعدهم صديقي في إنشاء مركز للترجمة رفض طلبه لمساعدتنا في العمل، ولاحظت أنه يكابر في تصديق ذلك؛ لأنه كان محبطًا بالفعل؛ بسبب ما كان قد قدّمه لمعارضين سابقين من أجل الانطلاق في أصعب الأوضاع.

[124] إنها الشقة نفسها التي عقد فيها اجتماع "المجلس الوطني" لإعلان دمشق بداية عام 2007، وكان الأستاذ هيثم المالح قد عاش فيها لمدة شهر مع زوجته، كمتخفٍّ، قبل خروجهما من سورية! في الواقع كانت هذه الشقة قد صممت لتلائم الاجتماعات، وهي من بين ما قدمه صديقي للمعارضة منذ ربيع دمشق عام 2000.

تكن الوعود بتأمين العمل سوى وسيلة لجذبنا إلى دمشق ووضعنا تحت الأمر الواقع، كأتباع سياسيين لا حلفاء، كما اتّضح لاحقًا.

مع ذلك، كان لنا موعد يومي مع أصدقائنا على مائدة الإفطار الرمضانية، حيث استعدنا نمط حياتنا السابق بتناول الأطعمة الطازجة. كما واظبنا على تقليدٍ جمعنا صباح كل يوم جمعة، ألا وهو تناول طبق الفول الذي كانت زوجتي تتفنَّن في طرائق تحضيره، إضافة إلى مواعيد شرب الشاي اليومية في المساء. كما أضاف وجود ابنتينا الحيوية والابتسامة على الأجواء المكفهرة بسبب تداعيات الحوادث اليومية الأليمة، وقد جمعتهما مع صديقي وزوجته علاقات ودية، وقدّمتا رسومهما وكلماتهما الحلوة إليهما، مثلما اعتادتا على فعل ذلك معنا.

شعرنا من الناحية الاجتماعية، بالانزعاج من الطريقة التي يتعامل بها بعض الأصدقاء المقرَّبين من صديقي، فحاولنا النأي بنفسنا قدر الإمكان عن مثل هذه العلاقات التي لا تتلاءم ونمط حياتنا، والتركيز على المهمة الوطنية الجليلة التي تنتظرنا، التي من أجلها يجب تحمل الأحوال والمخاطر كافّة؛ أي المساهمة في إنشاء كيان سياسي جديد كبديل محتمل للنظام، مهمةٌ عظيمة من المفترض أن تخضع لها جميع العلاقات الشخصية والاعتبارات!

الفصل الرابع
زياراتنا لأماكن التظاهر

بدأ شهر رمضان في 31 تموز/ يوليو 2011، ترددنا خلال أمسياته إلى أماكن التظاهرات التي كانت تُقام في ضواحي دمشق الثائرة، سواء أكنا وفود معارضة أم أفرادًا، حيث قُدِّمنا إلى الجمهور بطريقة لبقة. بدورنا، تحدثنا إلى المتظاهرين، معبرين عن التضامن معهم ومقدّرين شجاعتهم وتضحياتهم.

كان مستوى التوتر بين حشود المظاهرين يتلاءم طردًا مع شدة القمع والحصار وانسداد الأفق. وفي الوقت ذاته، ازداد التواصل بين المدن والبلدات السورية التي تحتضن التظاهرات أو بينها والعالم الخارجي. ومع ذلك، تفاقمت المخاطر، فالحلّ الأمني وعدم إدراك ضرورة التغيير السياسي الجذري زادا من الاحتقان وأخذا الأمور تدريجًا باتجاه التطرُّف، ومع أنّي لم ألحظ في تلك الفترة تظاهر واضحة تشير إلى التسلّح[125]، فإن درجة الاستثارة بين الشباب أوحت بتغيير وشيك في هذا الاتجاه، على الرغم من الخطاب الرسمي للثورة الذي كان ما يزال يصرُّ على السلمية.

***

---

(125) لاحظتُ ذات مرة، في أمسية تأبين أحد الشهداء في بلدةٍ بريف دمشق، أنّ الشاب الذي يحاورنا قد وضع مسدسًا على جنبه، فحذَّره صديقي من استعماله قائلًا: "إنّ هذا السلاح يمكن أن يقتلك مثلما يمكن أن يقتل الآخرين!" اعتذر الشاب، مع أن ابتسامته كانت تسخر منّا بلا مداورة. بعد عدة أشهر، تبدّلت اللوحة بصورة دراماتيكية، سواء فيما يتعلق بمعظم المتظاهرين أو بالنسبة إلى مواقف كثير من المعارضين.

هاج بعض الشباب في أثناء زيارتنا إلى حي القدم بدمشق، ضمن وفدٍ معارض، على حين فجأة حين قدَّم أحد الشيوخ الدكتور عارف دليلة ليرتجل كلمةً في الحشد، مشيرًا إلى انتماء الأستاذ عارف إلى الطائفة العلوية! عندئذٍ، هاجم بعض المراهقين المنصّة بقوة ومنعوه من إلقاء كلمته، بعد أن جرى مقاطعتها أكثر من مرة. ثم حلَّ الإشكال بالحديث عن العلويين الأحرار عوضًا عن الطائفة العلوية! كان ذلك مؤشرًا على تصاعد المشاعر الطائفية إزاء العلويين وليس ضدّ النظام فحسب، مثلما كان مؤشرًا على صعوبة ضبط الشارع، وإمكانية أخذ عواطفه في اتجاهاتٍ متباينة.

اعتذرت في تلك الأمسية عن إلقاء كلمة حتى لا يتكرر معي ما حصل للأستاذ عارف دليلة، فيما تحدّث بعض الضيوف بخطاباتٍ أقرب إلى الدعاية لحملة انتخابية، وكضربٍ من الشعبوية التي سيعتمدها كثير من المعارضين، آملين تحقيق بعض المكاسب السياسية على حساب هؤلاء البسطاء، الذين كانوا من الفقر والبؤس بحيث أنهم لن يخسروا الشيء الكثير، وقد قرّروا المضي حتى النهاية، ومهما حصل!

راقبت على شرفات المنازل المحيطة بالساحة، النساء المتَّشحات بالسواد المشهدَ الذكوري المضطرب بتكاسل، من دون أن تبدو على ملامحهنَّ مشاعر محدّدة؛ ربما شعرن بالخوف على المقرَّبين، أو أنهنَّ أملن في أن تنعكس التطورات المرتقبة على حريتهنَّ وسعادتهنّ، أو سخرن في أعماقهنّ من جميع هذه الشعارات المضلِّلة، سواء أكانت سياسية أم دينية!

***

إنَّ من أكثر الذكريات التي لامست قلبي كانت تلك المشاعر التي انتابتني في إحدى أمسيات الثورة في حيّ برزة. حيث استُقبلنا بحفاوة، وارتجلت كلمة بسيطة حملت كلّ التضامن والمحبة لهؤلاء الناس، أبناء بلدي، وقد شعرت أنّي ألتقيهم بعد فراقٍ طويل، واغرورقت عيناي بالدموع. وفيما كنت أتحدث من وراء الميكرفون، تقدّم أحدهم وهمس في أذني، طالبًا الترحيب بوفدٍ نسائي وصل لتوِّه إلى المكان، من بينهنَّ الكاتبة ر. ف التي كانت قد خرجت من المعتقل عصر اليوم ذاته. لم أكن أعرفها، وتوجّهتُ إلى واحدة من زميلاتها بالحديث؛ لكنّي تفاجأت بتقدُّم الكاتبة من الجهة الأخرى لإلقاء كلمتها، فشعرت بالخجل.

في النهاية، صفّق الشباب لوداعنا طويلًا، ويبدو أن كلمتي تركت أثرًا طيبًا في نفوسهم، فتقدّم أحدهم نحوي قائلًا: "نحن نصفق لضيوفنا بأيدينا يا دكتور، أما اليوم فنصفق لك بقلوبنا!" إنها العبارة التي تركت أعظم الأثر في نفسي، وستبقى أهم الأوسمة السورية التي حزتها في تلك الأوقات المُفعمة بالأمل.

***

تتالت الكلمات من وجهاء الحي والضيوف في إحدى الصالات العامة[126] في زيارة لوفد من المعارضة إلى حيّ القابون، لفت انتباهي خطابٌ وطني أذهلني بدقة عباراته حين استعرض الوضع السياسي السوري منذ الخمسينات. كان الخطيب في حوالي السبعين من العمر، وقيل لي إنّه فلاّحٌ بسيط من الغوطة. اعتبرتُ الرجل حالةً، من بين حالات عديدة، تشير إلى يقظة السوريين بعد عقودٍ من الصمت والاغتراب. في تلك الأمسية، التقينا بوفود من الناشطات والناشطين الذين قدموا من محافظات مختلفة، منها محافظة اللاذقية.

***

[126] في جمعة أسرى الحرية، 15 تموز/ يوليو 2011، وقبل يوم واحد من الموعد المقرر لعقد مؤتمر الإنقاذ الوطني في هذه القاعة، جرى إطلاق النار على تظاهرة مجاورة وقتل 14 متظاهرًا. كانت رسالة واضحة من السلطات بخصوص منع عقد هذا المؤتمر، وكان بعض المؤتمرين سيجتمعون في اسطنبول في الوقت ذاته برئاسة هيثم المالح (2011/7/16).

لمست في زيارة إلى مدينة دوما اهتياجًا بين الشباب، ووجد الخطباء صعوبةً في تهدئة الحشد على خلفية استشهاد أحد الشباب على حاجزٍ قريب عصر اليوم ذاته. كان الخطباء، منهم إسلاميون معتدلون وقياديون في حزب الاتحاد الاشتراكي، يتحدثون بلغةٍ متقاربة، كأنّ ثمة حالة استرجاعٍ لوصل ما انقطع منذ الخمسينيات، حين خاضت سورية تجربة ديمقراطية معقولة بين عامي 1954 و1958، وتعايشت فيها القوى السياسية على نحوٍ مقبول.

كما لمستُ في زيارةٍ ثانية لوفدٍ من المعارضة إلى هذه المدينة، بعد مضي حوالي الشهر، مؤشراتٍ على انتشار التطرُّف في بيئة الثورة؛ بسبب انسداد الآفاق، مستقرئًا بعض الحوادث المتفرقة، ولكن ذات الدلالة [127]. لم يأخذ كثير من المعارضين الساهين مثل هذه التخوفات على محمل الجد؛ ربما لأنّهم اعتقدوا أنّ النظام سيسقط قبل أن تتحقّق، أو لأنهم استساغوا إلقاء الخطابات الشعبوية!

حصلت حادثة مربكة في تلك الأمسية الرمضانية، كنتُ أتحدث على المنصة بكلمات تضامنٍ تلائم حشدٍ ضم أكثر من 5000 آلاف متظاهر، حين اقتربت سيارة من مؤخرة الحشد، فظن المتظاهرون أنها ستنفجر بينهم. وفجأةً، نهض الشباب الصغار الجالسون أمام المنصّة والرعب يملأ عيونهم، واندفعوا باتجاهي هروبًا من خطر ما بدا وشيكًا. في طريقهم، جرفوا مضخِّمات الصوت والميكرفون وأوقعوني أرضًا. انتقل الرعب إليَّ غريزيًا، فركضت معهم مبتعدًا عن الخطر. لم أدرك ما فعلته إلا حين وجدت نفسي أعبر تقاطعًا مزدحمًا توقفت فيه السيارات العابرة لتسمح للمتظاهرين بالمرور والابتعاد. شعرت بالخجل الشديد وعدت أدراجي إلى المنصة، حيث كان أحد الشيوخ يحاول تهدئة الحشد وطمأنته، فيما كان المعارضون الضيوف يعودون إلى كراسيهم التي ابتعدوا عنها قليلًا، إذ لم يكن بوسعهم الركض!

---

[127] لم يضبط بعض الشباب أنفسهم وهم يتحدثون إلينا واستفزوا كل من حاول حوارهم، إذ لم تعد تلك الخطب الرنانة تعني لهم شيئًا.

خبرت ذلك الخوف الغريزي من الموت أكثر من مرة في أثناء التظاهرات، حيث كل طلقة قد تأخذ مسارها نحو القلب؛ لكنّ رعب الموت الذي انتقل إليَّ بقوة من الحشد في هذه المرة لم يكن له مثيلٌ؛ إحساس ما بأنّ الموت قد حصل، أو أنّ رصاصةً اخترقت جسدي أو تكاد، ولم أعِ أنّ أصوات الرصاص التي سمعتها حينئذٍ أكانت حقيقيةً أم متخيَّلة، بعيدةً أم قريبة!

اعتقل بعض الشباب قائد السيارة واقتادوه باتجاه المنصة، وهم ينهالون عليه باللكمات، فيما وجَّه أحد الشيوخ نداءات ملحة للرأفة به وإيصاله إلى المنصة بسلام. أخيرًا، وصل السائق سليمًا معافى وجلس يدخن سيجارةً تمهيدًا للتحقيق معه بعد مغادرة وفدنا! هنا لا بدّ من التنويه إلى ما قام به الصديق الأستاذ ف. س. الذي اندفع بجسده الضخم نحو الحشد ليخلِّص السائق الشاب من أيادي الذين كانوا يحاولون ضربه بقوة، مذكِّرًا إياهم بتناقض مثل هذه التصرفات مع القيم التي يثورون من أجلها [128].

كما حضرت تشييعًا لأحد الشباب الذين استشهدوا في تظاهرة بحي ركن الدين بدمشق. كانت أعداد المشاركين كبيرة ويصعب حصرها؛ بسبب تعرجات الطرق وضيقها. وعند مرورنا بجانب إحدى المؤسسات الحكومية التي ألصقت على جدارها صورة للرئيس، هاج الشباب وساعدوا أحدهما في تسلق الحائط ليمزّق الصورة بخنجره. لم تتعرض العناصر الأمنية لمجريات التشييع ولا للأمسية التي تلته التي حضرتها وفود وشخصيات معارضة كثيرة.

***

[128] ربما أخطأت في هذه الأمسية حين ذكرت ما فعله أنصار النظام بي، باعتبار أن ذلك من المظالم البسيطة التي لم يكن من الملائم الحديث عنها في وقتٍ صار الثائرون يدفعون الثمن من دمائهم.

كان ثمة كثير من المشاعر المفعمة بالآمال على الرغم من الأوضاع الصعبة، مع أنّ تقديمي بصفتي الطائفية كان يزعجني بعمق، إذ كيف لمن عاش حياته كوطنيٍّ وكونيّ أن يقبل تحجيمه إلى مجرد مُنتج لثقافة محلية، واختصار هويته متعددة الجوانب بأحد مكوناتها؟ مع ذلك تقبَّلت الأمر على مضض، طالما أنه يطمئن بعضهم!

تحدّث معظم الخطباء المحليين في هذه الأمسيات بلغة وطنية جامعة، هي نوع من الإسلام الليبرالي[129]الذي أنعشته الثورة، وكنت أعود منها بمعنويات عالية. وذات مرّة، قال لي أحد الشيوخ في مدينة "دوما" إنّ وجودي معهم لا يساعد "طائفتي" فحسب، إنما يساعدهم أيضًا في السيطرة على جزء من شارع تسوده مشاعر طائفية إزاء العلويين. في تلك الأثناء، فعل القمع وغياب الحلول السياسية فعله في إذكاء نار الاحتقان، والتمهيد لموجة التسلُّح التي بدأت تتقدم باضطراد بعد شهر رمضان/ آب 2011.

كان الشباب يستجيرون بنا في أثناء زياراتنا كمعارضين، من أجل تمثيلهم وإيصال صوتهم إلى العالم؛ لكن الآمال التي علَّقها الشارع على المعارضة كانت أكبر من إمكاناتها؛ لأسباب ذاتية وموضوعية سيجري الحديث عنها لاحقًا. حتى ذلك الحين. كانت المعارضة التقليدية تحاول القيام بدور لم تعتد عليه، وفي أوضاع مختلفة كليًا.

أخبرني أحد السياسيين في أواخر شهر أيلول، خلال زيارته للمنزل الذي كنت أسكنه، الذي ادّعى أنّ له علاقة وثيقة بالحراك في ريف دمشق مثله مثل كثير من الشعبويين والانتهازيين، بأن الأمر قد حُسم فيما يتعلق بخيار التسلُّح، وأن المراهنة على حدوث انشقاقات في الجيش قد انتهت؛ لأنّ معظم قادته من الطائفة العلوية. كان كلامه قاطعًا، وبدا أشبه بإنذار أكثر من كونه نقاشًا أو استئناسًا برأي، نبس ببنت شفة! في الواقع، كان أمثال هؤلاء المعارضين يتمنّون حدوث ذلك ليتباكوا على

---

[129] سيظهر الشيخ معاذ الخطيب كأبرز الشخصيات الشامية التي مثلت هذا الاتجاه الذي ترأس الائتلاف الوطني السوري، ثم استقال منه بعد خلافات حادة.

شاشات التلفزة على "شعبهم"، في وقت بدؤوا فيه بحزم حقائبهم استعدادًا للرحيل إلى أوروبا، بمساعدة سفراء الدول الأوروبية المعتمدين في دمشق!

شعرت بأنّ الثورة، أيًا كانت المبررات، ستدخل مرحلةً جديدة أخطر من جميع التوقعات، وأذكر أنني لم أنم تلك الليلة، فالحرب المفتوحة على الاحتمالات كلها صارت قاب قوسين أو أدنى. منذئذٍ، بدا أنّ ثمة من يحاول ركوب الثورة واحتكارها من خلال العسكرة والشّحن الطائفي للشارع.

في ذلك الحين، كان قد اعتقل كثير من قادة ومنسقي الانتفاضة السلميين، وترك غيابهم فجوة سيجري ملؤها بعناصر شبه أميّة، الذين لم يتأخروا في تلقُّف موجة التسلُّح المقبلة بهدف معلن هو الدفاع عن النفس وحماية التظاهرات، فأصبح القادة على الأرض هم، بصورة ما، "زكرتاوية" الحارات الشعبية[130].

---

[130] حضر شاب ينتمي إلى إحدى عائلات حرستا إلى بيت صديقي، واشتكى بأن عائلته لا تملك سوى عدة بنادق صيد، في حين أن عائلة أخرى صار لديها حوالي 300 بندقية حربية.

جولة في شوارع اللاذقية

عدتُ إلى اللاذقية في أوائل أيام شهر رمضان لإحضار بعض الحاجات من البيت، واغتنمت الفرصة للتجول مساءً مع بعض الأصدقاء في حي "الصليبة" من أجل مراقبة الاحتجاجات عن كثب. مكثنا بعد صلاة التراويح في إحدى الشقق في الطبقة الثالثة من إحدى البنايات. لم تلبث أن تعالت صيحات التكبير من الشباب في الشارع كضربٍ من التحدّي. ثم ظهرت إحدى سيارات الأمن، ترجَّل منها أحدهم وأطلق النار من بندقيته في الهواء، فركض الشباب نحو الأزقة الجانبية ودخلوا الأبنية، التي كانت أبوابها تُترك مفتوحة ليتمكَّن المتظاهرون من الاحتماء بها عند الضرورة، وحتى الدخول إلى أي شقة عند الخطر، في مظهر رائعٍ من مظاهر التضامن. في ذلك الحين، كانت الشجاعة المفعمة بالأمل وروح التضامن وحبّ الحياة تنتقل كموجاتٍ عبر الأثير؛ مشاعر جديدة لم تعرفها عدة أجيال من السوريين!

***

مشينا في الشارع في يوم جمعة آخر في اللاذقية، في حيّ "العوينة" تحديدًا، لمراقبة حركة الناس بعد صلاة الظهر. كان التظاهر شبه مستحيلٍ؛ بسبب كثافة سيارات الأمن التي تجوب الشوارع، ومع ذلك تمكنّ بعض الشباب من التجمع في حيّ القلعة لدقائق، من أجل تصوير فيديو عن المظاهرة فحسب.

وفيما كنّا نسير على أحد الأرصفة، أطلق مراهق شتيمة عند عبور شاحنة صغيرة محمّلة بما يطلق عليهم قوة مكافحة الشغب. توقّفت الشاحنة، وترجَّل منها عدة أفراد لملاحقة الصبي، الذي اختفي تحت باب جرّار نصف مفتوحٍ لأحد المحلاّت. بدورنا، تجمّدنا في أماكننا حتى لا نصبح هدفًا للعصي الكهربائيةً، إذ لم يكن بوسعنا الهرب بعيدًا.

الفصل الخامس
جدلية الأسلمة والعسكرة

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) [131].

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية من يدٍ وهم صاغرون) [132].

إنَّ مقارنة بسيطة بين هاتين الآيتين، على سبيل المثال لا الحصر، تظهر بجلاء كيف استجابت الآيات القرآنية للأوضاع الملموسة التي واجهت الدعوة المحمدية من أجل إرساء أركان الدين الجديد؛ بل إنَّ آيات لاحقة قد نسخت ما قبلها مع تغير الأحوال في الفترة التاريخية المحدودة التي استغرقتها الدعوة [133] وانتهت بنزول الآية التي "اكتمل" فيها الدين في خطبة حجة الوداع [134].

إن ذلك لأمر منطقي يعكس التغيرات التي تحدث في واقع الحياة والاستجابة لها في حينها، ولذلك، قد نجد كثيرًا من التناقضات عند اجتزاء آياتٍ أو نصوص محددة من سياق الهدف الأساس لدين الإسلام الذي تمثَّل، سياسيًا، بإحداث نقلة نوعية إلى الأمام من مجتمع القبيلة إلى الدولة المركزية، انطلاقًا من قبيلة قريش في حاضرة مكة التي كانت قد وصلت إلى درجة مدنية متقدمة من الناحيتين المادية والروحية؛ بفضل التجارة، والاحتكاك بالإمبراطوريتين الرومانية والفارسية على وجه

---

[131] الآية 17 من سورة الحج.

[132] الآية 29 من سورة التوبة.

[133] نحو 23 سنة.

[134] الآية 3 من سورة المائدة: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا.."

الخصوص[135]، في حين يعتبر "اكتمال الدين" مناقضًا، ولو ظاهريًا، لاستجابة الوحي لمتطلبات الحياة.

ما حدث لاحقًا، في الأغلب تجميد هذه النصوص لا استلهامها، فيما استمر نهر الحياة بالتدفق، إلى أن حدث الانفصام الأكبر في التاريخ الحديث، المتمثل، على وجه العموم، باغتراب الشعوب الإسلامية عن مجريات التقدم العقلي والعلمي.

وعلى الرغم من فتح باب الاجتهاد، لم يُفهم منه غالبًا غير القياس المبسّط الذي ما كان له أن يتعمّق بعد أن تشكلت الامبراطوريات التي حكمت باسم بالدين؛ بسبب حاجتها لفقهاء لا تتعارض اجتهاداتهم مع طموحات قادتها وتطلعاتهم السياسية. ومن ثم، اقتصرت اجتهادات هؤلاء على إطلاق الدعوات من أجل العودة "المبهمة" إلى "الدين الصحيح"، وما ارتبط بهذه الدعوات من حركات استبدلت صعوبة التعامل مع الواقع باستسهال الدعوة للعودة المستحيلة إلى الماضي، وذلك في كل مرة كان يعجز فيها المسلمون عن التكيف مع التطورات المعقدة التي تحيط بهم، وما زالوا.

يصل التطرُّف الديني إلى مداه الأقصى حين يأخذ النصوص بحرفيتها، بعيدًا عن البحث عن أبعادها وتأويلاتها وملاءمتها للواقع المتحوِّل باستمرار، وينسحب التقديس على ما هو ليس بمقدس. كما تُتبع الأحاديث والفتاوى من دون تمحيص عميق، فيستسهل التكفير في غياب التفكير، وما إن تسنح الفرصة للتكفيريين حتى يخرجوا للقتال خبط عشواء، كونهم شجعان إلى حد التهور، كمراهقين بلغوا سن الحلم ولم يبلغوا سن الرشد، متجاوزين تعقيدات الواقع طمعًا بملذّات السماء، فيطبقون على الأوطان بظلاميتهم ويتشبثون في الخراب الذي يألفون، يتبادلون المواقع والرايات، يكفِّرون الآخرين، ويقتتلون إنْ افتقدوا ضحاياهم.

---

[135] يمكن التوسع في هذا المجال بالاطلاع على العديد من المراجع، منها كتاب خليل عبد الكريم: قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، الطبعة الأولى 1993، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

تتلاعب أنظمة الاستخبارات العالمية بهذه الجماعات مثلما يتلاعب عقل بعاطفة هوجاء حتى يخرجوا عن السيطرة، فيأتي دور القوة لتفتك بهم، لتعود الحواضن المجتمعية الجاهلة والمجهّلة لاستنبات جماعاتٍ جديدة.. وهكذا. كما توجه الأنظمة المستبدة هذه الجماعات لتأمن شرّها، ويعرف الاستبدادان، الديني والدنيوي، ما يجمعهما في لحظة تبصُّر وتجلٍّ؛ إنه ذلك القاع الذي يختمر فيه الجهل والفقر والقهر واليأس، من حيث يحصلان على المَدَد، وبين تخوين هذا وتكفير ذاك يحلّ الخراب في البلاد!

***

غنيٌّ عن القول: إنّ سورية، بلد الصمت والخوف، افتقدت الحياة الديمقراطية الطبيعية منذ قيام الوحدة مع مصر على وجه الخصوص، وقُمعت أي نشاط سياسي وحقوقي، ما لم يكن مرتبطًا بمصالح الأنظمة الاستبدادية المتعاقبة. لكن القوى الإسلامية وحدها حظيت ببنية تحتية لا يمكن إلغاؤها؛ إنّها الجوامع التي بني كثير منها في السبعينيات إلى جانب مئات معاهد تحفيظ القرآن، فكانت الفضاءات التي تعزّزت فيها أحلام "دولة الإسلام."

تشكلت في الجوامع أيضًا نوى معظم التظاهرات في بداية الحدث السوري؛ لأنها الفضاء الاجتماعي الوحيد. لم يرق ذلك بالطبع لأولئك الذين غالوا في حذرهم من الطابع الإسلامي للثورة، فشككوا في وطنية المتظاهرين، مع أن بعضهم كان يدخل إلى الجوامع ليخرج في التظاهرة فحسب، وأن جزءًا مهمًا من المتظاهرين كانوا ينضمون إلى التظاهرات بعد خروجها من الجوامع.

وفي غياب القادة الوطنيين أو تغييبهم، وبعد أشهر من التظاهر ذي الطابع العام السلمي، كان من الصعب إقناع الذين يتعرّضون للقمع باستمرار سلمية الثورة، إذا ما علمنا أنَّ من بقى في الشارع كان من الفئات الشعبية التي يمكن دفعها إلى التضحية من خلال دوافع عقائدية دينية يسهل التلاعب بها خاصَّة. هنا، استخدم المنشقون عن الجيش، الذين رفضوا بنبالة إطلاق النار على المتظاهرين، كغطاءٍ لموجة تسلُّح عارمة تحول فيها هؤلاء المنشقون إلى أقلية في عداد عشرات المجموعات التي بدأت تطلق على نفسها تسميات إسلامية فاقعة. ترافق ذلك بتوجُّه لتسمية أيام الجُمَع على المنوال نفسه، منذ بداية عام 2012[136] خاصَّة، فتراجعت الشعارات الوطنية التي رفعها المتظاهرون في الأشهر الأولى إلى المرتبة الثانية، ووقع الناشطون وسلميَّتهم بين تقاطع النيران.

حصل النظام بذلك على ما يريده، فالشارع يُشحن طائفيًا و"العصابات المسلحة" صارت موجودة وتدعى "الجيش الحر"، وبوسعه أن يقول للعالم: "انظروا.. هذه هي العصابات بشحمها ولحمها!" في الوقت ذاته، ادّعى "الجيش الحر" سيطرته على بعض المدن والبلدات، ما أفضى لتحولها ميدانًا للمعارك.

صار "الجيش الحر" في هذه الأثناء، "أيقونةً" في المناطق الثائرة، وأصبح نقده من المحرمات؛ لأنه يحمي المتظاهرين والأحياء المنتفضة، التي سرعان ما تصبح غير قابلة للعيش. مع أنه من الصعب معرفة حقيقة مواقف الناس العاديين في تلك الفترة، ولا حجم الاختراقات التي قامت بها جهات عديدة، ومنها النظام، داخل مجموعات "الجيش الحر".

---

[136] https://www.facebook.com/notes/khaled-altaleb/توثيق-الثورة-السورية-أسماء-الجمع-منذ-انطلاقة-الثورة/165536546931853

تطلب أسلمة الثورة وعسكرتها أداة تجييشٍ وحشد سرعان ما وجدت ضالتها في الشحن الطائفي، على أمل أن يمهد ذلك لوصول الإسلاميين إلى السلطة، في حين يستحيل عليهم ذلك بالأساليب السلمية والديمقراطية. وهكذا، ارتبطت عسكرة الثورة منذ خريف 2011 بأسلمةٍ استبدلت النظام بالطائفة العلوية، والأقليات عامة، كعدو، وتمكنت خلال سنتين من ابتلاع التشكيلات ذات التوجهات الوطنية، وهي "لواء الضباط الأحرار"[137] و"الجيش السوري الحر" [138]، وتحوُّل آلاف المنشقين عن الجيش للاستقرار في تركيا والأردن، بعيدًا عن غبار المعارك [139].

ثم تعددت مرجعيات قوى الإسلام السياسي المسلَّحة تبعًا لمصادر تمويلها، وحظيت بدعم قنوات إعلامية عديدة، وعلى رأسها قناة الجزيرة القطرية، فجرى إيقاظ الفتنة الطائفية من رقادها، وحمل الخلاف العقائدي السني- الشيعي إلى الواجهة، والعزف على وتر الأقليات والأكثرية، ونشر ضباب الأوهام الدينية لاستيعاب شارعٍ محاصر بدأ يفقد الأمل بأي مساعدة دولية، لطالما وعده بها معارضون مغمورون كانوا قد حضَّروا أنفسهم للدخول إلى سورية كفاتحين.

***

[137] تشكل لواء الضباط الأحرار في شهر حزيران/ يونيو 2011 بقيادة الرائد حسين هرموش.

[138] تشكل الجيش السوري الحر في شهر آب/ أغسطس 2011، ثم اتحد مع لواء الضباط الأحرار في شهر أيلول/ سبتمبر، وخاض أول المعارك الحقيقية مع الجيش النظامي في مدينتي الرستن وتلبيسة أواخر هذا الشهر.

[139] http://mtv.com. lb/News/299854

بحسب هذا التقرير، يبلغ عدد الضباط المنشقين في الأردن وتركيا الذين لا يشاركون بنشاط قتالي 3000 ضابط. قال لي أحد الضباط المنشقين مرةً: "نحن، كعسكريين، نستطلع ما حولنا جيداً في النهار قبل أي فعل، فكيف نعمل وسط الظلمة الحالكة؟" كان يقصد بذلك العمل مع التنظيمات الإسلامية.

وضعنا أحد الناشطين بعد قيامه بجولةٍ في مدينة حمص خريف 2011، في صورة العسكرة والتمويل، وعملية انتقال المبادرة من المنشقين عن الجيش إلى المسلحين المدنيين الذين اتخذوا لأنفسهم راياتٍ إسلامية، وفقًا لما يبتغيه ممولوهم السلفيون والوهابيون، فبدؤوا بحلق شواربهم وإطلاق لحاهم[140] من أجل استجلاب مزيدٍ من الدعم. في هذا السياق، قيل: إنَّ بعض أوساط حزب المستقبل اللبناني قد تورط في عملية التسليح[141]، إضافة إلى الحالات التي ساهم فيها فاسدو النظام بتزويد المسلحين بالذخائر، كما ذكر أحد الناشطين.

اللافت في الأمر أنّ الصف الأول على الأقل من السياسيين المعارضين كانوا مطلعين على هذه الحقائق؛ لكنهم سكتوا عنها في الإعلام من أجل ألاّ "يغضبوا الثوار على الأرض!" [142] و"عدم الإساءة لسمعة ثورة حلمنا بها طويلًا!"

مثَّل التسلُّح غير المنضبط، وغير الخاضع لقيادة سياسية، خطرًا محدقًا، وتزايد نفوذ المسلحين الذين يعملون تحت غطاء "الجيش الحر" أو من دونه. وما لبثت التنسيقيات أن خضعت بدورها للسلاح بحجّة أولوية المعركة، ما يذكِّر بشعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" الذي رفعته الأحزاب القومية في الستينات لتأجيل كثير من الاستحقاقات الوطنية والديمقراطية؛ لأنّ القاسم المشترك بين الحالين هو استغلال عواطف الفئات الشعبية التي سيدفع من بقي من أبنائها ثمنًا باهظًا؛ الموت والحصار والتهجير، بعد أن احتضنت الثورة في أصعب الأوضاع.

---

[140] فرضت الجهات الداعمة الخليجية، إضافة إلى تركية حزب العدالة والتنمية، أيديولوجيتها على المقاتلين، ما تطلب أسلمتهم شكلًا على الأقل، مثلما حدث في الحرب الأهلية اللبنانية حين تحولت "المقاومة الوطنية اللبنانية" إلى اليسار؛ أي إلى أيديولوجية الداعم حينئذٍ، الاتحاد السوفييتي. (فكرة المقارنة تعود للصديق الياس دبانة).

[141] https://www.alahednews.com.lb/82027/76/المستقبل-متلبساً-بتورطه-السياسي-والعسكري-في--#سوريا.WfBsbWiCyUl

[142] ذكر هذا الناشط، على سبيل المثال، حال إحدى الكتائب في حمص القديمة، كان قائدها أ. ع. عسكر الممول من جهات سلفية خليجية الذي يتحكم بعدة ضباط منشقين من خلال تزويدهم بالذخيرة وبالطعام!

ترافقت العسكرة مع شحن طائفي ممنهج، وارتفعت في بعض أوساط فصائل المسلحين نبرات مذهبية، مثل "حُماة السنّة وأسودها"، واستُبعد كل ما هو غير "سني" تدريجًا بمختلف الحجج، في وقت طالبوا فيه الآخرين بتقليدهم وتشكيل كتائب مسلحة مذهبية[143]. مهّد ذلك لتوافد المقاتلين من الخارج لـ "نصرة إخوتهم" الذين قاموا بسبي النساء والأطفال ومارسوا القتل والخطف على الهوية ما استطاعوا [144]، فعلق السوريون بين قتل وقتل مضاد، وتشبيح وتشبيح مضاد.

أدت مثل هذه الممارسات إلى تخندق كثيرين خلف النظام وجيشه، مثلما يحدث في أي صراع مسلح، لا لحبهم بالنظام؛ بل لغموض المستقبل والتوجه الإسلاموي الذي يشكّل رهابًا لبعضهم بحقّ. وهكذا، كلّ ما أراده النظام من تطييف وعسكرة فوضوية تكفّلت به القوى الإسلامية المسلحة وترجمته على أرض الواقع، ما أفقد الانتفاضة/ الثورة السورية التي ارتكبت مثل هذه الممارسات والجرائم باسمها، المزيد من التضامن الدولي والعربي، وبدا أن الجميع قد تخلوا عن الاهتمام الجدّي بالوضع السوري الذي اتّجه إلى مزيدٍ من العنف العدمي.

---

(143) ومع ذلك كانت قد قامت محاولات عديدة ضمن صفوف "الجيش الحر" من أجل تجاوز حالة الطائفية على قاعدة الشعب السوري واحد في دولة واحدة، ومن أهمها "كتائب الوحدة الوطنية في إدلب". انظر: http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:5sZN1FfwgQcJ:all4syria.info/Archive/56209+&cd=9&hl=en&ct=clnk

(144) ما حدث في ريف اللاذقية بتاريخ 2013/8/6 خاصّة

https://www.facebook.com/photo.php?v=369257419867965&saved

وفي مدينة عدرا العمالية بتاريخ 2013/12/11-

http://www.al-akhbar.com/node/217837

وفي قرية اشتبرق بجسر الشغور أواخر شهر نيسان 2015،

https://www.youtube.com/watch?v=pOJce9Imbb8

وفي قرية الزارة بريف حماه بتاريخ 13 أيار 2016

www.al-akhbar.com/node/257784

وغيرها.

وصل "الحنق الثوري" أخيرًا، إلى غايته من خلال مشاركة النظام مقولته الشهيرة عن المؤامرة، وانقياد معظم المسلحين وراء فتاوى المشايخ وترّهاتهم، واعتمادهم على محاكمهم الشرعية، عوضًا عن المجالس المحلية المنتخبة، الموجودة أو المقترحة، بهدف تغييب مؤسسات الدولة وليس بسبب غيابها[145]. نجم عن ذلك كلّه انقسام اجتماعي ما انفكّ يتزايد، إذ لا يمكن لنصف السوريين على الأقل تأييد العسكرة أو الأسلمة، كلٍّ على حدة، فكيف إنْ اجتمعتا معًا؟

كانت الأوضاع الدولية قد تغيرت في العقد الأخير، فلا أميركا هي أميركا التي كانت عند اجتياح العراق، ولا سورية مثل ليبيا، بعد أن تبلور قطب دولي يدافع عن النظام بقيادة روسيا وإيران خاصَّة، وظهر الحضور القوي لمنظمة "القاعدة" وأشباهها على الأرض السورية.

دعا المتسلّقون على الثورة أيضًا إلى عدم مساواة الضحية بالجلاد. هذا كلام حقّ قبل انتشار العسكرة المتأسلمة، ويصحُّ في حالات الدفاع عن النفس فحسب. لكن، كيف يستقيم ذلك إذا كان "الضحايا" هم من المسلحين التكفيريين وبعض المنفلتين وقطاع الطرق، الذين اتخذوا أحيانًا من "الجيش الحر" غطاءً لممارساتهم الإجرامية، وزادوا عليها لو تمكّنوا، فهل ننظر لمن يمارس مثل هذه الأعمال على أنّهم ضحايا؟ أو هل نبرِّر للضحية تقليد ممارسات الجلاد حين تتساوى معه في القوة؟ وما العمل إن تساوت معه في القوة أو فاقته، هل ينقلب دور الضحية إلى دور الجلاد؟ من يحدد قواعد الاشتباكات في مثل هذه الحالات؟ أو هل يختلف التفجير الإرهابي الذي يستهدف المدنيين عن القصف الجوي؟ كانت تلك الممارسات كلها، مضاف إليها عمليات النظام وقصفه للحواضر المدنية، مؤشّرًا لانعدام المسؤولية واستهانة المتحاربين بالدم السوري إلى هذه الدرجة أو تلك[146].

---

(145) شاركت في إعداد بعض الدراسات حول تشكيل مجالس محلية من أجل أن تقوم بصيانة مؤسسات الدولة وحمايتها في الأماكن التي يفقد النظام السيطرة عليها؛ بل إننا تحرينا عن أسماء الموظفين النزيهين في مؤسسات الدولة المهمة للاستعانة بهم من أجل إدارتها.

(146) قال لي أحد أقطاب المعارضة: إنّنا مستعدون لتقديم مئات آلاف الضحايا ولن نتراجع، في وقت كان يتناول فيه أفضل أنواع الشوكلاته، ويعادل وزنه وزن شخصين طبيعيين على الأقل، فيما كان من يدّعي الدفاع عنهم يتضوّرون من الجوع ويهربون من

جرى توظين العمل المجاهد بشقيه العسكري والمدني في الريف السوري في نقلة مهمة لفكر الإسلام السياسي، كحالة وسطية بين إقامة الخلافة الإسلامية لمنظمة القاعدة "يمينًا"، والحكم المدني الملتبس للإخوان المسلمين "يسارًا"، وتعتبر حركة أحرار الشام[147]من أهم حاملي هذا التوجُّه لإقامة "الحكم الإسلامي الراشد".

اعتمدت الأسلمة المتعسكرة أو العسكرة المتأسلمة، لا فرق، تطبيق "الشريعة" عوضًا عن مجالس الحكم المحلية التي كان من المأمول أن تشكل حلًا موقتًا لإدارة شؤون الناس في حال انهيار مؤسسات الدولة، لا أن تكون بديلًا لها. شكّل ذلك تقهقرًا كبيرًا في آليات الحكم مقارنة ببنى الدولة، وأظهر عداء الإسلاميين المتأصل للدولة الحديثة ومؤسساتها التي يُفترض رفع يد الاستبداد عنها لا إلغاءها.

قُدِّم بالنتيجة المزيد من الهدايا المجانية للنظام الذي حظيَ بدعم قوي من أصدقائه، وتحوّل من حالة الاضطراب والفوضى والخوف في الأشهر الأولى إلى اكتساب المزيد من القوة، باعتباره يحارب متطرفين تغلغلوا في أماكن واسعة من سورية وأقصوا كل من يخالفهم الرأي، في وقت بدأت فيه فكرة الحرب على الإرهاب بالتبلور في غفلةٍ عن المعارضة الغافلة! وسيمرّ وقتٌ طويل قبل أن يدرك السوريون أن التطرُّف الإسلامي الذي دخل على خط المطالب المشروعة للسوريين، كان أشبه بوباء فتك بالثورة، وساعد النظام، بوسائله الأكثر بدائية، في تدمير سورية وتهجير أهلها!

***

القصف في كل اتّجاه! وكان يردد كلما حصلت مجزرة: "جيد، هذا يساعد في إسقاط النظام"، ولم يكن حديثه وحديث أمثاله عن مآسي الشعب إلا تباكيًا ونفاقًا على أمل أن يمهد كل ما يحصل للوصول إلى السلطة.

[147] تعد حركة أحرار الشام أولى الحركات المسلحة السلفية التي شكلت في ريف إدلب في أيار/ مايو 2011، ويبدو أنها ساهمت في أحداث جسر الشغور؛ ولكنها لم تعلن عن نفسها حتى نهاية عام 2011، وقيل: إنها أول من سهّل دخول المقاتلين المتطرفين من العراق وقدم لهم التسهيلات، منهم أبو محمد الجولاني الذي سيصبح زعيم "جبهة النصرة لاحقًا. انظر دراسة حازم السيد "السلفية الريفية الصاعدة في سورية، حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجًا" في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، 2013.

وهكذا مضت الأيام متشابهة من دون أن تتقدم الثورة على طريق تحقُّق أهدافها في الحرية والكرامة، وتخندق أنصار النظام وأعدائه في جبهتين يشكل الجيشان، النظامي و"الحر"، واجهتهما. كما استمر التلاعب الإقليمي بالوضع السوري من خلال إطلاق بعض التصريحات من باب رفع العتب، وعملت الأطراف الدولية على إدارة الأزمة لا البحث عن حلولٍ لها بانتظار توافقها على المصالح، فدخلنا في متاهةٍ سنسلك دروبها المسدودة واحدًا بعد الآخر لأجل غير معلوم، حتى نهتدي إلى تلك النهاية النافذة، إن اهتدينا!

الفصل السادس

المعارضة السورية ومحاولات الانتظام السياسي

المعارضة التقليدية والحراك الشعبي

كان الحراك الشعبي مسرحًا للتلاعب من قبل أطراف كثيرة، ولم تتمكَّن المعارضة التقليدية [148] من توجيهه في المسار الوطني الديمقراطي من خلال ترجمة مطالب الحرية والكرامة إلى برنامج سياسي وطني سوري بغية الوصول إلى الأهداف المنشودة؛ بل سار معظم المعارضين وراء المنتفضين، آملين بالوصول إلى كراسي السلطة عبر تضحياتهم!

---

[148] في تعليقه على مخطوط هذا الكتاب، صنَّف الأستاذ عبد الله هوشة (الأمين العام السابق لحزب الشعب الديمقراطي) المعارضة السورية على النحو التالي:

1- "**المعارضة التي كانت قائمة قبل الثورة** التي لم تكن لها علاقة مباشرة بها، وكان من المؤمل منها أن تبذل الجهد اللازم لتوحيد صفوفها عبر برنامج وطني يلبي حاجات الواقع الجديد، وتستظل بطيفها المتعدد تحت لواء هذا البرنامج بعيدًا عن إشكالاتها السابقة كلها، وتتوجه، من ثم، لتشكيل قيادة سياسية وطنية موحدة تكون جديرة بالتعبير عن تطلعات ومطامح الثورة، وتؤدي الدور القيادي المأمول منها بهذا المعنى. غير أنها، مع الأسف، لم تستطع الارتقاء إلى هذا الدور الذي يبدو أنها لم تكن مؤهلة له فحسب، وإنما لم يفلح أي من أطرافها أيضًا في مواكبة هذه الثورة ولا حتى في اللحاق بها. غدت هذه المعارضة، بعيد اندلاع الثورة وانتشارها، معارضة تقليدية بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ.

2- **المعارضة الجديدة،** التي شكلت بعد انطلاق الثورة، وهي المعارضة التي أخذ ينضوي تحت لوائها الآلاف المؤلفة من الشابات والشباب السوريين الذين انتشروا على امتداد رقعة البلاد. وبغض النظر عما آلت إليه هذه المعارضة نتيجة فعل النظام أولًا والمتطفلين على الثورة ثانيًا، فهي المعارضة التي سوف تشكل وجه سورية المستقبل، عبر ابتداعها أشكالًا من العمل السياسي والممارسة السياسية اللذين سوف تقطع بهما مع جميع الأشكال التي خبرناها في مراحل ما قبل انطلاق هذه الثورة. هذا الكلام يفترض بالطبع أن هذه المعارضة الجديدة ما زالت قائمة. نعم! ما زالت قائمة؛ لكنها قائمة بالقوة أكثر مما هي قائمة بالفعل، وأظن أنها سوف تقوم بالفعل في اللحظة التي سوف تنتقل فيها سورية إلى وضعها الجديد، بغض النظر عن مواصفات هذا الوضع، وفي اللحظة التي سوف يتوافر لها فيها الحد الأدنى من الحريات في المجالين العام والخاص.

3. **المعارضة الخارجية،** وهي وليدة النشاط الذي جرى في الخارج طوال سنيّ عمر "الثورة"، وأدَّى إلى التشكيلات العديدة التي نعرفها، بدءًا من المجلس الوطني ووصولًا إلى الهيئة العامة للتفاوض ومرورًا بائتلاف قوى الثورة والمعارضة، فهذه جميعها، حتى وإن توفرّت على معارضين، لا يصح أن ندرجها تحت مصطلح المعارضة. هي ليست أكثر من هياكل سياسية قامت بمبادرات من الخارج لتكون لها وظيفة محددة في الوقت الملائم. ولا أظنها تملك من أمرها شيئًا!"

كما لم يظهر أي قائدٍ يتمتَّع بشخصيةٍ كاريزمية مقبولة وطنيًا، للمعارضين والموالين، فيما كان العمل المؤسساتي المعارض غائبًا أو هشًا. وتبيَّن أن لا أمل في الاعتماد على الشخصيات البارزة في المعارضة التقليدية لأداء أدوارٍ إنقاذية وطنية، وانزاحت الهالة الكبيرة المحيطة بشخصياتهم التي صنعتها سنوات نضالهم الطويلة ضد الاستبداد، في وقت الذي لم تتوافر فيه للحراك السوري فرصة لالتقاط الأنفاس واختيار قادته؛ بسبب القمع الممنهج.

وهكذا، استنجد الحراك بدايةً بمعارضين تقليديين غير مكيَّفين للتعامل مع ثورة شعب، ومصابين بشتى أنواع الشخصانية، ربما بسبب مقارعتهم الاستبداد كأفراد لم يتوافر لهم سند اجتماعي، فكانوا أشبه بأبطالٍ يمثلون على مسرحٍ من دون مشاهدين!

في الوقت ذاته، استغل معارضو الخارج الفراغ السياسي، مستفيدين من حرية الحركة، فركبوا موجة الاحتجاجات، وقدموا أنفسهم للجهات الخارجية أو هي قدّمتهم، كقيادة للثورة. عمل هؤلاء بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة على نشر أمراضهم، أخطرها الطائفية، وتكريس ما كانوا يتخيّلونه عن سورية بعد سنواتٍ طويلة من الغربة عنها، وظهروا على وسائل الإعلام التي أفردت لهم أوقاتًا ثمينة ليعبثوا بالواقع السوري الحسَّاس؛ يخوِّنون طوائف وأقليات ومدنًا ومناطق لم يبلغها الحراك الشعبي بعد، يهددون الصامتين، ويتحدّثون عن امتيازاتٍ ثورية، ويخوِّنون الجيش النظامي كله، على علاّته، ما عكس محدودية أفقهم ووطنيتهم. كما عكس هؤلاء مطالب الشارع العفوية، مثل التّسلُّح، تلقائيًا كصورة في مرآة، من دون أخذ خصائص الواقع السوري بالاعتبار ودراسة الجدوى السياسية.

عرف مدعوا تمثيل الثورة السورية كيف يزيدون من أعداد الصامتين في الداخل ويبعدون الأصدقاء في الخارج، فأساءوا إلى الانتفاضة الشعبية أيّما إساءة. كما لم يكن هؤلاء مسؤولين عن أفعالهم، ولم يكلّفوا أنفسهم مراجعة أخطائهم الجسيمة ووعودهم الزائفة التي جرَّت الحراك إلى خطواتٍ غير محسوبة، بعد انتشار السلاح بصورة فوضوية خاصَّة، وظهور مجموعات متطرفة تنضوي تحت مسمّى "الجيش السوري الحر" أو تستغل اسمه.

ترك النظام المعارضة التقليدية في الداخل تعمل بحرية نسبية لأنه يعرف إمكاناتها الضئيلة، لكن تحت مراقبة لصيقة، وركَّز جهده للحؤول دون أي تمثيل حقيقي للشارع من خلال زجّ الكوادر الشابة المؤهَّلة في السجون. كما عملت المعارضة الخارجية على تشجيع الناشطين الشباب وتمويلهم للسفر إلى الخارج حتى تميل كفَّتها على حساب معارضة الداخل. وهكذا بقيت الساحة خاليةً إلاّ من شعبٍ أعزل يحاول تدبّر أموره على الأرض، ومستعد للاستعانة بالشياطين ليتخلَّص من الموت المتربّص به، واضعًا أمله كله على "الجيش الحر" وداعميه.

إنّ العجز عن قيادة الثورة واللهاث وراء شارعها، إضافة إلى الحنق ودوافع الانتقام، لم يكن ليقود إلى تحقيق الأهداف التي قامت الثورة من أجلها، وإنّ الفرق بين النظام ومن تنطّح لتمثيل الثورة هو أن للنظام إستراتيجيته الواضحة في محاولته قمع الحراك بالوسائل كافَّة، فيما تُركت قيادة هذا الحراك لهواة سياسة، فجرُّوه إلى حيث لا يريد، وشجعوه على التسلُّح؛ لأنهم لا يملكون شيئًا آخر ليقدِّموه.

عمل جنود مجهولون في المقلب الآخر، بتفانٍ وصمت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتشكيل مجالس محلية في المناطق التي صارت خارج سيطرة النظام من أجل تنظيم شؤون الناس وإغاثتهم في أصعب الأوضاع.

***

لقد صدَّقت ببساطة -لأنّي لست سياسيًا بالأساس، ولم أنتمِ إلى أيّ حزب أو تجمُّع معارض، وعارضت النظام بسبب استبداده وفساده- أن المعارضين جميعهم يعملون على توحيد المعارضة من منطلق وطني صرف، ولا يمكن أن تقف في وجههم أيّ عثرة بغية إنجاز هذه المهمة النبيلة بأسرع وقت ممكن! لكن، حين عايشت المحاولات المتعددة التي جرت من أجل هذا الهدف، وجدت كيف كانت المسائل الشخصية تطغى أو تعطِّل، وما يتحقَّق اليوم يجري الالتفاف عليه في اليوم الثاني، ولأسباب ليس لها علاقة بـ "المهمة النبيلة!"

ومع أنّ كثيرًا من الشكوك صارت تراودني حول قدرتنا كمعارضين تقليديين على التعامل مع الحدث السوري الكبير، فإن الخروج بصيغة سياسية[149] مقبولة داخليًا وخارجيًا كانت مهمة ملحة وتاريخية تهون دونها المصاعب، ولا بد من الصبر والتعلق بأوهى حبال الأمل. لقد مارس المعارضون التقليديون السياسة في أوضاع مختلفة تتصف بالحذر والسرية، وباءت بالفشل محاولات التوفيق بينهم من أجل الخروج بتجمُّعٍ سياسيٍّ فاعل غير مرتهن لمصالح الدول. كان اجتماع الأسماء المعروفة في البدايةً سيبرز المعارضة السورية ككيان موحَّد، ويضع اللبنة الأولى في بناء مؤسسة معارضة [150]، بعيدًا عن أي شخصنة، إلى أن يضع تطور العمل والممارسات الحية الأشخاص في المواضع التي يستحقونها.

وفي حال تعذر الوصول إلى صيغة سياسية مقبولة من قبل المعارضة التقليدية، كان يُفترض أن تأخذ القوى الشبابية على الأرض زمام المبادرة وتنتخب ممثليها في مختلف المناطق السورية، أو تعيِّنهم بالتوافق، وتحدد من يمكن التعاون معه من ذوي الخبرة السياسية والتأثير الشعبي من المعارضين التقليديين ليكونوا مجرّد مستشارين، فيما يقوم المعارضون في الخارج، المختارين من قبل هذه القوى الشبابية، بالتمثيل السياسي في المحافل الدولية ووسائل الإعلام.

[149] استندت تلك الصيغة السياسية المزمعة إلى حلقة مركزية من عدة شخصيات معارضة معروفة، وكانت ستضم، تحديدًا، كلًا من رياض الترك، ورياض سيف، وعارف دليلة، وميشيل كيلو، وبرهان غليون، وعبد الحميد درويش، مع حفظ الألقاب. ومن ثم تُضاف حلقة ثانية فثالثة من شخصيات أخرى مستقلة أو حزبية؛ لكن بصفتهم الشخصية، في محاولة لتجاوز صراعات الأحزاب والحد من نفوذها. كان ثمة رفض شديد من قبل صديقي لضم أي شخصية من هيئة التنسيق الوطنية، فيما رأيت أن يكون الأستاذ حسن عبد العظيم من شخصيات الحلقة الأولى. كانت هذه الاعتبارات مهمة بصورة موقتة، على أن تُرفد الهياكل السياسية هذه بمزيد من الدماء الجديدة.

[150] اعتُمدت هذه الهيكلية عامَّة في تشكيل "المجلس الوطني" لاحقًا، إذ تألّفت بنيته، كما هو معروف، من المكتب التنفيذي كحلقة أولى، ومن الأمانة العامة كحلقة ثانية، ومن الجمعية العامة كحلقة ثالثة. وهكذا، مُسخت فكرة التشكيل المعارض وسرقة فكرته، غالبًا عن طريق مجموعة "إعلان دمشق" التي انضمت إلى "المجلس الوطني" لاحقًا الذي ضم أيضًا الإخوان المسلمين ومجموعة من الشخصيات الانتهازية والتجار وعملاء أجهزة الاستخبارات الإقليمية الدولية. فكيف لثورة أن تنتصر وتحقق أهدافها بمثل هذا التمثيل، أو بكلام آخر، كيف لا تخفق ثورة شعب تنطَّح هؤلاء لتمثيلها ونصرتها؟

استنتجت من زياراتنا إلى أماكن التظاهرات أنّ صديقي كان يحوز على شعبيةٍ كبيرة مقارنةً بباقي المعارضين على الأقل، إضافة إلى سمعته وعلاقاته الخارجية؛ الأمر الذي جعلني أفكر في أن يكون لشخصيته الكاريزمية هذه دور كبير في البنية السياسية التي كنّا نعتزم تشكيلها[151].

***

قد لا تكفي بضعة أشهر ولا بضع سنوات لانتظام الحالة السياسية في سورية بعد كل هذا الدمار الذي طال أي محاولة للاجتماع السياسي خلال خمسة عقود من تطبيق حالة الطوارئ، لكنّ الحرية التي فرضت نفسها على الأرض عجّلت من وعي الشباب [152] الذين حاولوا تشكيل نمطٍ جديد وعمليٍّ من الممارسة السياسية، بعيداً عن تنظير المعارضين التقليديين وتنافسهم وتهافتهم. وبقدر ما كشفت السياسات التقليدية المعارضة عن عقمها، تراكمت خبرات الناشطين وتكاملت، إلى حدٍّ ما، وسط تسارع الحوادث وضغوطها [153].

[151] تبين لاحقًا للأسف الشديد، أن صديقي كان يعاني من حالات صحية مختلفة أثّرت على أدائه، فضلًا عن الأثر النفسي الذي تركه السجن في المرة الأخيرة. ففي إحدى زياراتنا المسائية إلى مدينة دوما، شجّعته لارتجال كلمة من على المنصّة حين وجدته مترددًا في الإقدام على هذه الخطوة، على الرغم من الإلحاح عليه من قبل المنظِّمين.

[152] شكل الشباب نسبة لا بأس بها من المتحدثين إلى وسائل الإعلام.

[153] سيعمل الصراع العسكري والتطرُّف على وقف تطور هذا الاتجاه.

يمكن تلخيص مشكلات المعارضة التقليدية بالنقاط التالية:

1. صعوبة القيام بالنشاط المعارض في ظل الاستبداد، فضلًا عن كلفته العالية، ومن ثم لم يعرف السوريون نشاطًا سياسيًا وحزبيًا يعتدُّ به كمنافس للسلطة الحاكمة.

2. الخوف من اتخاذ خطوات جريئة في الداخل قد تعرِّض السياسيين للتنكيل والسجن، والميل للعمل السري في وقت أصبح فيه هذا العمل غير كافٍ في الأحوال الثورية.

3. شخصنة العلاقات بين رموز المعارضة، وتآمر بعضهم على بعض، وعدم قدرتهم على تجاوز الخلافات الشخصية والارتقاء إلى مستويات المسؤولية الوطنية الكبرى التي فرضت نفسها بعد الانتفاضة/ الثورة.

4. لم تفرز السنوات السياسية العجاف إلا بعض الأبطال الدون كيشوتيين، المتضخمة ذواتهم والمفصولين عن الواقع، واقتصر حصاد عقود من التصحُّر السياسي على معارضة محطَّمة ومتعثِّرة.

5. عدم وجود أساليب عمل ديمقراطية داخل الأحزاب التقليدية المعارضة، ما يفسر، ولو جزئيًا، العجز عن الارتقاء بعمل التجمعات السياسية التي ظهرت مؤخرًا من الفردنة إلى المأسسة، فبقيت مجرد تجمعات لأفراد مستقلين أو ملحقين بزعيم أو جهة ما.

6. عدم وعي عمق التطورات السياسية الثورية الحاصلة في القاع المجتمعي السوري بعد اندلاع الاحتجاجات التي جعلت من المعارضة التقليدية وتشكيلاتها مجرد هياكل من الماضي.

7. الاستخفاف بقدرات الشباب القيادية، ومحاولة نقل أمراض المعارضة إلى هؤلاء، ولو من دون قصد، مثلما حدث في محاولة السيطرة على عمل التنسيقيات[154].

---

[154] التنسيقيات هي ابنة التظاهرات، وتعني تنسيق الفاعليات المتعلقة بالتظاهر من قبل الشباب الذين يقومون بتنظيم التظاهرات السلمية وكتابة الشعارات والتواصل فيما بينهم وبين المجموعات الأخرى، وقد انتظمت التنسيقيات لاحقًا في مجموعتين:

1. لجان التنسيق المحلية (مدعومة من قوى إعلان دمشق، وحزب الشعب الديمقراطي خاصَّة، وأهم عناصرها المحامية رزان زيتونة والناشط مازن درويش).

8. لم تستطع المعارضة التواصل مع الشارع من منطلق إرشاده والحيلولة من دون انجرافه بفعل مختلف المؤثرات غير الوطنية لأسباب كثيرة، منها غربة المعارضة عن الواقع عامَّة، ووجود فجوة جيلية مهمة؛ أي غياب جيل الوسط الذي عاش العقود العجاف في سورية، وكان هذا الجيل (30- 50 سنة) هو الجيل المفترض أن يقود.

9. لم تعمل المعارضة على الحدّ من المتاجرين بالدم السوري في الخارج الذين استغلوا الثائرين لغايات استعراضية وركبوا موجة الثورة.

10. لم يكن الهدف وحدة المعارضة تنظيميًا، إنّما تنسيق الجهود وتوحيدها فيما يتعلق بالمسائل الوطنية ككل؛ مثل تحديد الخيارات والأولويات، والتحضير للمرحلة الانتقالية.

11. كانت المزاودات بين المعارضين في بداية الحراك، تقوم على نغمة شتم النظام، أكثر من القيام بجهد تحليلي جدّي لبنيته ونقاط قوته وضعفه، فكان من حسن حظ النظام وجود كثير من معارضيه على هيئة شتّامين.

12. استمر التخبُّط على حاله من دون أمل يُذكر في التركيز على ما يَجمع لا على ما يُفرِّق؛ في أحوال اشتدَّ فيها القمع وصعُبت فيها معرفة أحجام التمثيل السياسي، نظرًا لغياب الآليات الديمقراطية الانتخابية وكثرة المدَّعين والانتهازيين.

13. تابع العالم الخارجي الحالة المُزرية للمعارضة، ولم يعلِّق الآمال عليها إلا بما يخدم مصالحه، ولم يهمه أن يدعوه "المجلس الوطني" إلى التدخل أو تقف هيئة التنسيق ضد هذا التدخل!

14. يمكن الإشارة أيضًا إلى الجانب النفسي لعلاقة المعارض بالأوساط الشعبية من خلال المعاناة التي تعرض لها في فترة الاستبداد الطويلة، والانعدام شبه الكامل للتضامن معه من قبل هذه الأوساط، إنْ كان من حملة الأفكار التنويرية خاصَّة؛ الأمر الذي جعله يتعامل مع الثورة الشعبية بفوقية، إضافة إلى مشاعر مضمرة أقرب للانتقام منها إلى التفاعل الخلاّق، وعدم القدرة أو الرغبة بردم الهوة بينه وبين الناس العاديين،

---

2. اتحاد تنسيقيات الثورة السورية (مدعومة من قوى إسلامية خاصةً، ومن أهم عناصرها الناشطة سهير الأتاسي)، إضافة إلى تنسيقيات مستقلة أخرى، منها التنسيقيات الكردية.

قام الناشطون والمثقفون بدور مميز في إنشاء التنسيقيات، التي كان لها دور مهم في التغطية الإعلامية لمجريات الحوادث في الأشهر الأولى، وفي أوضاع بالغة التعقيد لم يُسمح فيها إلا للإعلام الرسمي بنقلها..

فلم يكن "مثقفًا عضويًا" بتعبير غرامشي[155]. كان ذلك واضحًا أيضًا في الأوساط الشعبية التي بقيت موالية أو تحت سلطة النظام، فعندما صارت تدفع الثمن من دماء أبنائها، كان لسان حال المعارض يقول: "خليهم يضحوا وينصدموا.. منشان يتعلموا"، ومن ثم صارت الأوساط الشعبية محاصرة بين النظام والمعارضين مثلما كان المعارضون محاصرين من قبل بين النظام وهذه الأوساط المكبّلة بالخوف والغارقة في اجترار ماضيها، إنّها لعنة الاستبداد التاريخية!

15. كان للجماهير من جهة أخرى، "غرامشيّوها"؛ الدعاة الدينيون والمشايخ الذين استفادوا من غربة العامة من الناس واستلابها ليطفوا على سطح مستنقع الاستبداد الآسن. ساهم هؤلاء في زعزعة هيكل الاستبداد؛ لكنّهم ساعدوا على بقاء الهيكل ذاته إلى حين؛ بسبب أوهامهم الماضوية المفوَّتة.

---

(155) فيلسوف إيطالي ماركسي طرح فكرة المثقف العضوي المرتبط بهموم شعبه مقابل المثقف التقليدي الذي يعيش في برجه العاجي.

المجلس الوطني

أوشك العالم أن يفقد صبره وهو يتابع عجز المعارضين عن الانتظام لتشكيل بديل سياسي بعد أكثر من نصف عام على اندلاع الانتفاضة، فضلًا عن أولئك الذين يصنعون الحدث، ويريدون أن يكون لهم غطاء سياسي يمنحهم بعض الأمل. إضافة إلى المحاولات التي جرت في الداخل، وأهمها تشكيل هيئة التنسيق الوطنية التي لم تحُز على ثقة الشارع الغاضب إلا في نطاقٍ محدود، جرت عدة محاولات في الخارج لتشكيل مجالس تمثيلية، وانتهت بتشكيل "المجلس الوطني السوري"[156] في 2 تشرين الأول 2011.

وبعيدا من الاتهامات من هذا الطرف أو ذاك، فإنني أعتبر هذه اللحظة من المفارقات المهمة التي تدل على بداية دورة جديدة من الصراع الخارجي على سورية وتدخُّل الدول في شؤونها، إذ تبيَّن منذ ذلك الحين أنّ تركيا هي التي جاءت بالإسلاميين من الدوحة إلى اسطنبول لتبني هيكل المعارضة حول محورهم، فجرى تفصيل المقاسات هناك لدخول بقية أطراف المعارضة، شرط ألاّ يتأثر بذلك "بُناة الهيكل!" عَكَس ذلك وجود تنافس تركي – قطري من أجل الاستحواذ على "المجلس الوطني" [157] الذي استقوى، بدوره، بداعميه الإقليميين لتحجيم القوى المعارضة الأخرى وإقصائها. بكلام آخر، قام المجلس على الإقصاء؛ لأنه دعا إلى الالتحاق به والعمل ضمن آلياته، على شاكلة علاقة حزب البعث مع "الجبهة الوطنية التقدمية" عند النظام؛ لكن ليس كأحزاب فحسب، إنّما كممثلين للطوائف، وهنا الطّامة

---

[156] شكل "المجلس الوطني" السوري في اسطنبول في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 2011، بعد انهيار محادثات المعارضين في الدوحة وذهاب قسم منهم لتشكيل هذا المجلس في تركيا. ثم ضم المجلس، إلى جانب لجنة العمل الوطني المؤسّسة، الإخوان المسلمين وإعلان دمشق والتيار الإسلامي المستقل وشخصيات مستقلة وحزبية.

http://www.djazairess.com/elbilad/44355

[157] في تنافسهما للسيطرة على "المجلس الوطني"، ولحل إشكال الدعوة إلى مؤتمر "أصدقاء سورية" الأول في اسطنبول بداية 2012، جرى التوافق بين تركيا وقطر على أن تصدر الدعوة إلى المؤتمر باسم الدولتين!

www.al-akhbar.com/node/60992

الكبرى، وجرى التوافق على أن يكون الدكتور برهان غليون الرئيس الأول لهذا المجلس.

بنى مؤسسو المجلس جلَ آمالهم على التدخل الخارجي، اقتداءً بالنموذج الليبي، ووعدوا بما هم ليسوا بقادرين على الإتيان به في لحظة كان الشارع يحتاج فيها إلى من يمثله، فأيد الشارع "المجلس الوطني" إلى حدّ معقول[158]. ونظرًا للضغوط الدولية من أجل تمثيل أفضل، توسَّع المجلس تدريجًا ليضم أطرافًا سياسية ومكوّنات سورية أخرى؛ لكن ذلك لم يغيِّر من معادلة تكوينه المبنية على الإقصاء، ولا من خضوعه لأجندات الدول الإقليمية، ولا من سياساته، التي أكثر ما كانت تفتقد إلى السياسة الوطنية- السورية.

كان الاعتقاد السائد وقتها أن النظام سيسقط خلال فترة وجيزة، وعليهم، الاستعداد للقفز إلى السلطة، فسارعوا لطلب الشرعية في البداية من الحكومتين التركية والقطرية، مع استعدادهم الكامل للعمل كعملاء وبأي صيغة. بالنتيجة، كان لا بد من تخوين بعض المعارضين في الداخل، واجتذاب بعضهم الآخر لينضم إلى صفوفهم في الخارج بعد "تعميدهم" في التظاهرات أو الموافقة عليهم من المكتب التنفيذي لمجلس الغفلة[159]!

على الرغم من تأييد معظم فاعليات الثورة السورية للمجلس الوطني السوري في البداية، فإن التمثيل السياسي لم يتحقق كما يجب على الأرض، إذ وقف "المجلس الوطني"، وغيره من التشكيلات المعارضة، وراء الثورة الشعبية صانعة الحدث، أو بمحاذاتها، من دون التصدي للتمثيل الفعلي أو القيادة، فضلًا عن خضوعه لأجندة داعميه الإقليميين قبل كل شيء، مبرِّرًا ذلك بالسعي لتأمين اعتراف عربي ودولي.

---

[158] رفعت الشعارات التي تؤيد "المجلس الوطني" في تظاهرات يوم الجمعة الواقع في 2011/10/7. كان الشارع تواقًا لمن يمثله بالفعل، لكن، وعوضًا عن أن يشعر المجلس بفداحة المسؤولية الملقاة على عاتقه، صار المعبرون عن سياساته يتبجحون بذلك ويتعالون على الآخرين، كما اتخذوا من ذلك "قميص عثمان" لاستجلاب المزيد من الدعم الدولي للمجلس!

[159] المقصود هو أن بعض عناصر الإخوان أو الإسلاميين كان يغادرون إلى الخارج بعد اشتراكهم في تظاهرة أو أكثر فيجري هناك تلميعهم كمعارضين سياسيين.

ترك ذلك الباب مفتوحًا لشتّى الاحتمالات، في حال سقط النظام بصورة مفاجئة، من دون توافر بديل على مستوى المسؤولية؛ الأمر الذي يدفع باتجاه الفوضى الشاملة، بعد انتشار مختلف الجماعات المسلحة التي تعمل على حسابها وحساب مموليها في أقطاعات يديرها من هم أقرب إلى أمراء حرب منه إلى الثوّار خاصّة.

كان من المفترض[160] أن يعمل "المجلس الوطني"، انطلاقًا من ادعائه التمثيل والاعتراف النسبي الذي حظي به، على:

1. الارتقاء إلى مستوى المسؤولية الوطنية، وألا يتحدث عن تمثيل الثورة فحسب، فيبدو كأن هدفه الانقلاب على النظام وليس تشكيل بديل يقنع معظم السوريين.

2. عدم تبرير استعمال السلاح إلاّ كخيار اضطراري وموقت للدفاع عن النفس، ويتعلق خاصة بالمنشقين عن الجيش خاصّة.

3. أما وقد انتشرت المجموعات المسلحة، كان يجب عليه التصدي لمشكلة شرذمة المسلحين وحصر مصادر الدعم بجهة واحدة وطنية، حتى لا تسنح الفرصة للأطراف المموِّلة بالتأثير على الخيارات المستقبلية لسورية من خلال العسكرة.

4. التعاون مع قوى المعارضة الأخرى لتشكيل مظلة أمان لسورية المستقبل.

5. تعرية قوى الإقصاء الدينية التي تحاول تسلُّق سلَّم الثورة السورية من أجل بثِّ بذور الفتنة ومحاولة استبدال استبدادٍ بآخر.

6. إقناع غالبية الشعب السوري، قبل الأطراف الدولية، بأنه يعمل على جدولة أولويات التغيير المقبل في سورية.

---

[160] بسبب طغيان الإسلاميين وحلفائهم في المجلس، والانتقادات التي كانت توجه لكثير من المعارضين الآخرين بأن عليهم أن يدخلوا المجلس ليساهموا في إصلاحه، شكلت أواخر العام 2011 مجموعة سورية ضمت 5 أشخاص، منهم كاتب هذه السطور، وسميت مجموعة 5+1، والواحد هو صديقي الذي كان عضوًا في المكتب التنفيذي لـ "المجلس الوطني" ويريد، من خلال إضافة اسمه، التعبير عن دعمه لمطالب الإصلاح من دون أن يتبناها بالمطلق! تضمنت المطالب معظم البنود الواردة أعلاه، التي استبعدت لاحقًا من جدول أعمال المكتب التنفيذي للمجلس من قبل أمين سر المجلس د. ن. الحكيم، الذي فرضه الإخوان بطريقة تعسفية مكان الأمين السابق وائل ميرزا، كما أسرَّ لي صديقي. انفرط عقد المجموعة السابقة بعد ذلك، وبقي منها عضو واحد انضم إلى المجلس وإلى الإتلاف من بعده، هو الأستاذ خطيب بدلة.

لم يفعل "المجلس الوطني" أيًّا مما سبق، وفضّل الارتهان لمصالح الداعمين عوضًا عن بناء الأساس السياسي في الداخل(161).

لم تلبث أن طفت علامات تفكك "المجلس الوطني" على السطح، ولم يعد بالإمكان إخفاء تحكم نواته من "الإخوان المسلمين" وقوى إعلان دمشق[iv]، بتحالفاتهم الهشة ولا ديمقراطيتهم، مع أن الكفّة كانت تميل إلى جانب "الإخوان" بصورة فاضحة، "الإخوان" الذين يريدون السلطة لهم بكلِّ أنانية، محاطين بكورس من الأعوان المتلهّفين لالتقاط الفتات!

لم يكن معظم المتنفِّذين في المجلس الذين تسنّى لي التّعرف إليهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على مستوى التحدِّيات الوطنية المتمثلة بإعادة صوغ مشروع الدولة في سورية؛ بل مجرّد أناس مدّعين، إضافة إلى بعض المواقف الطائفية المعلنة أو المسكوت عنها، والفقر السياسي والتاريخي الفاضح.

***

(161) اعترف أحد أعضاء المكتب التنفيذي للمجلس الوطني، في معرض نقاش الخيارات أعلاه، أن المجلس يشتغل سياسةً داخلية بنسبة 10% وخارجية بنسبة 90%. ولعمري إنّ ذلك هو عكس ما يجب أن يكون، انطلاقاً من كون السياسة الداخلية هي الأساس التي تبنى عليه السياسة الخارجية لأي بلد أو قضية، وليس العكس!

وهكذا، تقاسمت الساحة السياسية السورية قوتان، أو وجهتا نظر سياسيتان رئيستان، هما هيئة التنسيق الوطنية[162] و"المجلس الوطني السوري." قطع "المجلس الوطني" الطريق على أي تعاون مع بقية فصائل المعارضة حين وضع جميع أوراقه في سلة الخارج وباع أوهام ومواقف[163] دفع الشارع دمه ثمنًا غاليًا لها، فيما لم تستطع هيئة التنسيق مجاراة المجلس في ركوب موجة الثورة، مع تزايد الميل للتطرُّف والأسلمة خاصَّة، فهرولت بدورها باتجاه الحلف الروسي- الإيراني.

اقتضت المسؤولية الوطنية اتفاق المعارضة على نقاطٍ مشتركة من أجل قيادة عملية التغيير الديمقراطية ضدّ سلطة استبدادية ضربت جذورها العميقة في بنية المجتمع السوري وأفسدته؛ لكنّ بعض المعارضين فضَّل الاتكاء على الثائرين في سياسةٍ انتهازية وشعبوية[1].

ومع أنّ "المجلس الوطني" لم يقم بمراجعة سياساته، فقد اعترفت بعض الأصوات فيه بأن "النظام أخذها إلى حيث يريد!" مع ذلك، يعتبر قبول "المجلس الوطني"، إضافة إلى باقي أطياف المعارضة، بمبادرة السيد كوفي عنان[164] بدايةً لفهم الواقع الدولي.

---

(162) شكلت هيئة التنسيق الوطنية من عدة أحزاب معارضة في الداخل السوري في 30 حزيران/ يونيو 2011، كما أشير إلى ذلك من قبل.

(163) لم يجرؤ المجلس يومًا على مراجعة مواقفه.

(164) جاءت المبادرة الدولية استمرارًا للمبادرة العربية في شهر شباط/ فبراير 2012، وسمي السيد عنان ممثلًا لكل من الجامعة العربية والأمم المتحدة. وردت هذه الملاحظة سابقاً على وجه التقريب.

إعلان دمشق[165]

استمر إعلان دمشق الذي دخل مرحلة جديدة بعد تشكيل مجلسه الوطني مطلع عام 2007، بعقد اجتماعاته الأسبوعية السرية في أمكنة مختلفة من مدينة دمشق. وتبين أنّ ثمة كتلتين متنافستين في الإعلان؛ واحدة بزعامة رياض الترك والثانية بزعامة رياض سيف. مثَّل رياض الترك وأنصاره التيّار الأيديولوجي المحافظ في الإعلان، في حين كان رياض سيف وفريقه يمثِّلون التيار "الليبرالي" المنفتح للخارج. في عداد كل من الفريقين كان ثمة شخصيات انتهازية تؤدي دور المريدين، ولم يستطع المستقلون تعديل حدّة هذا العناد!

لم تكن الخلافات مبدئية على الإطلاق؛ فالزعيم "التاريخي" رياض الترك لم يكن ليقبل بمنافسٍ جديد، وأنه جاء من أوساطٍ تجارية وصناعية لم تهضمها الأيديولوجيا الماركسوية خاصَّة، حتى لو تقومجت[166]، في حين كان رياض سيف ومريدوه ميالين لوضع جميع "بيوضهم" في سلة الخارج. بدا الأمر مقيتًا في مثل هذه الأوضاع، إذ لم يرَ هؤلاء "القادة" أبعد من أنوفهم فيما يغرق البلد بالدم، ويحصد القمع المزيد من الأرواح، ويحوم "الجهاديون" في الأجواء مستعدين للمساهمة بفاعلية في مأدبة الدم، وقلب الطاولة في وجه الجميع!

---

[165] ائتلاف معارض طالب بتغيير نظام الحكم في سورية إلى نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب في عام 2005.

[166] كان من نتائج الخلاف داخل صفوف الحزب الشيوعي السوري عام 1969 اتخاذ المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري- جناح رياض الترك- مواقف قومية تمييزًا له من أممية خالد بكداش الخالصة!

الفصل السابع

قضايا متفرقة

1. الإعلام الثوري والإعلام الرسمي في المواجهة

كان الإعلام السوري الرسمي، وما يزال، جزءًا من الإعلام الدعائي لعصر الأيديولوجيا المرتبط بأنظمة الاستبداد، فهو اللاعب الوحيد في نقل الصورة والخبر، غير مدركٍ لأهمية التقدُّم التكنولوجي الذي دفع بحرية التعبير قدمًا، الذي سيجعل من الناشطين أنفسهم محرِّرين ومراسلين. أما الإعلام الثوري فقد اتّسم بدايةً بالفوضوية والارتجال وقلّة الخبرة، واعتمد على "شهود عيان" شبه مجهولين، ومن دون صدقية مهنية تذكر، فاشترك كل من الإعلام الرسمي والثوري في التضليل، على الرغم من جهد التنسيقيات في المراحل الأولى لنقل صورةٍ قريبة من الواقع.

حمّل إعلام المعارضة النظام مسؤولية جميع الأعمال العنفية التي يرتكبها بعض المتظاهرين بحجة عدم الإساءة للثورة، وانسحبت المسؤولية على القنوات التلفزيونية التي تبثُّ أقوال الناشطين أيضًا، فتأثّرت مصداقيتها، التي لا تحوز على كثير منها أصلًا. على سبيل المثال، اتهمت المعارضة النظام باغتيال شخصيات علمية في حمص[167]، ما ذكَّر بما فعلته "الطليعة المقاتلة" للإخوان المسلمين في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات.

وحين تسيدت الفصائل الإسلامية على نحو شبه تام، المدعومة من قبل تركيا والسعودية وقطر، وصل الأمر إلى درجة تسمية معركة الهجوم على الكليات العسكرية جنوب حلب في شهر آب 2016 بمعركة "ابراهيم اليوسف"، الضابط المسؤول عن مجزرة كلية المدفعية عام 1989، تلا ذلك تسمية إحدى معارك ريف حماه بمعركة

---

[167] منها اغتيال الدكتور حسن عيد في 24 آب/ أغسطس 2011 واغتيال نائب عميد كلية الكيمياء في حمص نائل الدخيل في 26 أيلول/ سبتمبر 2011 وفي اليوم ذاته اغتيل الوكيل العلمي لكلية الهندسة المعمارية في حمص محمد علي عقيل والتمثيل بجثته، وبعد يومين اغتيل مهندس الطاقة النووية أوس خليل أيضًا.

syrianow. sy/index. php?p=12&id=9768

"مروان حديد[168]" زعيم "الطليعة المقاتلة الإخوانية" المسؤولة عن كثير من عمليات الاغتيال الطائفية أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات.

2. لعنة "النصرة"[169]

حفلت شاشات القنوات الفضائية بتصريحات الناشطين والسياسيين المعارضين الذين تجاهلوا تفجيرات جبهة النصرة- فرع منظمة "القاعدة" في سورية، وحملوا النظام المسؤولية عنها. وحين أعلنت هذه الجبهة مسؤوليتها على الملأ انبرى هؤلاء للقول: إنّ النصرة "نصرتين"؛ واحدة صنيعة النظام، والأخرى تتبع منظمة "القاعدة". وسيتواصل هذا "الجدل البيزنطي"[170]، غير المستند إلى حقائق ومعلومات، أكثر من سنة!

من الطبيعي أن يخترق النظام التنظيمات المتطرفة وغيرها، لكن من الخطل البيّن اعتباره وحده مسؤولًا عن التطرُّف في هذا العالم، مع الإقرار بأنّه أضحى من العوامل الجاذبة للتطرّف، فالمتطرفون الإسلاميون، وعلى رأسهم تنظيم "القاعدة"، سيجدون الفرصة ملائمةً ليبحثوا عن موطئ قدمٍ لهم في الفوضى السورية، التي خلط النظام فيها

---

[168] مروان حديد (1934- 1976). مؤسس وقائد "الطليعة المقاتلة"؛ الجناح العسكري للإخوان المسلمين في السبعينيات.

[169] في أواخر تموز 2016، وبعد أن تسرّب اتفاق أمريكي- روسي يقضي بضرب التنظيمين المصنفين إرهابيين، داعش والنصرة، غيرت جبهة النصرة اسمها إلى "فتح الشام" كإعلان شكلي عن انفصالها عن منظمة "القاعدة"، لكن متحدثًا أميركيًا خرج ليؤكد أن تلك الخطوة لا تغير شيئًا في واقع الأمر.

http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=28072016&id=db286b71-664f-4e58-a48f-115b9e60e908

https://news.google.de/news/story?cf=all&hl=ar&ned=ar_me&cf=all&ncl=di-8h3SxfoS4nwMq2huqQRN_N490M&topic=w&scoring=n

[170] ***الجدل البيزنطي*** هو نقاش لا طائل منه، فبينما كان السلطان العثماني محمد الفاتح على أسوار القسطنطينية (عاصمة بيزنطة) كان الرهبان وعلماء بيزنطة في الكنيسة الكبيرة، يتجادلون فيما بينهم حول مسألة ما إذا كانت الملائكة ذكورًا أو إناثًا، وحول من وجد قبل الدجاجة أم البيضة، وكم ملاك يمكنه الوقوف على رأس دبوس؟ فكان ذلك أحد أسباب سقوط الإمبراطورية البيزنطية!

الأوراق ورماها في وجه معارضيه، خاصّة هذا الغباء السياسي والحنق الثوري كله خاصّة!

في تلك الأثناء، طلبت من صديقي المساعدة في الحصول على معلوماتٍ حول "جبهة النصرة"، التي تبنت التفجيرات الأخيرة في دمشق(171):

- كيف يمكن الوصول إلى جبهة النصرة في ريف دمشق وما هي معلوماتك عنها؟

- ليس لديَّ أي معلومات، هذه الانفجارات من عمل النظام.

- لكننا، كمعارضين، ملزمين، أخلاقيًا وسياسيًا، بمعرفة ما الذي يحدث على الأرض، وعلينا إرسال أحدهم للحديث مع قادة مجموعات المسلحين لاستيضاح الأمر، وأنا على استعداد للذهاب بنفسي لمعرفة الحقيقة.

- ....

لم يحصل ذلك، فأضاف ذلك خيبة أخرى، وتخوُّفًا من توجُّهات عدمية ستدخل سورية في دوامة رهيبة من العنف.(172)

(171) تبنت جبهة النصرة، أول مرة، تفجيرين قرب مركزين أمنيين دمشق بتاريخ 23 كانون الأول 2011. وتتالت التفجيرات في صيف 2012 ومنها في أحياء شعبية موالية، وكان معظم ضحاياها من المدنيين.

http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2012/7/18/

(172) استمر كثيرمن المعارضين حتى بعد خمس سنوات بتغطية تصرفات جبهة النصرة التي جاهرت بارتباطها مع القاعدة، في وقت أدانوا فيه تنظيم "داعش" لفرط تطرفه وانفضاحه، متناسيين الطبيعة الديناميكية لعمل التنظيمات المتطرفة التي تتعاون وتتنافس من دون أن يمسّ ذلك طبيعتها الإرهابية، وحجتهم أن "النصرة" تقاتل النظام وفيها كثير من السوريين! وهذا، برأيي، سقوط أخلاقي أطاح وسيطيح بما تبقى من صدقية المعارضة، في وقت ضاعت فيه راية الثورة بين مختلف رايات التطرُّف. كان يجب دفع السوريين إلى العمل خارج إطار التنظيمات المتطرفة واتخاذ موقف واضح من داعميها الإقليميين، فالنظام لن يسقط بضربات النصرة، مهما آلمته ضرباتها، باعتبارها جناح القاعدة في سورية، ويبرر له استجلاب القوى الإقليمية والدولية لمقاتلتها، ولا سيما أن الولايات المتحدة على الأقل كانت قد اعتبرت جبهة "النصرة" منظمة إرهابية في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2012.

قاتل الجهاديون الإسلاميون في البوسنة والهرسك تحت راية سياسية واضحة بقيادة علي عزّت بيكوفيتش[173]، ثم انتهى دور هؤلاء بانتهاء المعارك ونُزعت أسلحتهم وأُبعد معظمهم بعد اتفاقية دايتون[174]. الأمر مختلف فيما يتعلق بسورية التي تحولّت إلى ساحة مفتوحة لجميع أشكال التطرُّف، وبوجود سياسيين أشبه بدمى تديرها استخبارات الدول الإقليمية والعظمى[175].

كما عملت فصائل "الجيش الحر"[176]، وهو في الحقيقة جيش سنّي؛ لكنّه وطني التوجّه في بداياته، على استخدام المجموعات الجهادية، على رأسها النصرة، لمقاتلة النظام، مستفيدةً من قدرتهم على التضحية، طمعًا بالشهادة والتنعُّم بملذات الجنة وحورياتها. لكن، ما إن قويت شوكة الجهاديين ونالوا "وسام الشجاعة" في مقاتلة النظام حتى عادوا لمقاتلة "الجيش الحر" وتجريده من أسلحته[177].

---

[173] علي عزت بيغوفيتش (1925- 2003). أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك (1990- 1996) بعد انتهاء الحرب البوسنية.

[174] http://www.estqlal.com/article.php?id=6917 ، وهي الاتفاقية التي أنهت الصراع في البوسنة والهرسك.

[175] أخبرني صديقي في إحدى المرات أن أحد المسلحين من إدلب تواصل معه من خلال برنامج السكايبي للحصول على السلاح. لا أعرف ما الذي دار بينهما بالضبط، لكن صديقي الذي صار عضوَ المكتب التنفيذي للمجلس الوطني، بدا حزينًا ومحبطًا؛ لأن المتصل تحدث معه بكلمات مهينة. عبّر هذا المثال عن طبيعة العلاقة التي ربطت المسلحين بـ "قادتها السياسية"!

[176] باعتبار أنه تشكَّل في البداية من المنشقين الذين رفضوا قمع المتظاهرين. مع ذلك، لم يخل الأمر من منشقين من بقية الطوائف، وحتى تشكيل بعض المجموعات المقاتلة المتجاوزة لفكرة الأقليات الأكثرية (كتائب الوحدة الوطنية في إدلب) لكنها كانت محدودة ودعائية الطابع، ولم يكن ذلك لينسجم مع أسلمة الثورة وتسنينها كشعار رفعه المموّلون أساسًا، فكانت الدعوة لتشكيل كتائب مسلحة من الأقليات كلام حق يراد به باطل، وديكور هزيل يخدم أسلمة الثورة أكثر من نفي هذه الصفة عنها.

[177] ينطبق ذلك بشكل خاص على جبهة النصرة- فرع القاعدة في سورية- حيث أجهزت على كثير من فصائل الجيش الحر، وأهمها جبهة ثوار سورية في 2014/11/2، وحركة حزم في 2015/2/26، كما اتهمت بتصفية قادة حركة أحرار الشام الإسلامية في 2014/9/10

3. خلط الأوراق

فيما كانت براعم الحركات الشبابية المدنية تحيي بعض الأمل، جاءت بنادق التطرُّف لتشوِّه كل ما يتعلق بالثورة، ووقف النظام شامتًا بمَن يهلِّل لإسقاطه على يد هؤلاء، الذي سيلجأ في مرحلة تالية، حين يشتدّ الخطر عليه، لتفويض الإيرانيين باستجلاب الميليشيات من بلدان عدة، إضافة إلى حزب الله، لزجّهم في ساحة المعركة، وما سيتبع ذلك من إذكاء نار الصراع السني- الشيعي!

زرع النظام بذور التطرُّف فوجد من يتجه للقائه في منتصف الطريق، وزرع بذور العنف ولعب لعبة العصابات المسلحة، فصارت حقيقة واحترقت بها أصابعه في نهاية المطاف. قال النظام، منذ البداية: إنّ ثمة مؤامرة عليه، ولم يلبث كثير من المعارضين حتى تبنّوا نظرية المؤامرة أيضًا، التي هي بنظرهم مؤامرة على "الثورة السورية"! في هذه الأثناء، كان التاريخ يخاتل ويخادع، ويصدم أصحاب نظرية المؤامرة، كما فعل مرارًا!

لكنّ الواقع كان يقول: إنّ ثمة "مؤامرة" على الشعب السوري وتنوعه وتعايشه من قبل معظم أطراف الصراع، إذ صارت الثورة أداة للشحن الطائفي الذي يمارسه تجار الدم والسلاح، الأمر الذي سيضع السوريين بين فكّي كماشة؛ النظام من جهة، والمعارضة والداعمين الإقليميين لهما من جهة أخرى.

تراجع في ذلك الحين، الاهتمام الشعبي العربي والعالمي في المحرقة السورية، كما ازدادت مخاوف العالم من التطرُّف الإسلامي الذي ما انفك يتصاعد، وقد اجتذبت الفوضى السورية أعدادًا متزايدة من الجهاديين، وتحوّل الشعب الثائر إلى ضحايا ومهجَّرين في الداخل والخارج.

لن تكون الحرب في سورية قصيرة كما اعتقد بعض المعارضين السُذَّج، وقد لا تقتصر على الداخل السوري، إضافة إلى تكلفتها الباهظة، وإجهاضها لعملية التغيير الديمقراطي برمتها. كما لن تعود الأمور إلى الوراء، ويتوقف نجاحنا في التقدم على وقف الصراع العدمي واستنهاض الرأي العام السوري الذي غاب بعد يقظته القصيرة في البدايات، والذي لم يعد ممكنًا من دون حلّ تشابكات العلاقات الدولية التي ارتهنا لها؛ لكنّه لا يمنعنا من مراجعة شاملة للمرحلة السابقة، حتى لا نخسر، ولو إلى حين، الحلم الذي تخضَّب بدماء السوريين.

4. إضرابات

جرت دعوات عديدة للإضراب بالتوازي مع التظاهرات، وحققت نجاحات في أماكن التظاهر، مع أنه من غير المعروف تمامًا الكيفية التي طُبِّق فيها على أرض الواقع؛ إن كان طوعيًا أو كان بالإكراه. وفي محاولة لاستعادة المبادرة من العسكرة المنفلتة، أعلنت بعض قوى الثورة عن تنظيم إضراب على مراحل ينتهي بالعصيان المدني[178]، ربما كانت تلك آخر المحاولات السلمية المبذولة من قبل الناشطين للانتقال إلى مرحلة أكثر تقدمًا. لكنّ العسكرة والأسلمة، المدعومتين بمال لا ينضب من عائدات النفط الخليجي منخفض التكلفة، كانتا الأسرع، ودفعتا باتجاه حرب أهلية تحت شعارات طائفية، بله عنصرية أحيانًا[179].

لم يجرِ التنسيق والتحضير جيدًا للإضراب، وبسبب جبن رأس المال لم يتجاوز الإضراب حدود أماكن التظاهرات، وفشل في تحقيق هدفه المتمثل بدفع الأماكن الخاضعة لسيطرة النظام إلى المشاركة، ما وجّه ضربةً جديدة لأنصار التوجُّه السلمي.

---

[178] جرت الدعوة إلى إضراب الكرامة بتاريخ 5 كانون الأول ديسمبر 2012. وجاء في بيان الدعوة الذي لا تشوبه شائبة برأيي، ما يلي:

- هذه ليست مجرد دعوة أخرى من دعوات الإضراب، هذه هي الدعوة التي تضافرت لأجلها جميع الجهود، ونضجت عندها جميع أفكار العصيان المدني، هنا نظرنا باتجاه واحد معًا. هنا تلتقي جميع التنسيقيات والحركات الشبابية والهيئات ومجالس المعارضة والقادة السياسيين على اختلاف أطيافهم.
- ابتداء من فجر يوم الأحد 11 كانون الأول، سوف يشهد العالم انطلاق تطور جديد داخل الثورة السورية. هذه الشمس ستشرق من بيتك أنت، أنت قائدها وبطلها ودليلها، من بيتك ستشرق إلى بقية منازل سورية معلنة بدء الإضراب المتصاعد وصولًا إلى العصيان المدني الشامل.
- أيها الشعب السوري العظيم يا من صنعتم معجزة في التاريخ السوري الحديث والتاريخ الإنساني بتحملكم هول همجية السلطة واستمراركم بالثورة السلمية، نحن أبناءكم وبناتكم نعلن أننا لن نلين وسوف نستمر بثورتنا السلمية من أجل بلدنا الحبيب للوصول إلى حريتنا وكرامتنا الكاملة على مستوى الوطن والمواطن.
- أيها الشعب السوري العظيم، بالإضراب والالتزام به وتصعيده نحو العصيان المدني نستعيد زمام الفعل السياسي وننزع فتيل الانقسام المجتمعي ونردّ خطر التدخل الخارجي، ونضع الثورة على طريق الديمقراطية الحقيقية وتثبيت مفهوم المواطنة الكاملة بالحقوق والواجبات.
- عاشت سورية حرة أبية.

[179] على الرغم من وجود عدة آلاف من مقاتلي جبهة النصرة في المنطقة الجنوبية، بقي الجسم الأساسي لقوى "الجيش الحر" يقاتل تحت رايات سورية، بخلاف الشمال السوري الذي سيطرت عليه القوى المتطرفة بدرجةٍ أكبر.

كما تبيّن أنّ فاعليات أكبر مدينتين في سورية؛ دمشق وحلب، لم تستطع المشاركة أو لا تريدها لسببين على الأرجح؛ الخوف من بطش النظام من جهة، والمستقبل الغامض الذي قد يطيح بمصالح تجار وصناعيي هاتين المدينتين من جهة أخرى، ولعلّ السبب الثاني هو الأهمّ والأكثر واقعية.

ففي وقت كان الإضراب يعمُّ مدينة دوما بالكامل، لم يُغلق محلٌّ واحد في مركز دمشق التجاري في الحريقة! وحين كنّا نتساءل عن ذلك، يجيب بعض المعارضين: إن السلطة ستكسر الأقفال إن أضربت مدينة دمشق! فهل يُبرِّر عدم إضراب المركز التجاري لدمشق بسبب مثل هذه المخاوف، أم أنّ الأمور أعقد من ذلك؟

حدث لاحقًا في حلب أن هاجمت جحافل المسلحين من الريف الحلبي المدينةَ العريقة [180]، ليس للإطاحة بالأقفال فحسب؛ بل لتحويل أسواق حلب القديمة وأهم مركز للعمل والثروة والتسوق في سورية إلى ساحة حرب، ونهب ثرواتها وبيع معاملها خردةً للصهر في تركيا!

كان يجب العمل بالأساليب المدنية السلمية وتنويعها، وعلى رأسها الإضرابات، والتحلي بمزيد من الصبر والتأني والتخطيط لأشهر وسنوات! وكم كانت مهمة تجربة الشهيد غياث مطر ورفاقه في داريا، على سبيل المثال لا الحصر، أساسيةً على الرغم من مأسوية مصيره التي أكّدت عمق خيارات الناشطين السلميين وأهميتها وأحقيتها[181].

إنّ ما جرى لاحقًا لا يدع مجالًا للشّك في خطأ الخيارات العسكرية المعززة بأيديولوجيا إسلام ابن تيميه وأضرابه، وما نجم عنها من المشاركة في إراقة الدماء على نطاق واسع، وتعزيز حلم الإسلاميين والجهاديين في السيادة على أنقاض سورية.

---

[180] حدث ذلك للمدينة التي كانت تقدِّم حوالي ثلث الدخل الوطني في صيف 2012.

[181] اعتقل غياث مطر في 2011/9/6 واستشهد تحت التعذيب في 2011/9/10. اشتهر غياث بمبادراته في تقديم الماء والورود لقوى النظام التي كانت تحاول قمع التظاهرات في مدينة داريا.

5. مؤتمر "سورية في إقليم متغير"

وصلتني في أوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر 2011 دعوة من مركز القدس للدراسات في الأردن لحضور مؤتمرٍ حول سورية تحت العنوان أعلاه[182]. دفعتني رغبة قوية إلى الخروج من سورية، ولو ليوم واحد، وقد حُرمت من ذلك منذ العام 2006 بعد فصلي من عملي في الجامعة ومُنعت من السفر. ذهبت إلى مركز الهجرة والجوازات في دمشق للتأكد من أنّ القرار الذي صدر مؤخرًا برفع حظر السفر عن مئات المعارضين يشملني. كان الأمر كذلك بالفعل، وخلال أيام صار بحوزتي جواز السفر.

***

الصباح باردٌ وجاف يطيب فيه التنفس بعمق، فيما لم تزل مدينة دمشق تتثاءب بهدوء. كانت باصات النقل الداخلي الخضراء في الشارع الرئيسي من ضاحية قدسيا تتوقف لنقل مجموعات مختارة من الأمن والجيش واللجان الشعبية لإيصالها إلى المناطق "الساخنة" في ريف دمشق وغوطتيها، ولا شيء آخر في الأفق غير سحابة التلوث المعتادة التي تحجب الجزء الشرقي من المدينة.

عندما مررنا على حاجز للجيش بمحاذاة حي القدم تذكرت زيارتي لهذا الحي منذ نصف عام في غمرة التظاهرات السلمية. وفي سهل حوران، زادت أشعة الشمس الذهبية من ألق خضرة أشجار الزيتون المصطفة بانتظام في الحقول الخصبة شبه الخالية من المزارعين. هل كان لهيامي بتلك الفتاة الحورانية في سن المراهقة علاقة بعشقي لهذي السهول؟

ترقَّبت ردود أفعال موظّف الجوازات في الجهة السورية من المعبر الحدودي في "نصيب"، إن كانت سفرتي ستتم بسلاسة مثل جميع المسافرين من حولي أم لا. لم يطل انتظاري، أعاد لي الشاب الجواز مرفقًا بابتسامة لطيفة.

---

(182) عقد هذا المؤتمر في الفترة من 21 إلى 22 كانون أول/ ديسمبر 2011 في فندق موفنبيك على شاطئ البحر الميت.

أما في الجانب الأردني من الحدود فقد انتهت إجراءات ثلاثة من ركاب التاكسي خلال دقائق، وبقيت أنتظر جواز سفري نحو ساعة. أخيرًا، ناداني الموظف وناولني سماعة الهاتف طالبًا مني التحدث مع أحدهم. استفسر المتحدِّث عن سبب سفري إلى الأردن، فقلت له الحقيقة، حينئذٍ أعلن المتحدِّث عن هويته بأنّه ضابط في الاستخبارات الأردنية، وأنّهم مهتمون جدًا بما يحدث في الجارة سورية ويودون التعرُّف إليّ ومناقشة بعض الأمور، متمنيًا عليّ المرور إلى مقرّهم في عمّان من أجل ذلك!

الفرحة التي انتابتني للمرور بسلامة والخلاص في الجانب السوري من الحدود تحولت إلى غصّة مريرة، فها أنا أقع في قبضة الاستخبارات الأردنية، فإلى أين المفرّ! أجبت محدِّثي بأن ليس لديّ الوقت للقائهم، وأنني سأحضر مؤتمرًا علنيًا، وبوسعهم الاطّلاع على رأيي من خلال مجريات المؤتمر. انتهى حديثنا عند هذه النقطة، وطُلب مني الانتظار أيضًا.

في ذلك الحين، كان سائق التاكسي يروح ويجيء مستفسرًا عن سبب توقيفي هذا الوقت كله، فأذنت له بمتابعة السفر من دوني. بعد ساعة أخرى من الانتظار، أعطوني جواز سفري، وركبت سيارة عابرة إلى عمّان في حالة من الاستياء الشديد.

انتظرني سائق السيارة الأردني- الفلسطيني في محطة المسافرين، وسط المدينة، ليقلّني إلى ساحل البحر الميت. قاد السائق بهدوء عبر منحدرات والتواءات حادة إلى أخفض نقطة تحت مستوى سطح البحر؛ - 417 مترًا.

بُنيت حجراتُ فندق المُوفنبيك على نمط البيوت الريفية المحلية، ما أعطى المكان طابعًا مميزًا. استلقيت في غرفتي لإغفاءة قصيرة. ثم خرجت لأستطلع المكان، متلذِّذًا بتناول جرعاتٍ من زجاجة البيرة لقهر تلك الحرارة المشبعة بالرطوبة. راقبت غروب الشمس وراء جبال الضفة الغربية لنهر الأردن، إلى أن حلَّ غبش المساء دكنةً ثقيلةً على مياه البحر الميت.

***

بدأ المؤتمر بعد دقائق من التّعرف والتعارف، جدول أعماله في تمام الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي. كانت المرة الأولى التي أحضر فيها مؤتمرًا من هذا النوع، وبدت لي الأمور منظّمةً بصورةٍ جيدة. كان ثمة وفدان سوريان في المؤتمر، واحد من "المجلس الوطني" وآخر من هيئة التنسيق، إضافة إلى بعض الناشطين والمستقلين، وكنت من بينهم. كما حضر المؤتمر ممثلون عن دول الجوار؛ تركيا ولبنان وسورية والأردن والعراق ومصر والسعودية وإيران، وبعض الممثلين الأجانب ومندوبين عن المركز الديمقراطي الأمريكي للسلام وغيرهم.

طغت منذ الجلسة الأولى المنافسة الحادة والجدال بين أعضاء وفدي هيئة التنسيق و"المجلس الوطني"، بما لا يخدم قضية السوريين؛ لكن عنجهية ممثلي "المجلس الوطني"، المصاب بالغرور، كانت واضحة في ادّعاء تمثيل الشارع والثورة[183]، مقابل مواقف تقليدية ومكرّرة لهيئة التنسيق؛ لكنّها أنضج سياسيًا، مع أن ذلك لا ينفع كثيرًا في الأوضاع الثورية المتخمة بالعواطف.

شجَّع "الإخوان المسلمين" الشباب، الذين ربما شاركوا في تظاهرة واحدة، على الخروج من سورية، حتى إنهم نسّبوا إلى مكتب الحراك الثوري في "المجلس الوطني" شبابهم الذين ولدوا في الخارج ولم يدخلوا سورية قط! في هذا الصدد، أشار أحد هؤلاء، من ريف دمشق، الذي كان قد خرج من سورية لتوّه، إلى "الطائفة التي تقتلنا"[184]، وردّ عليه مقرر الجلسة طالبًا الاعتذار عن مثل هذا الكلام الطائفي المعمّم. سيدفع هذا المنطق، إضافة إلى عوامل أخرى، باتجاه صراعٍ أهلي تضيع فيه مطالب الحرية والكرامة، والطائفيون جاهزون دومًا لتقديم هذه الهدية الثمينة للنظام الذي يجمعهم معه حلم الاستبداد.

***

---

[183] حدث أيضًا أن تهجم أحد الشباب من المجلس الوطني على الأستاذ حسين العودات باعتباره في صف هيئة التنسيق، وبكلمات تخلو من آداب الحوار، ما اضطرني للجلوس بجانبه ومراقبة حالته الصحية التي لم تكن على ما يرام.

[184] يقصد الطائفة العلوية.

تحوز اللقاءات الجانبية على أهمية قصوى كما في جميع المؤتمرات، إذ تصبح الأحاديث أكثر تلقائية وصراحة[185]. ففي لقاء جمعني بزعيم عشيرة الموالي من منطقة إدلب، حدثني الرجل عن ابنه الذي كان من أوائل الجنود المنشقين في حي جوبر بدمشق، ثم استشهد لاحقًا. قال الشيخ أن عشيرته لن تُسامح النظام على الإطلاق، وأضاف، ربما ليطمئنني: "العلويون أخوتنا وجيراننا ونعيش معهم منذ مئات السنين ولن نتعرّض لهم قط." لم تكن جحافل الإسلاميين التكفيريين قد غزت سورية بعدُ!

وفي حديثٍ جانبي مع إحدى السيدات، وهي ابنة أحد مسؤولي الإخوان المسلمين في "المجلس الوطني"، جرى، بصعوبة، تدوير كثير من الزوايا العقائدية التي تشوّش على العقل. كان نشاط هذه السيدة يتعلق بإيصال المواد الطبية من الخارج إلى بلدات ريف دمشق الثائرة.

كان بعض المعارضين في الخارج يتحدثون أحيانًا عن سورية وكأنهم يتحدثون عن بلدٍ آخر؛ فإما أن يكونوا قد تغيروا خارجها وبقيت سورية كما هي، أو أنّ سورية قد تغيرت في حين تثبّتت مواقف هؤلاء المعارضين في لحظة تاريخية ما، غالبًا عند بداية الثمانينيات. المؤكَّد أنّ سورية لم تكن وطنًا ناجزًا لمواطنيها، ومن ثم كان لكلّ سوريّ سوريته التي تشبهه أو التي يحلم بها أو أنه لا يؤمن بها أصلًا، فكأنّ لسان حال كلّ منّا يقول: "لكم سوريتكم ولي سوريتي!"

***

[185] في استراحة القهوة بين الجلسات، اقتربت مني إحدى موظفات "مركز القدس للدراسات"، وهي فتاة أردنية محجبة، وقالت: "دكتور، احذروا من أن يحكمكم "الإخوان المسلمين"، نحن لنا تجربة قاسية معهم في المجتمع، ومن جهتي أقبل بأي طرف إلا هم."

لم تحلْ كثرة الهموم دون الذهاب إلى شاطئ البحر الميت. عبر الأدراجِ الموصلة إلى الشاطئ، مررت بكثير من أماكن الاسترخاء والعلاج الطبيعي بوحول البحر الميت وصوابينه ومستحضرات أملاحه، ولم يكن ارتيادها من بين خياراتي بالطبع.

تقدَّمت مويجاتٌ صغيرة بهدوء إلى الشاطئ، ثم تكسرت وتخامدت تدريجًا بعد أن غسلت الحجارة التي تراكمت عليها طبقة ثخينة من الأملاح. ولجتُ البحر بمهابة، استلقيت على صفحة الماء، أغمضت عينيّ.. ولم يكن للأحلام الجميلة من نصيب وسط فوضى الأفكار المتزاحمة في رأسي!

اصطحبونا مساء اليوم ذاته، في رحلةٍ ليلية إلى الجبال العالية على الضفّة الشرقية لوادي الأردن، في زيارة لمحمية الغزلان والماعز البرية. جلسنا في استراحة تطلّ على وادي البحر الميت والضفة الغربية لنهر الأردن، تناولنا أصنافًا من الطعام المحلي المشتقّ من حليب الماعز، مع النبيذ أو المياه الغازية بحسب الأذواق والعقائد! بدت أضواءُ مدينة أريحا الفلسطينية على الشاطئ المقابل، وتلألأت أنوار مدينة القدس فوق الهضاب البعيدة، فتذوقت طعم الإحباط أيضًا؛ في بلدي تهبُّ رياح الموت، وعلى الشاطئ المقابل أعداؤنا وأهلنا في تعايش نحسدهم عليه، فهل هي مجرّد مفارقة؟

***

كان الانطباع الذي أتيت به من المؤتمر مؤلمًا؛ من جهة راودتني شكوك جديّة حول دور المعارضة "الخارجية" المتمثّلة بـ "المجلس الوطني"، ومن جهة أخرى لم أجد أنّ هيئة التنسيق، بتآلف أحزابها شبه المنقرضة، تتلاءم والحدث السوري الكبير، مع أن بعض شخصياتها تميزت بمستوى جيد من الأداء السياسي.

في الوقت ذاته، ازدادت قناعتي بأهمية دور الشباب، لكن مَن منهم؟ هل هم هؤلاء الذين ذهبوا إلى الخارج طوعًا أو هربًا من الاعتقال والقتل؟ أو أولئك الذين بقوا في الداخل وصاروا أمام خيارات صعبة، مثل حمل السلاح أو الاعتقال أو الموت؟ في المقلب الآخر، ثمة نظام منغلقٌ على جميع الحلول ومتشبِّثٌ بأوهامه الأبدية حتى النهاية!

علِقت مرّة ثانية على الحدود الأردنية في طريق العودة إلى دمشق، وانتظرت أكثر من ثلاث ساعات للإفراج عن جواز سفري، كضربٍ من انتقام استخبارات دولةٍ عربية أخرى لا تختلف عن سواها في هذا الشرق الغارق في استبداده وأوهامه منذ مئات السنين!

الفصل الثامن

يوميات دمشق

عُينت زوجتي في مدرستين؛ إحداهما في ضاحية قدسيا، والأُخرى في قرية "سوق وادي بردى"، ثم انتقلت من هذه الأُخيرة إلى مدرسة أقرب في بلدة "أشرفية وادي بردى[186]"؛ لصعوبة السفر يوميًا إلى تلك الناحية البعيدة.

عند ذهابها إلى "سوق وادي بردى"، كانت المعلمة تبدِّل سيارة السرفيس أحيانًا في بلدة دير قانون التي شهدت تظاهراتٍ مهمة. ذات مرّة، وفيما كانت تنتظر السرفيس، بدأ بعض الشباب بالتحرش بها تحرشًا "ثوريًا"، إذ مرّ بعض راكبي الدرجات النارية بجانبها تمامًا، وردَّد بعض المراهقين في وجهها شعار: "الله.. سورية.. حرية وبس"؛ لأنها لم تكن ترتدي الحجاب، ومن ثمَّ فقد استنتجوا موالاتها للنظام! كان ذلك من مؤشرات وعي الثورة كثورة "سنة" ضد "علويين" أو "أقليات"، مع ما يستلزمه ذلك من تنميط[187].

---

[186] بخلاف الحالة الممتازة في مدرسة أشرفية وادي بردى، من حيث التعليم والتعامل الراقي من قبل إدارة المدرسة، كانت الأيام الثلاثة التي تدرِّس فيها المعلمة في إحدى مدارس الضاحية كابوسًا حقيقيًا، فالمديرة المؤيدة للنظام بفجاجة، تعامل المدرسات المختلفات بصورةٍ شديدة العدائية، وقد خبرت ذلك بنفسي عندما كنت أوصل ابنتيّ إلى المدرسة أو أعيدهما منها.

خلال هذه الفترة، من خلال علاقة زوجتي بزميلاتها في المدرسة، تعرفنا إلى بعض الأصدقاء في الوادي وربطتنا بهم أطيب العلاقات.

[187] ستكمل القوى الإسلامية الجهادية هذا التنميط بفرض الحجاب في أماكن سيطرتها، إضافة إلى أزياء أخرى مثل النقاب واللباس الأفغاني وإطلاق اللحى، وستصل هذه الممارسات إلى أوج لا عقلانيتها واستبداديتها في ممارسات تنظيم داعش.

عادت المعلمة إلى البيت وهي في حالة من الاضطراب والخوف، بكت بحرقة وعبّرت عن مشاعرها بهذه الكلمات: "تمنيت لو أردِّد معهم هذا الشعار[188]؛ لكنّ الخوف منعني، قارنت بين هذا الموقف وموقف آخر تعرضت له في اللاذقية، حين كان جيراننا من المراهقين الموالين للنظام يوجهون سباباتهم إلى وجهي في الطريق ويهتفون: "الله.. سورية.. بشار وبس!"

هذه المفارقة سيعيشها كثير من الناشطين غير الإسلاميين، وصولًا إلى تحييد معظم الشعب السوري عن المشاركة في التعبير عن رأيه ووقوعه بين حجري رحى الحرب العدمية.

خلال لقاءٍ في منزل صديقي مع بعض السفراء الأجانب، منهم السفيران الأمريكي والفرنسي، روت زوجتي بالإنكليزية هذه القصة والمفارقة التي عاشتها، سواء في اللاذقية أو في "دير قانون." علّقت بدوري على الأمر، معتبرًا أن ثمة خطرًا متزايدًا بتحوُّل الثورة إلى حرب أهلية إن لم يُبذل جهد كبير من المعارضة للتصدي لعملية الشحن الطائفي المعزَّز من الخارج. تكفّل السفير الأمريكي "روبرت فورد"، الذي يعرف العربية جيدًا، وبكل تواضع، بترجمة رأيي هذا وغيره إلى بقية السفراء الأوربيين[189].

***

[188] "الله.. سورية.. حرية وبس"؛ من الشعارات الرئيسة التي رددها المنتفضون، وقد قلّده أنصار النظام وشخصنوه إلى شعار: "الله.. سورية.. بشار وبس!"

[189] كانت زيارة السفراء في هذه المرة للتضامن مع صديقي الذي أصيب بكسر في ساعده نتيجة تعرضه للضرب بالعصي مع مجموعة من الشباب في أثناء مشاركتهم في تظاهرة بحي الميدان بتاريخ 7/10/ 2011.

كان أول لقاء لي بسفير أجنبي مع السفير الفرنسي "أريك شوفالييه"[190] في مكتب صديقي وسط دمشق، وذلك في منتصف شهر تموز/ يوليو 2011، حيث قدّمني الصديق للسفير الفرنسي بصورة لطيفة وقدّرني بما أتمنى أن أستحقَّه. كنّا عدة أشخاص من المعارضة، وعلى هامش اللقاء، طلب السفير الفرنسي تفاصيل عمّا حدث في جسر الشغور[191]. واضح أنه أراد اختبار نيات بعض المعارضين حول استعمال السلاح في ذلك الوقت المبكر خارج إطار الدفاع عن النفس. لم يكن لدى أي منّا رواية دقيقة لما حدث، لكنّ أحد المعارضين انبرى لتقديم رواية بوليسية تبيَّن أن لا علاقة لها بالواقع، فشعرت بالإرباك العميق. شكّك السفير شوفالييه أيضًا بما سمعه من ذاك المعارض، وبدا عليه الامتعاض.

حضر السفراء والعاملون في السفارات للقائنا في بيت صديقي بصورة دورية، وحظي السفير الفرنسي بمرافقة لصيقة ومتنبِّهة بعد تعرضه للتهديدات. غالبًا ما كانت معلومات السفيرين الفرنسي والأمريكي دقيقةً لاعتمادهما على مصادر معلوماتية متنوعة.

كان ثمةّ كثير ممّا يقلقني في مثل هذه الاجتماعات، بعضها أمور شخصية وأخرى عامة. لعلّ الأمر الشخصي الأهم هو ضعف لغتي الإنكليزية التي تعلمتها على كِبَر، فيما يتعلق بالمحادثة خاصَّة، على الرغم من فهمي لهذه اللغة بصورة مقبولة ومعرفتي الجيدة بها قراءةً. كانت كلمات من اللغتين الفرنسية والروسية تحشر نفسها بلا استئذان بين مفردات اللغة الإنكليزية، فيضيع المعنى ويضيع معه المستمعون! ولم ألبث أن توقَّفت عن محاولة التحدُّث بالإنكليزية، وصرت أعتمد على زوجتي الجريئة أحيانًا لتنقذني في الأوقات الصعبة.

---

[190] بدا السفير الفرنسي على شبه كبير برئيسه ساركوزي، ولا أعرف إن كان ذلك مجرد مصادفة أو أنه قريبه بالفعل.

[191] حصلت اشتباكات عنيفة ومفاجئة من حيث الحجم بعد عدة أيام من الاشتباكات المحدودة على هامش التظاهرات التي حدثت في مدينة جسر الشغور، أواسط شهر حزيران/ يونيو 2011، حيث قتل فيها أكثر من مئة جندي وشرطي وعنصر أمن من القوات الحكومية. طرح ذلك أسئلة جدية حول سلمية التظاهرات، وكان السفراء الأجانب متلهفين لمعرفة ما إن كان ذلك تحولًا نحو العسكرة أم لا، باعتباره يتناقض مع ما تعلنه أوساط الثورة، التي كانت تصر على السلمية في تلك المرحلة.

أما الأمور العامة، وهنا بيت القصيد، فقد اشتملت على بعض الملاحظات المؤلمة؛ منها عدم وجود رؤية واضحة لسورية المقبلة، والتركيز على مسألة سقوط النظام بدعم دولي متخيَّل أكثر ممّا هو واقعي، وإصرار بعض المعارضين على دورهم المركزي في المعارضة والتبجُّح بتأييد الشارع لهم، واستفاضتهم بالحديث عن أطراف المعارضة الأخرى لجهة إقصائهم ونشر غسيلهم، كما اعتاد المعارضون السوريون على تعامل بعضهم مع بعض!

من الأمور المؤلمة أيضًا التعريف بنا من خلال انتماءاتنا الطائفية كأقليات، كمن يريد القول: "نحن الثورة وهؤلاء "الأحرار" معنا أيضًا، فتغيب سوريتنا وتحضر "طوائفنا"! آنئذٍ، كان ينتابني إحساس بفقداني لبعدي الوطني وتقهقري إلى "ابن أقليةٍ" لم أؤمن يومًا بالانتماء إليها إلاّ فيما يتعلق بتأثُّري بثقافتها إلى هذه الدرجة أو تلك، وبحكم المولد والنشأة. أما من حيث الخيار السياسي فإنّ كثيرًا من مثقفي الأقليات هم علمانيون وليبراليون، وربما إنسانيون وكونيون، ظاهريًا على الأقل، مع أنّ الشحن المذهبي والقتل على الهوية من قبل التكفيريين لاحقًا، دفع بعضهم إلى الانكفاء والاحتماء بالبنى القبْلية!

كان صديقي متماهيًا مع سياسات المجلس الوطني، ولم يكن بمقدوره توسيع زاوية رؤياه، في وقتٍ كنّا فيه بحاجة ماسّة إلى التفكير بحرية وتجاوز الأطر السياسية التي شكلت أصلًا كحاجة أكثر منها كحقيقة سياسية تحوز على صدقية التمثيل والشرعية. في اللقاءات مع السفراء الأجانب، كان صديقي يطنب في مديح المجلس، ويقلّل من أهمية باقي المعارضين، آخذًا من الوقت أكثره، ومتوهِّمًا أن مستمعيه سيحرِّكون بوارجهم الحربية لنصرة أعضاء المجلس ووضعهم على كراسي الحكم، كطغاةٍ صغار!

***

لفت انتباهي من الناحية الشخصية السلوك المتأدب لهؤلاء السفراء والسفيرات، بما في ذلك عدم تدخينهم في أثناء الاجتماعات. عرفت ذلك من ملاحظة أنّ المدخنين منهم كانوا يشرعون بإشعال سجائرهم فور الخروج من الباب. كما لاحظت اقتصادهم في الطعام والضيافة، ومن بين العشرات الذين التقيتهم، واحد فقط كان لديه وزنٌ زائد من الناحية الطبية؛ وهو السفير السويدي.

نفث المعارضون مقابل ذلك، دخان سجائرهم من دون مراعاة لضرورة عدم التدخين في الأماكن المغلقة[192]! الطريف أنّ سلوك السفير التركي كان في "منزلةٍ بين المنزلتين"، ما عكس وضع بلده أيضًا الطامح للاقتراب من أوروبا من دون أن يبلغها. على سبيل المثال، كان هذا السفير يتظاهر بالصوم في شهر رمضان بوجود إسلاميين، ويفعل خلاف ذلك بوجود غيرهم!

لم يكن السفير الفرنسي دبلوماسيًا دومًا، حين يستفزّه أحدهم بمعلومات غير دقيقة خاصَّة، فيبلغ حدّ النَّزق، ولا يمرِّر ما يعتقد أنه غير ملائم من كلام. وهكذا، حين قال صديقي: إنّ الشبيحة العلويين (باستخدام أداة التعريف The Alawite Shabiha) فعلوا كذا وكذا، قاطعه السفير، وهو يحرك يديه بعصبية، مشيرًا إلى زوجتي وإليّ قائلًا: "يوجد شبيحة علويون، نعم؛ ولكن يوجد كثير من العلويين الحضاريين، ومن ذوي التعليم العالي أيضًا!"

---

(192) قلت لهؤلاء مرة ساخرًا: إن بشار الأسد أكثر حضارية منكم من هذه الناحية على الأقل؛ لأنه أصدر مرسوماً بمنع التدخين في الأماكن العامة المغلقة.. وعمّ الصمت!

تمتّع السفير الأمريكي "روبرت فورد" بدرجة عالية من الهدوء والتعقُّل بخلاف شخصية السفير الفرنسي التي تتّصف ببعض الحديّة، وعبّر بشفافية عن سياسة أميركا الحذرة في عهد الرئيس أوباما. كما كان محقًا فيما أورده عن المعارضة السورية المسلحة وممثليها، وذلك سواء في تقريره إلى الكونغرس أو في تصريحه لمجلة فورين بوليسي الأميركية[193]، وأشهد على وقائع كثيرة تحدّث عنها السفير بصدق. ولم يكن ردّ الأستاذ برهان غليون عليه موفّقًا [194]، فتجاهل موضوع المعارضة حين وضع اللّوم على سياسة الولايات المتحدة في سورية، التي انتقدها فورد نفسه أيضًا بعد اعتزاله منصبَه في 2014/6/5.

احتاج السفراء الأجانب إلى معلومات حول علاقة المعارضة بالحراك، وهل ثمة تمثيل بالفعل أو ادعاءات؟ وما هي مؤشرات تصاعد العنف.. الخ؟ بمعنى آخر، كان العالم يتخوّف من حرب أهلية وتداعيات غير محسوبة لسقوط النظام قبل أن تتبلور بدائل مقنعة، فيزداد سعير الصراع الأهلي، وربما يتجاوز الصراع سورية ذاتها إلى دول الجوار. مثَّل ذلك جانبًا من المسألة على الأقل، ولا يمكن استبعاد الأهداف والمصالح الأخرى، بما فيها القطبة الإسرائيلية المخفية. في هذا الإطار، شعرت أحيانًا، وبمرارة، أنّ بعض الأطراف الأجنبية خدمت القضية السورية أكثر من بعض المعارضين، وقلت مرّةً: إنّ السفراء الأجانب كانوا، في بعض الأحيان، "وطنيين سوريين" أكثر من بعض المعارضين السوريين!

---

[193] تحدث السفير الأمريكي فورد لصحيفة فورين بوليسي الأميركية عن ممارسات وحشية ارتكبتها المعارضة المسلحة السورية وضرورة التعاون مع الجيش النظامي لحماية المدنيين ومقاطعة جبهة النصرة وعدم السعي لتدمير الأقليات المكونة للمجتمع السوري، كما انتقد سياسة بلاده واعترف بفشل سياساتها فيما يتعلق بالوضع في سورية.

www.al-akhbar.com/node/228022

[194] تمثل رد رئيس "المجلس الوطني" السابق برهان غليون من خلال إطلاق مجموعة من الجمل الإنشائية، واعتبار أميركا هي المسؤولة عن بقاء النظام، وأنها لم تساعد الثورة والثوار. لم ينبث غليون بكلمة واحدة عن تستر أمثاله من المعارضين على جحافل المجاهدين والإرهابيين القادمين من الخارج، طالما أنهم يحاربون النظام، ويريدون "نصرة" الثورة، فهل نصروها؟ نُشرت مقتطفات من ردّه على السفير فورد في صفحته على موقع الفيسبوك:

https://www.facebook.com/BurhanGhalion/posts/718446674874398?stream_ref=10

بعد خلافي الحاد في الرأي مع صديقي حول "المجلس الوطني"، ولأنني كنت على اطلاع دائم على رسائل المجلس الداخلية[195] وما يحدث في مكتبه التنفيذي من علاقات أشبه بالتآمر بين أشخاص لا يمتلكون أي صفة تمثيلية حتى داخل المجلس نفسه، صار يتجنّب إعلامي بمواعيد اللقاءات مع السفراء، مثلما صرت أتجنّب لقاءهم حتى لو ألحّ بطلبي بعضهم؛ لئلا أُحرج صديقي في منزله، حيث كانت تجري معظم اللقاءات.

على الهامش وفي الصميم

فيما كنت أجلس مع ابنتي على أرض الغرفة، مثلما اعتدنا الجلوس في بيتنا على الدوام، رأيتها تعضّ على طرف قلم الرصاص بعصبية، وهي تقرأ في كتاب الديانة للصف الثالث الابتدائي. حين استفسرت عن سبب قلقها، سألتني إن كنّا نحتاج إلى الله في جميع الأوقات أو أحيانًا فحسب، وهو السؤال المطروح في الدرس. قلت: إنّ عليها الإجابة كما تعتقد، فارتاحت ملامحها ووضعت إشارة صح بجانب خيار "أحيانًا".

في اليوم التالي، عادت الطفلة باكيةً. لم تعتبر المعلمة الجواب خاطئًا فحسب؛ بل أنّبتها على اختيارها لهذه الإجابة! نظرت الطفلة إليّ وكأنها تستنجد بي للخروج من هذا المأزق. قلت لها: "تمسكي برأيكِ طالما تعتقدين بصحته، وقد تتغير قناعتكِ يومًا ما."

لماذا خافت الطفلة من الجواب؟ وهل الأمر يتعلق بنقص معرفة أم بتلقينها؟ إنها، برأيي، اللحظة التي تبدأ فيها قولبة التفكير وإلغاء العقل، وقس على ذلك. في هذه الحالة كان المنهاج الدراسي متفوّقًا على عقل المدرِّس، الذي تقولب تفكيره في مسيرة تحجيم العقل وتقزيم الإيمان.

---

[195] للأسف الشديد كنت قد ألغيت اشتراكي في هذه الرسائل، إضافة إلى حذف كمّ كبير من الوثائق أيضًا من الحاسوب الخاص بي بسبب الخوف من المداهمات الأمنية المفاجئة، ولم يكن في حسباني أني قد أكتب عن هذه الأشياء، وضاعت معلومات لا تقدر بثمن!

ومن جهة ثانية، كانت حناجر الأطفال تردِّد في باحات المدارس أهداف حزب البعث الثلاثة؛ وحدة حرية اشتراكية، كصرخات بلا صدى، وفي انفصام تام عن الواقع؛ وطنٌ في الشعارات والملصقات والصور، وعلى الأرض تتصارع الانتماءات، وينزح الناس من مكان إلى آخر باحثين عن الأمان!

***

في تلك الأثناء، اتصل أحد عناصر الأمن السياسي ليسألني أين أسكن، ويأخذ بعض المعلومات الشخصية التي كررتها لهم عشرات المرات في حياتي؛ عن مدارسي وشهاداتي والأحزاب والجمعيات التي أنتمي إليها.. الخ! كنت على يقين بأنّ سكني في منزل صديقي لن يمرّ عليهم ببساطة، وقد احتطت للأمر بإجراء عقد اكتراء نظامي.

الفصل التاسع

طائفية وطوائف

خصوصية الحالة السورية

لا غرابة في أن يطالب السوريون باسترداد كرامتهم المفقودة، بمعنى التحرُّر من الخوف وتحكُّم الأجهزة الأمنية، إلى جانب الحصول على حرية التعبير، أو باختصار: التخلص من الاستبداد، بعد ذلك فليختلفوا في مطالبهم وأنماط حيواتهم. لم يبدأ الأمر في سورية كحرب أهلية، ومسؤولية الوصول إلى هذه المرحلة يتحملها النظام في المرحلة الأولى، ثم التكفيريون المسلحون وداعموهم في المرحلة الثانية. كما لا يمكن مقارنة ما يحدث في سورية بالحرب الأهلية اللبنانية التي قامت من أجل الحدّ من امتيازاتٍ طائفية مثبّتة بالدستور[196].

عمل النظام، على نحوٍ خاص، على تخويف الطائفة العلوية لتحتمي به، وحتى يضمن لنفسه الاحتماء بها عند الضرورة. اقتضى ذلك محاولة عزل الطائفة وطمس شخصيتها ليتحول إلى ممثلها الوحيد بغياب كل من يعبر عنها اجتماعيًا، وحتى روحيًا.

ليس للعلويين امتيازات كطائفة؛ بل تحددت امتيازات بعضهم بمقدار مشاركتهم في السلطة، كذراعٍ أمنيةٍ للنظام اقتضتها طبيعة انتماء قمة هرم السلطة إلى هذه الطائفة. ولم يكن ذلك منفصلًا تمامًا عن وعي العامة منهم بدور وطني يقومون به، متأثرين بالدعاية الديماغوجية للسلطة فيما يتعلق بعلاقتها التصادمية مع الخارج المعادي أو المُستعدى لتكريس مزاعمها الوطنية. ولأنّ معظم العلويين لا يمتلكون غير أراضيهم الفقيرة التي لم تعد تكفي لإعالتهم في أدنى حدود المعيشة، فقد وقعوا في الفخّ، ووُضعوا في الواجهة ليمارسوا دورهم كإحدى ركائز النظام المتعددة في المجتمع السوري. منذئذٍ، أي منذ أن اختارهم النظام ليكونوا أهم أسوار حمايته،

---

[196] تكرّست هيمنة الطائفة المارونية على بقية الطوائف في إطار محاصصة طائفية قام على أساسها لبنان منذ استقلاله عام 1943.

تراجعت تنمية الأرياف التي يقطنونها والتي لم يبقَ فيها سوى القلائل الذين تابعوا صيرورة تطورهم الطبيعية والبطيئة، ولم يتشوهوا بمفاسد السلطة؛ بسبب استقلالهم الاقتصادي النسبي عن "نعمها" القاتلة.

عمل النظام في الوقت ذاته، ممثلًا بنخبته المسيطرة، على التحالف مع برجوازية المدن الرئيسة في سورية، ليتحول الاقتصاد السوري لاحقًا إلى اقتصادٍ طفيلي هجين يعكس تحالف السلطة والمال بقوّة. كما ورث النظام أيضًا الغنيمة الثمينة لجميع السلطات الدنيوية منذ العهد الأموي؛ التحالف مع الفاعليات الدينية الاجتماعية للأغلبية السنية، فيما قضى على أي استقلال ديني واجتماعي للعلويين، لدرجة أنه استبدل مشايخهم التقليديين أيضًا بمشايخ مصنَّعين على المقاس بعد تقاعدهم من الأجهزة الأمنية، أو من المتشيعين الذين التحقوا بدوراتٍ دينية في بلدة "السيدة زينب" على غرار الدورات العسكرية الذين عادوا إلى قراهم لنشر المذهب الشيعي، ففشلوا، ومن ثم تعلْوَنوا من جديد!

***

لم يمضِ وقت طويل على اندلاع الاحتجاجات، حتى افترق الذين خرجوا تحت شعارات الكرامة والحرية. منهم مَن فهمها سياسيًا بصورة صحيحة، بمعنى دولة الديمقراطية والمواطنة، ومن أخذته حمية الجهاد مدفوعًا بإرادة قتال عقائدية مضمونة التمويل[197] من دول بعينها، مثل قطر والسعودية وتركيا حزب العدالة والتنمية[198] وغيرها، ما أفضى إلى الابتعاد عن أهداف الثورة والعمل على إقامة "دولة الخلافة" وغيرها من الأوهام المضادة لحركة التاريخ، وكان التجييش الطائفي لكثير من الفقراء والمهمّشين هو الطريق الأقصر الذي قد يوصل هذه الحركات إلى السلطة بقوة السلاح.

جيَّش النظام من جهته أتباعه تحت راية الخوف من الخطر الإسلامي، الذي أيقظ بالفعل مخاوف كثيرين، من الأقليات خاصَّة، والطائفة العلوية في مقدمة هذه الأقليات بالطبع؛ لأنها لا تمتلك أي خيار سوى مقاومة الحملة الطائفية الهوجاء من خلال الاحتماء بالنظام الذي ترتبط به عضويًا، في المجال الأمني- العسكري خاصَّة. في الواقع، لا شيء يوحِّد العلويين مثل ذكريات الاضطهاد الديني على يد السلطات التي حكمت باسم السنة، وآخرهم العثمانيون.

---

[197] كانت الأوساط الدينية في الخليج، الوهابية منها على نحوٍ خاص، مصدرًا لا ينضب لدعم التطرُّف الديني، منذ ظهور منظمة القاعدة في أفغانستان خاصَّة، بدعم استخباراتي أميركي موجَّه ضد الوجود السوفييتي في هذا البلد، إضافة إلى الدعم الحكومي الخليجي، من مشيخة قطر خاصَّة، المتورمة ماليًا بفضل تصدير النفط والغاز، وإعلاميًا بفضل قناة الجزيرة، الراعية المحترفة للإرهاب والأسلمة.

[198] دعمت تركيا بقيادة حزب العدالة والتنمية القوى الإسلامية الأقرب إلى "الإخوان المسلمين"؛ سرًا عن طريق الجمعيات الخيرية الإسلامية، وعلانيةً من قبل حكومة حزب العدالة والتنمية الحاكم. وكانت قد فشلت عدة وساطات تركية بين النظام السوري والإخوان بهدف مشاركتهم الحكم.

http://gate.ahram.org.eg/News/591162.aspx

ما إن تظهر المخاوف الطائفية حتى تستيقظ أبالسة التاريخ كلها، فيتضخّم الشعور بالمظلومية، وتُستعاد الذكريات التاريخية؛ الحقيقية منها والمتوهَّمة. لكن، من جهة أخرى، كان التعايش قد حصل بين السوريين إلى حدّ معقول من جرَّاء هجرة أبناء الأرياف إلى المدن منذ الانتداب الفرنسي والمرحلة الوطنية قصيرة الأجل (1946-1958)، إلى أن حجب الاستبداد "القومي" جميع التناقضات، أو أعاد إنتاجها لصالح ديمومته.

اعتمد النظام على أغلبية علوية في أجهزته الأمنية بعد أن جرّد الطائفة من معظم ركائزها الاجتماعية كما أسلفنا، فتحوّل كثير من أبنائها إلى جنود يرتزقون منه ويشدّون أزره. وفي بلدٍ جميع مؤسساته مزيّفةً أو مسيطر عليها من قبل الأجهزة الأمنية، ارتبطت "العلوية" بذهن العامة بدكتاتورية النظام، من دون أن نغفل وجود المواقف الطائفية المسبقة والمتعالية عند بعض الأوساط الدينية للأغلبية السنية، وأخطرها تكفير العلويين وغيرهم استنادًا إلى فتاوى سابقة، لعلّ فتوى ابن تيمية أشهرها وأخطرها [199].

يجب ألا ننسى في هذا السياق الصامتين من أبناء الطائفة الذين لم يكن بوسعهم سوى الانتظار، على أمل أن تنتهي الحوادث بأقل الخسائر، ملتقطين، الإشارات السيئة من الجهة الأخرى فحسب، حيث لم يتوانَ بعضهم عن إطلاق التصريحات ذات الطابع الطائفي العنصري ضدّهم، ما جعلهم يغرقون في صمتهم ويأسهم أكثر.

أما موقف "ناشطي الطائفة ومثقفيها" فلم يحسدوا عليه في أي وقت؛ لأنّهم فقدوا حاضنهم الاجتماعي المحدود أصلًا، وتهجّروا من أماكن سكنهم، أو اضطروا إلى الصمت، أملًا بالنجاة من الإزعاجات والتهديدات.

---

[199] الشيخ ابن تيمية (661- 728هـ)؛ يميل إلى التفسير الحرفي للنصوص ويعتبر الأب الروحي لـ "السلفية"، اشتهر بفتواه التكفيرية ضد الفرق الباطنية ومنها النصيرية. من أهم تلامذته الشيخ ابن القيم الجوزية.

http://www.almeshkat.net/index.php?pg=qa&cat=29&ref=1714

وكم كان الأمر مخادعًا عند وصف معظم المثقفين المعارضين المنحدرين من البيئات الاجتماعية العلوية بأنّهم "علويون"! فهم لم يعارضوا النظام يومًا إلاّ على أساس وطني، وموقف معظمهم بريء من كل طائفية يريد الآخرون، الطائفيون، أن يلصقوها بهم لطمس انتماءهم الوطني، والنظر إليهم من خلال المرآة الطائفية. كان ذلك ضربًا من الإقصاء المتعمَّد بحجّة عدم تأييدهم لـ "الثورة" التي لم تعد ثورة بالنسبة إلى الثوار المتأسلمين الطائفيين إلاّ بمقدار ما تُسقط النظام وتحملهم إلى سدة الحكم ليمارسوا استبدادهم الأمرّ والأدهى!

من جهة ثانية، بدأ الموالون المرتبطون بالمصلحة مع النظام باستيعاب الصدمة على جرعات والاقتناع بأنّ دوام الحال من المحال، فسورية ستتغير مهما كان الثمن وممارساتهم الفاشية لن تنفع. وفي الوقت ذاته، وضع البديل المعبَّر عنه على الأرض، والمتمثل بتزايد نفوذ التنظيمات الجهادية التي وضعت لنفسها هدفًا معلنًا هو إقامة الخلافة الإسلامية، وضع كثير من السوريين في صفّ النظام أو على الحياد، بحكم الضرورة لا القناعة؛ ولأنّ مفهوم الدولة الحديثة كان شبه غائب عن أهداف معظم التنظيمات المقاتلة التي لا تخضع عمليًا لأي مرجعية سياسية، باستثناء مرجعيات التمويل.

أدّت هذه التطورات كلها إلى تحييد أغلب العلويين المعارضين للنظام تاريخيًا أيضًا، ومعهم كل من لا يرتبط بالنظام بدافع المصلحة، فشعر دعاة الطائفية عندئذٍ بأنّ نظريتهم الطائفية صحيحة، وهتفوا بشماتة: "أرأيتم؟ إن الطائفة العلوية كلها مع النظام، باستثناء قلّة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة!" وما لبثت الاصطفافات الطائفية أن ضيّقت الحصار على العلمانيين جميعهم، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية والقومية".

يأخذ الخوف من الآخر، السنّي تحديدًا [200]، عند العلويين شكل رُهاب مرضي أحيانًا، ولأسباب تاريخية ليس هنا المكان الملائم للخوض فيها، وجاء الإسلاميون

[200] معظم ذكريات الاضطهاد تعود إلى الفترة العثمانية، وما كان يتعرض له العلويون في المدن من إهانات، كريفيين أولًا، بهذا يشتركون مع أبناء الريف بغض النظر عن معتقداتهم، وكعلويين ثانيًا.

ليوقظوا ذلك الخوف ويفتحوا دفتر فتاوى ابن تيمية من جديد. وشيئًا فشيئًا، صار العلويون يشعرون وكأنهم يدافعون عن وجودهم، وانكفؤوا إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام، لكنّ ذلك لم يؤثر على تقبّلهم لمئات آلاف النازحين السُنَّة الذين شاركوهم الحياة في المناطق الساحلية.

وباستثناء القليل من الموتورين الطائفيين، لم يكن المستوى الشعبي العلوي طائفيًا، وامتاز دومًا بقدرة كبيرة على التعايش والاستيعاب(201)، لكنَّ كثيرين منهم خلطوا بين النظام والدولة، فاعتقدوا أنهم يدافعون عن الدولة السورية التي تمسَّك النظامُ بتلابيبها. كان ذلك الاعتقاد خاطئًا بوصفه خلطًا بين السلطة المستبدة والدولة؛ لكنه كان صحيحًا في جانبه الذي يدافع عن الدولة بوصفها مؤسسات يجب الحفاظ عليها، ولذلك لم يكن هؤلاء يمانعون أن يذهب أبناؤهم ليقاتلوا في أماكن بعيدةٍ في سورية، ومعظمهم لم يعودوا إلاَّ قتلى أو جرحى.

(201) ثقافة العلويين الدينية ثقافة مغلقة لا يعنيها التبشير والدعوى، وليس فيها تكفير للآخر الذي تتعامل معه كشريك إنساني، لكن مع بعض الحذر من الآخر "السني" تحديدًا لأسباب تاريخية، سياسية دينية، من دون أن يؤثر ذلك على اختلاطهم مع البيئة السنية العادية- غير التكفيرية. على حد علمي، لم يظهر التكفير بصورة ممنهجة في الوسط العلوي إلا بوحي من السلطة، وقد استخدمته كسلاح ضد من يعارضها سياسيًا من "العلويين" بغية عزلهم اجتماعيًا.

يتميز "المجتمع العلوي" بدرجة كبيرة من التسامح الديني، وللفرد أن يختار التعاطي مع التقاليد الدينية العرفانية[202] والصوفية[203] أو يعيش بعيدًا عنها، فلا مرجعية تفرض عليه أمرًا لا يريده، وهذا ما يفسر النسبة الكبيرة من العلمانيين في صفوفهم، واعتبار كثير منهم أنّ "أسرارهم الباطنية" ليست إلا ضربًا من الفولكلور الشعبي. من تجربتي الخاصة، كمعارض للنظام، أعترف بأنني لم أتعرض إلى أي إساءة في منطقتي من الموالين العاديين للنظام، فقد فهم هؤلاء مواقفي كخلافٍ في الرأي، ولم يكن مثل هذا التقبُّل يسرُّ النظام وعملاءه بالطبع، فكان لهم رأيٌ آخر!

لم يؤذِ العلويين في تاريخهم الحديث أكثر مما فعله ارتباطُهم بالنظام؛ إنها اللعنة التي منعتهم من التطور والتمدن بصورة طبيعية، فيما يتعلق بالتخلص مما علق بممارساتهم من آثار عصور الانحطاط خاصَّة، واستغلال مشايخهم وزعاماتهم العشائرية لعامَّتهم، وزوال أي مسوغ لاستمرار تقيّتهم في عصر الانفتاح والتواصل وانتقال المعلومات على مستوى العالم أجمع.

---

[202] العرفانية هي حقل من حقول المعرفة التي تحاول تقديم رؤية كونية تتضمن تفسيرًا للقضايا الأساسية في الوجود وعلاقة الإنسان بالكون.

[203] يعتقد بعض الباحثين والمؤرخين المختصين بعلوم الديانات القديمة بأن التصوف يعود إلى الكلمة اليونانية (سوفيا)، ومعناها الحكمة، وأول من عرف بهذا الرأي البيروني. وثمة اعتقادات كثيرة بأنها تعود إلى الصوف أو الصفة أو الصف أو الصفاء. أركان الدين في التصوف هي الإسلام والإيمان والإحسان. الصوفيون لا يكتفون بأن يوضحوا للناس أحكام الشرع وآدابه بالكلام النظري؛ بل يأخذون بيد تلميذهم ويسيرون به في مدارج الترقي، ويرافقونه في جميع مراحل سيره إلى الله، يحيطونه برعايتهم وعنايتهم، ويوجهونه بحالهم وقولهم، يذكرونه إذا نسي، ويقوّمونه إذا انحرف، ويتفقدونه إذا غاب، وينشطونه إذا فتر.

كثيرًا ما تساءل أمامي بعض الناس الذين قُتل أبناؤهم في الحرب أو أولئك الذين هُجِّروا بسبب التحريض الطائفي، إن كان الآخرون- السُنة- سيتقبلونهم كلاجئين لو كان الأمر معكوسًا واضطروا إلى الهجرة إلى المناطق ذات الأغلبية "السنية" طلبًا للأمان؟ لم يكن لديّ من شكّ في أنّ السوريين، الذين احتضنوا جميع من تعرض للاضطهاد في مراحل تاريخية مختلفة وحتى عهدٍ قريب، لم يكونوا ليضنُّوا أبدًا بحماية مواطنيهم من العلويين واحتضانهم، إذ لا يمكن الحكم على سورية والسوريين من دون أخذ الأوضاع الرهيبة التي وجدوا أنفسهم فيها بالاعتبار: القمع والقتل والتطرُّف، وخليطها الوحشي المتفلِّت من جميع القيم!

الفصل العاشر

محطات 2012- 2014

بين خياري الحرب الأهلية والتفاوض

مَن استطاع استخدام عقله في أتون سورية المضطرب في أوائل عام 2012 أو النظر إلى المشهد من على مسافة، وصل إلى قناعةٍ مفادها أن الصراع قد اتخذ مسارًا آخر؛ ليس ثورة لتنتصر/ ستنتصر، وليس عودة للماضي لتحصل/ ستحصل، كان ثمة احتمالان انطلاقًا من وجهة النظر هذه:

الاحتمال الأول هو الحرب "الأهلية" بين قوى النظام وحلفائه من جهة، والمسلحين الذين ينضوون تحت مسمى فضفاض هو"الجيش الحر" وطلائع الجهاديين من جهة أخرى، وذلك بعد أن وصل التسلُّح إلى درجة فرضت نفسها في الأماكن الساخنة التي أصبحت خارج سيطرة النظام عمليًا، إلاّ فيما يتعلق بمقدرته على القصف الجوي والمدفعي.

شكَّل "الجيش الحرّ" من العناصر المنشقّة عن الجيش، ولم تلبث أن انضوت تحت جناحه مجموعات من المسلحين المدنيين، معظمهم من ذوي الاتجاهات الإسلامية الشعبية. تلاقت هذه المجموعات واتحدت، تقاتلت وتنافست، تبعًا لمصالح الممولين الذين ليست أهداف "الثورة" على جدول اهتماماتهم، بعد أن عجزت الدول التي انطلق منها التمويل والدعم عن إقناع النظام بأخذ جانب اللّين في التعامل مع الاحتجاجات الشعبية خاصَّة[204].

---

[204] بهذا الصدد، يمكن العودة إلى زيارات وزير الخارجية التركي ونظيره القطري إلى دمشق في الأشهر الأولى خاصَّة؛ للحيلولة دون وصول الأمور إلى طريق مسدودة، ومن ثم عملت هاتان الدولتان، على نحو خاص، على دعم المعارضة المسلحة ورعايتها. ومن المعروف بأنه كان لهاتين الدولتين مصالح اقتصادية كبيرة مع النظام؛ أكثر من 50 اتفاقية اقتصادية مع تركيا، واستثمارات لشركة الديار القطرية في اللاذقية ودمشق بحوالي 6 مليارات دولار.

الاحتمال الثاني هو التفاوض، وذلك لاقتناع الأطراف الدولية الفاعلة بأن الحلّ السياسي هو الحل الوحيد[205]. ماطل طرفا "الأزمة" السورية آملين بحسم المعركة على الأرض، تقاسما الانتصارات والهزائم على حساب السوريين الغارقين بدمائهم والنازحين من مكانٍ إلى آخر. وتمثّلت العقبة الكأداء في عدم وجود توافق أميركي روسي يسمح باستصدار قرار من مجلس الأمن بهدف وضع معالم خارطة طريق لمرحلة انتقالية[206].

---

[205] تكرّست هذه القناعة في مؤتمر جنيف 1 صيف 2012.

[206] ستقوم المعارضة لاحقًا بالتفاوض مع روسيا؛ ولكن بعد فوات الأوان، كما كان يحدث دومًا في سورية، سواء بالنسبة إلى تأخُّر النظام أو المعارضة فيما يتعلق بفهم ومتابعة الوقائع السياسية والاستجابة لها في الوقت الملائم! عاد الروس لإحياء جهدهم لحل المشكلة في نهاية عام 2014 من خلال عقد لقاءات تشاورية لم تتمخّض عن شيء يذكر، إلى أن تدخلوا عسكريًا بصورة مباشرة في خريف 2015 وفرضوا أنفسهم كلاعب قوي على الأرض؛ لينقذوا النظام وما تبقى من مؤسسات في سورية، ويضمنوا حصتهم من الكعكة السورية المخضّبة بالدم.

5 آذار/ مارس 2012

فيما كنّا نمارس رياضة المشي صباحًا في ضاحية قدسيا، سألت صديقي:

- هل تُرشّح شخصًا ما من المعارضة في الوقت الحالي لأداء دور قيادي؟

بعد لحظات من التفكير، كمن يريد تمرير فكرة يصعب الاقتناع بها، أجاب صديقي:

- ثمة أحدهم، رجل أعمال يتبرّع للثورة ويدعمها.

- أيمكنك تسميته؟

- .....، وهو ابن أختي[207].

لم يكن "الوريث" المقترح معروفًا خارج الوسط التجاري الدمشقي، ولا يتمتع بأيّ كاريزما من هذا النوع، فضلًا عن عدم مروره بمطلق تجربة سياسية أو وجود ما يوحي بموهبة في هذا الاتجاه. يومئذٍ، أدركت حجم الخراب الذي نعيشه، وضحالة تفكير بعض الأسماء الكبيرة في المعارضة التقليدية. فبعد مضيّ نحو عامٍ على انتفاضة شعبية محقّة للتخلّص من نير الاستبداد، لم يستوعب بعضهم نسبةَ التغيير التي نحتاجها من أجل الوصول إلى ما نطمح إليه، الأمر الذي يشير إلى عدم قدرة وإلى عدم أهلية مثل هؤلاء المعارضين لقيادة ثورة شعب من أجل الحرية والكرامة.

اتجه قطار التوريث نحو ابن أخت صديقي؛ لأنّ ابنه لم يكن مهتمًا بالثورة ومشتقاتها، ببساطة! إنها مأساة التوريث السورية التي لم توفِّر أحدًا أو مكانًا، من أكبر مؤسسة إلى أصغرها، ومن السلطة إلى المعارضة، فلا يترك أحدٌ مكانه إلاّ لوريثه!

***

[207] لم أكن لأمانع تمامًا لو اختار صديقي لهذا المنصب ابنته الرائعة، الأم والإنسانة، أو زوجته التي عملت ليل نهار كسكرتيرة صابرة في خدمة طموحاته السياسية!

استمر من جهة ثانية، الخلط بين النظام والجيش والشبيحة والطائفة؛ ففي وقت كنا نعبر حواجز الجيش النظامي المجاور لسكننا كل يوم من دون إزعاج[208]، صار المرور على حواجز "الثوار" يقتضي قبل كل شيء إبراز الهوية الطائفية، ولم يكن بوسع واحد مثلي المرور على هذه الحواجز إلا برفقة طاقم من المرافقين "السنة"، وحتى هذا الطاقم لم يكن ينفع في جميع الحالات. ومع أنّ أي شيء يمكن أن يحصل على هذه الحواجز أو تلك، فإن تغليب الطائفي على الوطني- السوري، تدرُّجًا، أعادنا خطوات إلى الوراء، فعلى ماذا سنبني؟

6 آذار/ مارس 2012

في الأشهر الأولى للانتفاضة كان لدينا عواطف جياشة والقليل من التفكير والإمكانات، وكنت، مثل كثير من المعارضين، في حالةٍ من التفاؤل بقرب انهيار مقاومة النظام وتفكُّك جبهته الداخلية، ما يفضي إلى ترتيباتٍ داخل النظام قد ينجم عنها الاقتناع باستحالة الانتصار على المنتفضين بوساطة الحل الأمني، ومن ثمّ القيام بتنازلات سياسية ملموسة.. كانت مجرد أماني!

كان صديقي مسرورًا لنجاحه في إقناعي بالمجيء إلى دمشق من أجل العمل على تشكيل جسم سياسي معارض، وما إن استقرينا في منزله بضاحية قدسيا حتى عرض عليّ مساعدة مادية كقرضٍ أسدِّده لاحقًا. رفضت العرض بتأدبٍ، وطمأنته بأننا ادّخرنا ما يكفي لمثل هذه الأوضاع، ولم يكن ذلك صحيحًا. لم نعتد العيش إلاّ من كدِّنا وتعبنا، وقد حميت أسرتي من التلوث بقنوات الفساد والاستغلال من أي جهة أتت، ضمانًا لتعزيز استقلالنا والتحكّم بقراراتنا، فلسنا من تُشترى ولاءاتهم، مع أني أفترض، إلى حدّ كبير، حسن النية فيما طرحه صديقي وقتئذٍ.

---

[208] ذات مرة، حين عبرنا حاجزًا للجيش، وكنت برفقة ابنة صديقي التي كانت تقود السيارة، تفاجأت بتعاملها الأمومي الطيب مع عناصر الحاجز، وكيف استجابوا لها بمزيدٍ من الارتياح والامتنان. في الواقع، كان التعامل الطائفي استثناءً على حواجز النظام، فيما كان من الصعب المرور على حواجز "الجيش الحر" في ريف دمشق من دون السؤال عن الانتماء الطائفي، في حالة الشك!

في وقت لاحق، شهدنا كيف تُهدر الأموال وتُشترى الولاءات باسم الإغاثة وغيرها[209]، وكيف جرى تشجيع الناشطين والناشطات الذين كان يُفرج عنهم من معتقلات النظام، وغيرهم، على السفر إلى الخارج، وقُدِّمت الأموال لهم بسخاء من أوساط رجال أعمال سوريين ومن "المجلس الوطني"، كما عُرض علينا، كأسرة، السفر أيضًا والعيش في أحد البلدان المجاورة[210]. لم أكن أتفهّم "تهريب" الناشطين إلى الخارج إلاّ في الحالات التي تتعلّق بحماية حياتهم.

من بين الذين كانوا يتحضرون للسفر إلى الخارج، السيدان جورج صبرا وكمال اللبواني، وذلك بعد إطلاق سراحهما من السجن[211].

التقيت "كمال اللبواني" بعد أسبوع من الإفراج عنه في بيت صديقي، وقد تحدّث أحيانًا كشيخ سلفي وأحيانًا أخرى كصوت وطني جامع. لم تكن ترافقه ابنته عبثًا، وقد أكّدت عليها أن تبقى بجانبه بعد أن رأيت اضطرابه السياسي والنفسي! ليس من السهل أن يخرج أحدهم طبيعيًا من السجن، ويحتاج إلى كثير من الطاقة الروحية لمواصلة الحياة الطبيعية؛ لذلك كان ثمة عذر لأمثال هؤلاء الذين حافظوا على شعلة مقاومة الاستبداد في أحلك الأحوال.

---

[209] على سبيل المثال لا الحصر، وفي الذكرى الأولى للثورة، تقرّر القيام بنشاط متنوع في الداخل والخارج، ورُصد 200 ألف دولار أميركي لهذه الغاية كما قال لي صديقي. فاجأني حجم المبلغ، سألته عن طبيعة هذا النشاط، فذكر لي بعض الفاعليات البسيطة مثل كتابة كلمة بهذه المناسبة وطباعة كُتيِّب إعلاني (بروشر)، وتوزيع قصاصات وبالونات مكتوب عليها بعض الكلمات في الداخل، والقيام بنشاط مسرحي في الخارج. حين قمت بحساباتي، وما أجهلني بجميع الحسابات، لم أجد أنّ هذا النشاط يحتاج إلى أكثر من عدة آلاف من الدولارات!

[210] كان بقائي في الداخل، على الرغم من أوضاع الحصار والمخاطر الدائمة، أفضل من الخروج والخضوع لأجندات دولية، فضلًا عن عدم قناعتي بالخلاص الفردي والحديث إلى وسائل الإعلام من الخارج، مفضلًا البقاء في بلدي والعمل في أحلك الأحوال، كما فعلت دومًا. إنه نمط حياة ولا علاقة له بالمزاودة، ومثلما لم أقبل إغراءات النظام أواخر العام 2003 على كثرتها، فلن أقبل الخضوع لمعارضين مشكوك في علاقاتهم ومصادر تمويلهم؟

[211] سافر "كمال اللبواني" إلى الأردن ومن ثم إلى السويد، بينما سافر "جورج صبرا" إلى فرنسا وانضم إلى المجلس الوطني. لم تكن ثمة صعوبة في هذه الإجراءات؛ بسبب العلاقة الوثيقة مع السفراء الأجانب من جهة، ولأن النظام كان يغضُّ النظر من جهة أخرى، ربما لرغبته في أن يخرج أكبر عدد من المعارضين إلى الخارج، فيسهل توجيه الاتهامات لهم وتخوينهم. الْتقت مصلحة النظام مع مصلحة "المجلس الوطني" في انتقال أكبر عدد من المعارضين إلى الخارج، وفي وقت كان النظام يتخلص فيه من معارضيه في الداخل، اكتسب المجلس المزيد من الشرعية من خلالهم، انطلاقًا من توهمه باحتكار التمثيل السياسي كبديل النظام!

وجدت "كمال اللبواني" الحالي مختلفًا عن "كمال" الذي عرفته عام 2004 في اللاذقية، خلال اجتماع من أجل التحضير لتشكيل تيار التجمع العلماني الديمقراطي الليبرالي "عدل". أُجهض الاجتماع الثاني لهذا التيار الذي كان مخصصًا لإطلاقه، بعد اعتراض المدعوين من قبل الأمن قرب منزل كمال اللبواني، حيث كان سيعقد الاجتماع[212].

بعد عدة أيام من ذلك اللقاء، تلقّينا، أسرة صديقي وأسرة كمال اللبواني وأسرتي، دعوة من السيد "فواز تلو"[213] لتناول العشاء في منزله بمناسبة خروج كمال اللبواني من السجن. أثناء السهرة أربكنا "كمال" بمواقفه واستفزازاته، إضافة إلى آراء في غاية التطرُّف عبَّر عنها ابنه الشاب. مع ذلك، احتفظنا بذكرى جميلة عن رقّيّ من استضافونا، والفضل الأكبر لربة البيت.

كما زرنا الأستاذ "جورج صبرا" في بيته بمدينة قطنا بعد خروجه من السجن، وكان قد اعتقل بعد مشاركته الفاعلة في التظاهرات السلمية في بلدته هذه. ثم التقيته ثانية في بيت صديقي، وصُدمت بطريقته في التعبير عن آرائه وعدم انفتاحه وعبوسه، فابتسمت، ربما نيابةً عنه، وتوقَّفت عن محاورته، وقد أخذت العبرة من أمثال هؤلاء العقائديين من زمان.

تُعدُّ شخصية الأستاذ "جورج صبرا" مثالًا للشخصية التي تعاند الواقع بوصفه ظاهرة متعددة الوجوه، من خلال الإصرار على اللّون الواحد، فهو يقرِّر ويطلق الأحكام، ويبتعد عن طرح التساؤلات التي تفتح أمامه متاهة تعقيدات الواقع ومختلف جوانب القضية، أي قضية، فيؤثر استخدام قوالبه الفكرية الجاهزة. تجد مثل هذه الطروحات مكانًا لها في أوقات الصراعات الحادة التي تتقاتل فيها الآراء وتتصارع، في حين يحتاج الحوار إلى تعزيز المشتركات واستنباط الحلول.

---

[212] كنت من بين هؤلاء، حيث أوقفتني دورية تابعة لإحدى الجهات الأمنية على المفترق المؤدي إلى مكان الاجتماع، وأطلقتني بعد تسجيل بيانات هويتي.

[213] فواز تلو؛ من التيار الإسلامي الديمقراطي في المجلس الوطني لإعلان دمشق، كان معروفًا بخطبه الشعبوية عند زياراتنا المشتركة لأمسيات التضامن مع المتظاهرين بريف دمشق. بعد سفره إلى الخارج، ألمانيا، صار من أبرز دعاة الشحن الطائفي.

في هذا السياق، أفادنا السيد جورج صبرا بأنَّ ضابط الاستخبارات رستم غزالي ناداه، في أثناء جلسة التحقيق، بـ "محمد جورج صبرا"، غامزًا من باب انتمائه الديني، وأنه موجود في المكان الخطأ، وذلك للقول: إن الاحتجاجات ذات طابع مذهبي.

عند عودتنا من مدينة قطنا إلى ضاحية قدسيا، عن طريق بلدة صبورة، أوقفنا أحد الحواجز العسكرية. تمعَّن العسكري في هوياتنا، ثم طلب منّي الترجُّل من السيارة، وبعد أن ابتعدنا مسافة كافية، سألني:

ـ هل أنت د ...... نفسه؟

ـ نعم.

ـ وهل هذا (مشيرًا إلى صديقي) هو..... نفسه؟

ـ نعم.

عندئذٍ، أعاد إليّ هويتي، وعرّف بنفسه كأحد أبناء قريتي.

8 آذار/ مارس 2012

مراجعات

ساهمتُ ما بوسعي في أنواعالنشاط المدني والنظري المتعلق بصورة سورية المقبلة التي حلمت بها، وكانت تجربة غنية اصطدمت فيها الأحلام والآمال بالوقائع العنيدة على الأرض. لا يُكتب التاريخ أو يتغير بالرغبات الشخصية، وتصنعه محصلة تصارع إرادات الجماعات، واستطرادًا، الأشخاص الذين يحسنون التعبير عن هذه الإرادات في الوقت الملائم.

خلال هذه الفترة جمعتني عدة جلسات عمل بالأستاذ عمر عزيز[214] ناقشنا فيها موضوع المجالس المحلية التي كان قد أعدّ مسودتها الأولى، وهدفت لتنظيم العمل في المؤسسات الحكومية في حال سقط النظام فجأةً أو خرج من منطقة ما؛ لتجنُّب التخريب والفوضى. لكنّ الهيئات الشرعية للتنظيمات الإسلامية المتطرفة عملت لاحقًا على ابتلاع المجالس المحلية وملاحقة الناشطين فيها، ووصل الأمر إلى الاعتقال والقتل أحيانًا [215]. احتفظتُ بكثير من المشاعر الطيبة تجاه هذا الصديق، واستمتعت بالخلاف معه؛ بسبب طريقته الراقية والمهذبة في تقبل الرأي الآخر ومناقشته بهدوء، وستبقى ذكراه الطيبة في نفسي ما حييت، كأحد أروع المحاورين الذين تعلمت منهم الحدّ من التشنُّج في أثناء الحوار.

كما استفدت كثيرًا من اللقاءات التي شاركت فيها مع السفراء الأجانب، وتعرّفت منهم على بعضٍ من أساليب إدارة العلاقات والخلافات الدولية، وبرودة الأعصاب اللازمة لاتِّخاذ القرارات السياسية؛ لكن على مبدأ الندّ للندّ والاحترام المتبادل، بعيدًا عن أي شعور بالنقص.

---

[214] عمر عزيز: ناشط سلمي من ريف دمشق، اعتقله النظام بتاريخ 2012/11/20، وتوفي في السجن في 2013/2/17 بنوبة قلبية.
https://www.youtube.com/watch?v=DFBuJqtiX4Y

[215] عمل المتطرفون والتكفيريون على ملاحقة كل من يخالفهم الرأي، وكان الانتماء الطائفي أو اتهام الشخص بالعلمانية كافيًا للتنكيل به أو قتله http://www.middle-east-online.com/?id=189053

في الوقت ذاته، ترك الشحن الطائفي من طرف مؤيدي "الثورة" مرارةً عميقة في نفسي؛ إنّه السرطان الذي يفتك في الجسد السوري ويهدِّد بالتهامه. قد نفهم أن يعمل نظامٌ في مرحلة الزّوال على تجريب كل ما يساعده على البقاء؛ لكن أن يروِّج لذلك معارضون لسياساته، منهم من هو محسوب على العلمانية، فذلك لا يساهم إلا بالمزيد من إراقة الدماء، ويطلق رصاصة الرحمة على الثورة ذاتها.

***

بعد أن تبخُّرت الوعود والآمال بتأمين عملٍ في دمشق، وفشل أو تعذُّر العمل السياسي الفاعل، كان لا بد من العودة إلى منزلنا في اللاذقية بأسرع وقت لضمان حصول طفلتينا على الحد الأدنى من الغذاء[216] والتعليم. ذهبت زوجتي لتقديم طلب من أجل نقل وظيفتها ثانية من ريف دمشق إلى اللاذقية، ولم نكن قد أنهينا إجراءات النقل إلى ريف دمشق بعد! تبيّن لنا أنّ الانتقال إلى اللاذقية مستحيلٌ؛ بسبب فائض المعلمات في الساحل مقارنةً بعدم كفايتهم في محافظة ريف دمشق، إذ إنّ آلاف المعلمين والمعلمات كانوا يعودون إلى الساحل من مختلف المناطق السورية، بعد أن صار بقاؤهم مستحيلًا في أوضاع الصراع المسلّح والتطرُّف الديني لحاملي السلاح. قلت ساخرًا: "النظام حرمني من وظيفتي، والمعارضة ستطيح بوظيفة زوجتي!"

شعرت أنني أتسبّب لأسرتي بكثير من المعاناة، من دون أمل في أن ينتج من طريقة عملنا في المعارضة ما كنّا نأمله، فضلًا عن شعوري المتزايد بالاغتراب؛ بسبب الطريقة التي تعمل بها الجهة المعارضة التي تعرّفت إليها عن كثب، فاعترتني المخاوف، وأردت النأي بنفسي عن المآل العدمي لتطور الحوادث. كان ثمة إحساس لديّ بأنّنا وُضعنا في قفص لتلبية طموح بعض السياسيين، وإظهار المعارضة بأنها تتألف من الطيف السوري كله!

---

[216] سنكتشف بعد عودتنا إلى اللاذقية أنّ ابنتينا مصابتان بفقر دمٍ شديد؛ بسبب سوء التغذية!

لم أقتنع يومًا إلا بسوريتي، وعملت ما بوسعي من أجلها، بلا مقابل، على الرغم من مرورنا بأصعب الأوضاع المادية، ولو أنّا تظاهرنا بعكس ذلك. لا منّة لي بالطبع، إنها الفرصة التي جاءتني وحاولت انتهازها لخدمة بلدي.

امتلكت وعيًا ونمط حياةٍ قادني إلى الوقوف في وجه الفساد والظلم، واكتشفت مدى قسوة نظام الاستبداد وتبديده للحيوات والطاقات، فعارضته دومًا من منطلقات وطنية وأخلاقية، ودفعت الثمن بأشكالٍ مختلفة، مثلما فعل كثيرون. ليس لديَّ طموح سوى حريّة سورية وتقدّمها، والغاية عندي لا تبرِّر الوسيلة، وسأبقى أعمل من أجل ذلك، من ضمن قناعاتي واعتباراتي هذه.

***

في هذه الأثناء، بدأت تعبيرات الثورة تتوارى تدريجًا وراء ركام من الشحن الجهادي والمذهبي، وصار من الصعب تضييق الحلقة المحيطة بالنظام؛ بل إنها عادت إلى الاتساع. أجريت الحوارات يوميًا مع صديقي لكنها صارت أشبه بحوار الطرشان، فكلما تحدثنا عن انحراف في الثورة، وعوضًا عن تحليل جميع الأسباب، يعزو صديقي الأمر لسبب وحيد- النظام الذي يتحمل المسؤولية الأساس منذ عقود.

لكن؛ لماذا لا نشير إلى "الانحرافات" التي هي ثورة مضادة في الواقع، فنضرب عصفورين بحجر واحد؛ معالجة الانحراف والوقوف في وجه ألاعيب النظام في "الثورة"؟ ولماذا نسكت عمّن يقاتل النظام لأهدافه، بما فيها تلك الأوهام القاتلة للرجوع القهقرى إلى غياهب التاريخ؟ لماذا تعميم مفهوم الشبيحة ليشمل حتى الصامتين من السوريين، لدرجةٍ صار الواحد منّا يفتّش أحيانًا في جيوبه مخافة أن يجد شبيحًا مختبئًا فيها؟ لماذا لا نواجه التصريحات العنصرية والطائفية بالفم الملآن؟ لماذا شيطنة الطائفة العلوية ومعها، استطرادًا، الأقليات؟ كيف سيطمئن الناس على مستقبلهم بوجود مثل هذه السياسات غير المسؤولة للمعارضة؟ وهل يسمح العالم بذلك أو ينفض يديه من هكذا معارضة ومعارضين؟ وإلام سيقود ذلك كله؟ ... ليس بمثل هذه السياسة يمكن مواجهة النظام أو بناء وطن جديد للسوريين!

حاولت النظر إلى الواقع بتجرُّد ما بوسعي، فالنظام لم يسقط كما أملنا، لا على النمط التونسي، ولا المصري، ولا حتى الليبي! فكرت بسيناريو الحالة العراقية في جوانبها المأسوية، على الرغم من اختلاف الأوضاع التي تعاقبت فيها الحوادث، حيث لم يمنع سقوط النظام ووجود المحتل من اندلاع حرب أهلية شرسة[217]، وسيحصل ذلك في سورية سواء سقط النظام أم لا، عندها سينجو كثير من المجرمين وأمراء الحرب، ويتسيَّدون على ما تبقى من أشلاء بلدٍ لم يتحوّل يومًا إلى وطن ناجز! النظام يريد البقاء ولو بليّ عنق التاريخ فيما المقاتلون مصرون على إسقاطه، ولكلّ طرف مَن يقف وراءه في الخارج. التوافق الدولي، الأمريكي- الروسي، خاصَّة، هو ما قد يوقف ذلك الصراع العدمي الذي لن يوصلنا إلى أي مكان غير الخراب والموت، وقد أضحت الأثمان كلها باهظة.

***

[217] جاءت معظم الخبرات القتالية في "المقاومة العراقية"، بما فيها جماعة الزرقاوي التابعة للقاعدة التي حاربت القوات الأميركية في العراق، من انضمام ضباط وجنود الجيش العراقي السابق الذين جرى إقصاؤهم بقرار حل الجيش تعسفيًا من قبل الحاكم الأميركي بريمر، وتحول تنظيم الزرقاوي لاحقًا إلى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، فيما شكلت الكوادر العسكرية العراقية العمود الفقري لهذا التنظيم المتطرف.

تدعو الحاجة في التحولات التاريخية المعقدة من حياة الشعوب إلى وجود شخصيات جامعة تمنح الأمل، فالقائد المحنَّك والرمز يمكن أن يساعد، عند التعبير عن الاتجاه التاريخي لمرحلة ما، على تجاوز أصعب الأحوال والانتقال بالشعب من حالٍ إلى حال، إن كان نتاج فريق عملٍ يؤطِّر جميع الرغبات في عمل مؤسساتي صائب في السياسة خاصَّة، ويضع نصب عينه المصلحة الوطنية الجامعة، من دون أن تعكِّر رؤيَته ضبابيةُ الحوادث.

احتلّ عوضًا عن ذلك، ساحة المعارضة أشخاص عقائديون ضيقو الأفق، إضافة إلى شخصيات انتهازية وعملاء دول لم يرتقِ أي منهم إلى مستوى الحدث؛ بل ظهروا على حقيقتهم التي تخفي هي نفسها جميع أمراض المجتمع. ويبدو أننا حملنا معارضينا التقليديين أيضًا أكثر من طاقتهم، وقدرناهم بأكثر مما يستحقون، نظرًا لما لاقوه من ظلم وسجن على يد الاستبداد الآثمة!

9 آذار/ مارس 2012

في الموالاة والمعارضة، "الأكثرية والأقليات"

انحسر تأييد كثير من السوريين للحراك، ممَن ينتمون إلى الأقليات الطائفية والإثنية خاصَّة، نتيجة العسكرة اللامنضبطة والأسلمة، ما أحدث انقسامًا اجتماعيًا فُرض فرضًا؛ فلا النظام مقنع ولا من يقاتله أيضًا. وتحوّل كثير من السوريين إلى أسرى أو لاجئين ينشدون الحماية، ومنهم من التجأ إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام، في المناطق الساحلية خاصَّة، للبحث عن الأمان في حدِّه الأدنى البيولوجي.

أوقفت عدميةُ الصراع الحالي في سورية عمليةَ التغيير التاريخية وعقدها، وبدا طرفا الصراع الأساسيين، النظام والإسلاميون، كأنهما يجدّفان ضد حركة التاريخ. ففي حين أصبحت سلطة النظام، منذ اللحظات الأولى لخروج سوريين إلى الشارع، خارج السياق التاريخي، فإنه ليس للإسلاميين سوى العنف لمحاولة فرض ما لا تتقبّله الحياة المعاصرة. مع ذلك، لم يحجب هذا الخلط كله حقيقة أنّ جنين التغيير لا بد أن يولد، ولو مشوّهًا، من رحم المأساة السورية المتبدِّلة فصولًا.

يمكن للثورة أن تنتصر في سورية مع وجود كثير من الصامتين؛ لكنّها لن تنتصر، ولن تكون ثورة، إن صُبغت بتوجُّهات غير سورية من أي نوع. حتى الأغلبية التي يحاول الاستبداديون الجدد استغلالها لن تقبل، على نطاق واسع، استبدادهم الذي لا يترك صغيرة وكبيرة إلا ويتدخل فيها، فيما يمكن لأي نظام استبداد مدني أن يحكم بمسوغات سياسية قد يقبلها جزء من الشعب بغض النظر عن الهويات الطائفية والإثنية[218].

لم يجد أبناء الأقليات بدًّا من تنظيم نفسهم ومواجهة التطرُّف أمام أسلمة "الثورة" وخطابها المذهبي الطاغي، لم يفهم "الثوار" المتأسلمون ذلك؛ لأنّهم ليسوا ثوارًا

---

(218) كتب الباحث محمد ديبو بحق في هذا الصدد حول دخول الإخوان كقوة تطييف على خط الثورة: ".. ودفع الأقليات مرة أخرى إلى الاحتماء بالنظام على الرغم من خوفها منه، إلا أنّه بين الخوف السياسي والخوف الطائفي تفضّل الأقليات، التي لها نمط عيش مختلف، الأول على الثاني، لما يرتبط الأمر الثاني، أي الخوف الطائفي في أذهانهم بالضغط المباشر على حرياتهم اليومية والاجتماعية." (إخوان سورية حكاية فشل طويل، لوموند ديبلوماتيك، عدد أيار/ مايو 2013.)

بالأصل، وأصبح دخولهم إلى أماكن الأقليات ضربًا من الاعتداء على أرواح الناس وخصوصياتهم الثقافية[219].

يمر خط مقاومة الاستبداد عبر جميع الطوائف والجماعات وليس بينها، وإن وضع التخوم بين الأقليات والأكثرية، وما ينتج منه من المحاصصات الطائفية والإثنية، سيُبقي سورية على موعد مع دورات متتالية من العنف، إن صمدت أمام التقسيم الجغرافي.

كم سيمر من الوقت قبل أن يدرك الجميع أن لا حلَّ في سورية إلاّ من خلال البوابة السورية؟ وأن التحريض الديني يجب أن لا يتجاوز دوره الروحي في شحذ الهمم من أجل خدمة الوطنية في أوضاع الصراع مع عدو خارجي فحسب، فالأوطان العصرية هي بيئة الفرد المشخَّص بحقوقه وواجباته، وميدان سيادة القانون، وليست مسرحًا لنزاعات سماوية بهدف التغطية على مصالح قوى أرضية.

من خلال معايشتي للبيئات السورية كافَّة التي توصف بتبسيط شديد على أنها موالية أو معارضة، تبيّن لي كم أنّ الواقع معقدٌ بالفعل، وإن الموقف ذاته ليس من التغيير؛ بل من الاتجاهات التي يمكن أن يسلكها، وعدم وضوح الوجه المقبل لسورية. كما أنّ التصرفات الرعناء التي طفت على السطح بعيدة البعد كله عن المستوى الحضاري الوسطي للإنسان السوري. لكنّ المفارقة المؤلمة هي أنّ مستوى التعصُّب كان يزداد تدريجًا كلما صعدنا من المستوى الشعبي إلى المستوى الأكثر تعليمًا و"ثقافةً" مع اتخاذه شكلًا مخاتلًا، فيما لم يكن التعصُّب على المستوى الشعبي، يا للمفارقة، سوى ردود أفعال عابرة[220].

---

[219] كانت فصائل "الجيش الحر" عامي 2011 و2012، تتحرك بحرية في قرى متباينة الانتماء الطائفي في ريف اللاذقية الشمالي والشرقي، على قاعدة عدم المواجهة مع السكان المحليين، وبقيت هذه المعادلة حتى جاءت الفصائل الإسلامية وأخلَّت بهذا التوازن الهش (نقلًا عن أشخاص يعيشون في هذه الأماكن)، إذ إنّ هجومًا مباغتًا لإتلاف ضمَّ "أحرار الشام" والنصرة خاصَّة على عدة قرى علوية في 2013/8/6 أطاح بهذا التوازن الهش، وقتل وسبي كثير من القرويين الآمنين.

[220] قد يكون السبب بأن الفئات المتعلمة، الطبقة الوسطى على وجه التقريب هي التي تتلقى الجرعة الأكبر من ثقافة الاستبداد الرسمية أو وجهها الآخر في الأحزاب الأيديولوجية المعارضة!

في هذه المعمعة يموت فقراء سورية وشبابها، سواء أكانوا من المتظاهرين أم من المنشقين أم من المسلحين أو من الجيش أو من جماعات الدفاع الذاتي أو من المدنيين، فيما يتقاسم أصحاب السلطة والمال النفوذ والأرباح، وتنشأ رؤوس أموالٍ جديدة كاقتصاد حرب ناتجٍ عن أعمال السلب والنهب والاحتكار والابتزاز على الحواجز، ويتبرع بعض رجالٍ الأعمال بالفتات إلى المنكوبين، وعينهم على المكاسب التي سيحصلون عليها في المستقبل.

***

حصل الانفجار السوري في وقتٍ قامت فيه الإدارة الأميركية الجديدة بمراجعة سياسة الإدارات السابقة، ما زاد من فرص لاعبين آخرين لملء الفراغ وجني أكبر قدر من المكاسب، ولو على حساب دماء السوريين وأملهم بمستقبلٍ أفضل. مع ذلك، فإنّ الضغط العربي والدولي متعدد الأشكال، إضافة إلى استمرار الثورة السلمية في الداخل، كان ليقنع الجميع بحقِّ الشعب السوري في نيل حريته، أمّا الحضور الطاغي للمتطرفين الإسلاميين، فقد جعل من التدخل الدولي أمرًا لا مفرّ منه، ليس ضدّ النظام كأولوية، إنّما ضد التطرُّف.

انكشف في تلك الأثناء ضيق الأفق السياسي والوطني للمعارضة المرتبطة بأجندات الدول الإقليمية، ولم تعد مقنعة كبديل للنظام؛ بل هي مجرد أداة لتحقيق مصالح الداعمين، فضلًا عن محدودية التأييد الذي تتمتع به في الداخل.

يمكن أن يساعد التدخل الدولي والإنساني بتفويضٍ من مجلس الأمن في كسر الاستقطاب وخلق وقائع جديدة على الأرض من أجل حماية المدنيين أو ما تبقى منهم! أما استمرار مسار الحوادث الحالي فسيحوّل سورية إلى ساحة حرب مفتوحة يتقاسمها أمراء الحرب، وما يرتبط بذلك من تدمير ما تبقى من الاقتصاد الوطني ووسائل العيش والعمل.

تجاوز عدد التنظيمات المسلحة التي تقاتل على الأرض السورية المئات التي تضمّ عشرات آلاف الأجانب وتخضع لأجندات مختلفة، بحسب تنوع مصادر الدعم

بالمال والسلاح، وإذا أضفنا إلى ذلك المسلحين الذين يقاتلون إلى جانب النظام من خارج الجيش النظامي أو من المنضوين تحت النفوذ الإيراني، فسيشكل هؤلاء جميعًا عبئًا كبيرًا تنوء بحمله سورية المستقبل.

جرى الحوار حول هذه الأفكار مع صديقي خلال المشوار الصباحي في ضاحية قدسيا، كان رأيه أنّ البحث في هذه الأمور الثانوية كلها يضرّ بالثورة، وأنه من الأفضل تأجيل ما عدا ذلك إلى ما بعد سقوط النظام، ورأيت العكس. أعتقد أن صديقي كان يأمل بأنّ "الأصدقاء" سيساعدون المعارضة في التخلُّص من النظام بأقرب وقت، فالحدث الليبي كان ما يزال يدغدغ مشاعر كثيرين! مع ذلك، ارتاح ضميري بعد التعبير عمّا يعتمل في صدري وعقلي من مخاوف بصدد سياسات المعارضة التي يمثلها "المجلس الوطني" ومن يدور في فلكه.

10 آذار/ مارس 2012

تحدثنا عن اللقاء الذي سيجريه صديقي مع السيد كوفي عنان في مقرّ قوات حفظ السلام في الجولان، في حيّ المزة الدمشقي. تمنيت أن يكون أكثر مرونة في مقاربته لاقتراحات ممثل الأمم المتحدة والجامعة العربية[221] التي لا تختلف عمليًا عما طرحته مبادرة الجامعة العربية، وأنه من الأفضل أن نبدو كسياسيين سوريين أكثر من كوننا ثوّارًا، عند التعامل مع الأوساط الدولية خاصَّة، وبضرورة التعبير عن رغبة المعارضة، والمجلس الذي يمثل[222]، بالحوار مع السلطة بحسب مبادرة الجامعة العربية، وإن رفع سقف المطالب ليس أمرًا سيئًا على أن يكون مقرونًا بالرغبة الصادقة في الحوار، والطلب من الأمم المتحدة والجامعة العربية أن تكونا حاضرتين وشاهدتين على مجرياته، ولنترك النظام يرفض[223]. أما "الجيش الحر"، فيُعالج كجزء من العملية السياسية لاحقًا، حين توضع الأمور على سكة الحلّ، وتؤلف حكومة انتقالية وتُعاد هيكلة الجيش. كما رأيت ضرورة عدم وضع متاريس نهائية بين قوى النظام والمعارضة بحيث يستحيل على أحد الطرفين التراجع، الأمر الذي يشكل وسطًا ملائمًا لانتشار القوى المتطرفة، ويزيد من حالة الفوضى في المناطق التي يسيطر عليها "الجيش الحر".

---

(221) ركزت المبادرة على وقف إطلاق نار فوري وإجراء حوار مباشر بين النظام والمعارضة.

(222) كان صديقي وقتها عضوًا في المكتب التنفيذي للمجلس الوطني عن الداخل؛ لكن بصورة سرية أو شبه سرية؛ لأسباب أمنية بالطبع.

(223) هذا ما اقتنع به الائتلاف في جنيف 2 من حيث المبدأ، وهو ما كان على المعارضة أن تفعله منذ تشكيل "المجلس الوطني"، وقد جاء في وقت صار فيه للخارج الكلمة الفصل؛ إنه اكتشاف متأخر للسياسة!

كان بعضهم من جهة ثانية، يريد للثورة أن تنتصر وللنظام أن يسقط من دون مراجعة أخطائه وسياساته، من خلال ترديده للازمة الغبية حول "أن النظام جرَّنا" إلى هذه الحالة أو تلك! أمام مثل هذا الهراء، وفي أثناء لقاءاتنا، لاذ السفراء الأجانب بالصمت، أو عزّزوه بمطّ شفاههم السفلى وتحريك رؤوسهم من جانب إلى آخر، كدليل على حيرتهم أيضًا!

***

كنّا نعيش في الوقت ذاته، كأسرة، تحت ضغوط شديدة في محاولاتنا الفاشلة والمتكررة لإيجاد عمل ما يساعدنا في تأمين الحد الأدنى للعيش الكريم، إضافة إلى الأخطار الأمنية المحدقة بنا طوال الوقت؛ لكنّا كسبنا كثيرًا أيضًا من خلال التعرُّف إلى مختلف الأوساط السياسية والاجتماعية[224].

[224] من مفارقات الحياة السورية وجماليتها أن توجد مختلف أنماط الحياة وتتعايش في الوقت ذاته، فتجعل من التنوع السوري حقيقةً واقعة. ففيما كان صديقي يعيش نمط حياة ليبراليًا منفتحًا على الجميع، كان أحد أخوته الذي جاء بزيارة إلى بيتهم، يسبق زوجته الملفّعة بالسواد حوالي عشر خطوات، ولم يكن قادرًا على النظر بوجه امرأة غريبة من دون يهتز كيانه بطريقة ما، مع العلم أنه ينتمي إلى فئة رجال الأعمال ذاتها كأخيه الليبرالي- صديقي! ومع نمط حياتنا المختلف أيضًا، صار من الواضح كم أنَّ الواقع السوري متنوع، ولا يغري للعيش فحسب، إنما للعبث فيه أيضًا! إنها سورية الجميلة، سورية التي أثخنتها الجراح!

5 نيسان/ أبريل 2012

التقيت بناشطين في فاعليات الثورة، معظمهم من الشباب المفعم بالحيوية، كان بعضهم يتكلم بالطائفية كوصف لممارساتٍ من دون أن يقصد الإساءة بحدّ ذاتها، ولم تكن الحال كذلك دومًا، بين صفوف السياسيين خاصَّة!

اجتمعنا منذ أيام، في بيت صديقي بستة من المحامين معظمهم من ريف دمشق، وقد ظهر على بعضهم الترف والتأنُّق الرسميين. ادّعى هؤلاء قربهم من الحراك الشعبي وقدرتهم على التأثير فيه، وتكلم بعضهم بصورة طائفية ونكدية. قال أحدهم: إنهم سينظِّفون تنسيقيات دمشق وريفها من أبناء الأقليات! حاولت محاورتهم بلطف، ولم يفهم بعضهم من حديثي سوى أنني أتحدّث كابن طائفة محددة يفقدهم ذكر اسمها صوابهم، وهاجمني أحدهم بصورة فظة، فتوقفت عن الحوار مع مَن اعتبرتهم النموذج الأسوأ والأكثر تسلُّقًا من بين من الْتقيتهم في تلك الفترة.

وعلى الرغم من استنكار بعض الحاضرين ودفاع صديقي عن معنى الثورة كثورة ضد الاستبداد، فقد كان المشهد قاتمًا بعض الشيء. لست متأكدًا؛ لكنّ تصرُّف هؤلاء كان أقرب لما فعله "الإخوان المسلمون" في تلك الفترة بغية الهيمنة على المنتفضين من خلال ضخّ الأموال عبر المساعدات المشروطة.

حضرت لقاءات أخرى مع بعض الشباب المشاركين في تظاهرات ريف دمشق، وكان ثمة تعدد في المواقف؛ أصرّ بعضهم على استمرار الثورة ضد الاستبداد وتعزيزها، بينما مال بعضهم الآخر إلى تصعيد اللهجة الطائفية والتحريض ضد العلويين في دمشق؛ بحجة استخدام النظام لبعض المراهقين من أحيائهم في قمع التظاهرات. كان من الصعب الحديث عن أي عقلنة في تلك الأوضاع، وأنّ الأمور ستتجه في منحى يُخرج أمثالنا إلى هامش الحوادث.

***

بعد مؤتمر اسطنبول لأصدقاء سورية واعتراف الدول المشاركة فيه[225] بـ "المجلس الوطني" ممثلًا للشعب السوري، يتحير المرء في الحكم على هذه الخطوة فيلوقت يتصرف فيه المجلس بصورة إقصائية، ويزداد خوف السوريين من غموض مستقبلهم ومستقبل بلادهم.

[225] عقد المؤتمر الأول لأصدقاء سورية في تونس في 24 شباط/ فبراير 2012 كرد على الفيتو الروسي الصيني الثاني في مجلس الأمن في الرابع من الشهر نفسه، واعترف المؤتمرون بـ "المجلس الوطني" ممثلا للشعب السوري شريطة توسيعه ليشمل حميع أطياف الشعب: www.dw.de/p/149dd. عقد المؤتمر الثاني في اسطنبول بتاريخ الأول من نيسان/ أبريل 2012 وجرى فيه الاعتراف الكامل بـ "المجلس الوطني":

http://www.doualia.com/2012/04/01.مؤتمر-أصدقاء-سورية-يعترف-بالمجلس-الوط/

آذار/ مارس 2012

التمهيد للقطيعة السياسية

صارحني صديقي في أواخر شهر آذار/ مارس 2012 بموضوع رسالةٍ على برنامج "السكايبي"، أرسلها إليه عضو المكتب التنفيذي للمجلس الوطني أحمد رمضان، طالبًا فيها تحديد نوعية الأسلحة التي يحتاجها "الجيش الحر"[226]. شعرت بنوعٍ من الصدمة، تعجّبت كيف يمكن أن نتورّط في مثل هذه الأمور، وبطلب من أناسٍ في الخارج لا يهمهم سوى الاستثمار في الدم السوري، أشخاص ليس لهم أي صدقية وطنية، ويحاولون ركوب الثورة ودفعها إلى الجحيم؛ خدمةً لأجندات قوى إقليمية ودولية.

اعترضت بشدة على هذا الإجراء واعتبرته ضربًا من اللّعب بمشاعر الناس وآلامهم، فعدم قدرتنا على تغيير منحى سير الحوادث لا يعني بأي حال المشاركة في دفعها إلى الاتجاه التدميري، بغياب أي نوع من التنظيم أو المرجعية السياسية خاصّة؛ الأمر الذي سيحوّل مناطق التظاهرات إلى ساحات قتالٍ مع النظام بادئ الأمر، ومن ثم سيحتدم التنافس بين مجموعاتٍ مسلحة مرتهنة للخارج لحاجتها للتزوُّد بالمال والسلاح، وما ستحمله معها من أجندات تطيح بجميع ما قام السوريون من أجله، فيتحوّل الصراع ضد النظام الاستبدادي إلى حرب أهلية معقدة من الصعب التكهُّن بمآلاتها.

---

[226] استخدم مصطلح "الجيش الحر" دائمًا لتغطية عملية تسليح شاملة للقوى الإسلامية؛ بسبب سمعته كمجموعة من المنشقين الذين آثروا عدم المشاركة في قمع التظاهرات، وحازوا على احترام المتظاهرين وتقديرهم.

انتفض صديقي بشدة، قال لي حرفيًا: "ما العمل إذا كان النظام يواجه المتظاهرين بالدبابات؟" أجبته: إنّنا لن ننتصر على النظام كمشروع بديل ديمقراطي إلاّ بالوسائل التي لا يمكنه التعامل معها بفاعلية، وهي الأساليب المدنية السلمية والتفكير الوطني الجامع، كنقيض لسياساته، وأنّ أي حالات مقاومة مسلحة يجب أن تكون محدودة ومبرّرة بحاجات الدفاع عن النفس، وتخضع للتقييم السياسي المتواصل. فكيف يمكن أن نشارك في تحمُّل مسؤولية مثل هذا التوجُّه الذي قد يرفع عدد الضحايا إلى مئات الآلاف، ويضع سورية كلَّها على كفّ عفريت، سواء سقط النظام أم لم يسقط؟

كان رأي الصديق عمر عزيز الذي اطلع لاحقًا على الموضوع، مخالفًا لرأيي أيضًا؛ لكن بصورة أكثر دبلوماسية، وقال: إنَّه لا حلّ آخر أمام جنون النظام وحلّه الأمني، وسيتعلّم الشعب دروسًا من مقاومته وأخطائه. حينئذٍ، اعتذرت عن المضي قُدمًا، رافضًا جميع أشكال التعاون في هذا الاتجاه، ومعتبرًا أنّ الخوض في هذا الأمر من جهة سياسية دليل على انعدام الرؤية والتبعية التامة لأجندات الممولين الإقليميين وعبثهم بالواقع السوري.

مثَّلت تلك اللحظة علامة فارقة وخطرة بالنسبة إلي، مع الإشارة إلى أنّ التسلُّح كان قد بدأ يتقدَّم بصورةٍ حثيثةٍ على الأرض، مستندًا إلى دعمٍ خارجي حمل معه المشاريع المتطرفة إلى المجتمع السوري، وعلى رأسها الطائفية البغيضة. للمرة الأولى، منذ بداية الحدث السوري، عشت مثل هذا الفراغ والإحباط واليأس، كأنّه انكسار لحلم، ولم تبقَ سوى "شعرة معاوية" صامدة في علاقتي السياسية مع صديقي، بعد حوارات صاخبة ويومية لأكثر من شهر.

مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة

وصلتني في هذه الأثناء، دعوة لحضور مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة، في الفترة ما بين 12 و17 نيسان/ أبريل 2012[227]. كنت في أمسّ الحاجة لأجد نفسي في مكان ما أقرب إلى توجهاتي السياسية بعد إحساسي بأنني أتزحلق على جدار هوة عميقة، ويجب أن أخرج منها بأسرع ما يمكن. غادرت عن طريق مطار دمشق مساءً، ووصلت قُبيل منتصف الليل إلى أحد الفنادق مقابل أهرامات الجيزة.

مثَّل الحاضرون تنوعًا سوريًا مقبولًا، لكن بدرجة أقلّ بالنسبة للإسلاميين. وعلى مدى ثلاثة أيام جرت نقاشات كثيرة وصدرت عدّة وثائق[228]، كما حدث جدلٌ بين جيل الشباب وجيل السياسيين المعارضين، وجرى التوافق أخيرًا في سهرةٍ عاصفة استمرت حتى الصباح.

انتخبت في نهاية المؤتمر، لجانٌ عدّة؛ منها اللجنة السياسية التي ضمت خمسة أعضاء؛ ثلاثة من الخارج، واثنين من الداخل؛ الشيخ رياض درار[229] وكاتب هذه السطور. وبسبب صعوبة التعبير الحر عن الرأي من الداخل، عند التعامل مع وسائل الإعلام خاصَّة، استقلتُ بعد عدة أشهر، وصار يتم التعبير عن رأي المؤتمر من خلال أعضائه الأكثر حريةً في الخارج، كما خرج الشيخ رياض من سورية في وقتٍ لاحق.

---

[227] كان المنبر قد عقد اجتماعًا تأسيسيًا في الفترة من 16 إلى 18 شباط/ فبراير 2012.

[228] جاء في موقف المنبر من كلٍّ من الجيش الحر والجيش النظامي: "يدعم المنبر الجيش الحر بقدر ما يساند هذا الأخير سلمية الثورة ويندرج في إطارها ولا يتعارض معها. وبالمقابل فإن المنبر لا يعتبر الجيش السوري النظامي الذي لم يتلوث بدماء السوريين جيشًا للنظام؛ بل هو جيش الدولة السورية الذي استلبه النظام، ومهمة الثورة استعادته بأكمله واستعادة دوره الوطني، وبالتالي ليس الموضوع هو صراع بين جيشين؛ بل هو بين الاستبداد والثورة التي ندعو جميع أبناء سورية من مدنيين وعسكريين إلى الانضمام إليها." http://syriandemocraticforum.org/

[229] الشيخ رياض درار؛ باحث إسلامي ديمقراطي يدعو إلى العلمانية وحيادية الدولة ومدنيتها، سجين سابق من "إعلان دمشق"، وكان عضو المكتب التنفيذي في هيئة التنسيق الوطنية أيضًا.

لم يعدّ المنبر الديمقراطي السوري نفسه تشكيلًا سياسيًا جديدًا، إنّما تجمعًا لأشخاص يعملون في الشأن العام وموجودين في المنبر باسمهم الشخصي، ولهذا يمكنهم أن يكونوا أعضاء في المنبر وفي التشكيلات السياسية الأخرى في الوقت ذاته.

تمثَّل هدف المنبر السياسي بتخفيف التجاذب الإعلامي والشخصي والميداني بين مختلف أطياف المعارضة، ومن ثم تقريب وجهات النظر فيما يخص آليات التغيير، والدعوة إلى مؤتمر وطني من أجل الخروج برؤية تتفق عليها أطراف المعارضة كافَّة، وكانت وثيقة العهد الوطني[230] في القاهرة بتاريخ 3 تموز/ يوليو 2012 ثمرة هذا التوجه.

لم يكن من المستغرب التعتيم التام على مجريات أعمال المنبر من قبل وسائل الإعلام التي تدعم "المجلس الوطني" الإقصائي؛ بل إنّ محاولة تشبيحية فاشلة واتهامات لا أساس لها من قبل ناشطَين مقرَّبين من "المجلس الوطني" جرى وأدها في اليوم الأول للمؤتمر[231].

لم يسقط المنبر الديمقراطي السوري تحت نفوذ أيّ من الدول على حدّ علمي، وتموّل من بعض أعضائه في الخارج، ومثَّل تطلعات بعض السوريين للخروج من التجاذبات الحادة ونبذ التطرُّف. كما عمل ناشطون منه في الإغاثة، سواء في الداخل أو في مخيّمات النزوح، ثم مضى كتجربة فاشلة أخرى من تجارب الانتظام السياسي السوري المفقود[232]!

---

[230] وقعت على هذه الوثيقة معظم القوى الفاعلة في المعارضة السورية وجرى تعديلها والتأكيد عليها لاحقًا في عام 2014.
https://www.facebook.com/Follow.up.Committee/posts/336206329806871

[231] واجهت الناشطَين المشاغبَين بنفسي، وكنت على معرفة افتراضية بأحدهما. سألتهما، على سبيل المثال، إن كنتُ من أعوان النظام كما يدعون؟ فاعتذرا مني ومن آخرين أيضًا وانكفآ بعيدًا!

[232] اندمج المنبر الديمقراطي السوري لاحقًا مع حركة النداء الوطني ليشكل المنبر الديمقراطي الوطني في بداية آذار/ مارس 2014، ولم يعنِ ذلك إضافة سياسية تذكر!

مؤتمر البحر الميت أو مؤتمر "المواطنة والدولة المدنية الديمقراطية[233]

دُعيت بعض الشخصيات مباشرةً من مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة للمشاركة في هذا المؤتمر الذي انعقد بين 17 و19 نيسان / أبريل 2012 بحضور 60 شخصية سورية مثَّلت مختلف ألوان الطيف السياسي والمدني السوري، إضافة إلى بعض المستقلين. عُقد المؤتمر تحت شعار وحدة المعارضة على أساس "المشتركات والجوامع" فيما يتعلق بطبيعة النظام السياسي وعلاقة الدين بالدولة وحقوق الأقليات.

ألفت لجنة في ختام المؤتمر لصوغ خلاصة النقاشات والتوافقات؛ لكنّ أكثر من نصف الأعضاء، وعلى رأسهم خمسة أعضاء من "الإخوان المسلمين" وممثِّلَين عن تيار بناء الدولة، رفضوا التوقيع على البيان النهائي الذي أُطلق عليه "إعلان البحر الميت". في نهاية المطاف، وقع البيان 23 عضوًا فقط، وكنتُ من بينهم[234].

ما كان يجذبني ليس ما يقوله الأشخاص فحسب، وإنّما ارتباط أقوالهم بممارساتهم على اختلافها؛ الملبس والمأكل وأدقّ تفاصيل التعامل. ففي قاعة طعام فندق الإنتركونتينانتال على شاطئ البحر الميت، جلست على طاولة طعام واحدة بجانب صديقي العلماني، مقابلنا جلس صديقنا الإسلامي وزوجته. كان الإسلامي يتكلم باسترسال من دون أن يتوقف عن تناول الطعام، فيما كان العلماني ينصت

---

[233] http://www.alqudscenter.org/arabic/pages.php?local_type=128&local_details=2&id1=1028&menu_id=10&cat_id=4

[234] تضمن البيان دعوةً لوحدة المعارضة، والحفاظ على سلمية الحراك وطابعه السوري الشامل، ورفض التدخل العسكري، وضبط السلاح وإخضاعه للمرجعية السياسية للمعارضة الموحدة، ودعم المبادرات العربية والدولية الهادفة لحل المسألة السورية. توجّهت في مداخلتي إلى الإسلاميين من الإخوان وآخرين، تبيّن لاحقًا أن بعضهم من ممثلي حركة "أحرار الشام" إضافة إلى بعض الطائفيين، وطلبت منهم التفكير بمصلحة السوريين جميعهم لنستطيع الخروج من المأزق بأقل الخسائر ثم نقدم برامجنا السياسية لاحقاً ونتنافس ديمقراطيًا؛ لكنّ كلامي كان من دون صدى بالنسبة إليهم، مع أنه لاقى كثيرًا من الاستحسان، حيث عرفت ذلك من تقدم بعض المؤتمرين والحضور الأجانب للحديث معي في استراحة القهوة. أما ردّ فعل "الإخوان المسلمين" فتمثّل بدعوتي لأكون وسيطًا بينهم وبين النظام. قال أحدهم بالحرف الواحد: "نحن الفاعلون على الأرض والنظام يمتلك السلطة، ويمكننا الحوار حول تقاسم السلطة." تحدّث معي "الإخوان" وكأني كنت ممثِّلًا للنظام في المؤتمر بسبب قلة إدراكهم لما هو غير طائفي، فشعرت بخيبة أملٍ عميقة ليس من موقفهم فحسب، إنّما من صورة المستقبل القاتمة التي استشرفتها.

بانتباه[235]، وقد توقّف عن الطعام وأشعل سيجارة ليركّز على المعاني ويطرح تساؤلاته التي كانت تنفذ بصعوبة عبر سيل جمل اللغة العربية الفصحى التي يتفوّه بها صديقنا الإسلامي.

أذكر هذين الرجلين الآن بعد أن أيقنت أن ما يجمع بينهما هو الصدق والشفافية والوطنية، إذ لم يكن وقوفهما مع استحقاق التخلُّص من الاستبداد تمثيلًا ولا ارتزاقًا؛ بل سلوكًا منسجمًا مع القناعات. لم أشارك في الحديث آنذاك، وأنصتُ إلى الحوار فيما كنت أتناول طبق السمك أمامي[236]، وفعلت ذلك زوجة الإسلامي.

كنت أفكرّ في الآفاق الإنسانية لتعامل البشر، ربما حرّض أفكاري ما لمسته من رقيّ المرأة المُعبَّر عنه بسلوكيات بسيطة. وفيما كان الصديقان يتحاوران بلا تكافؤ، قررّت إجراء حوار صامت ومباشر مع المرأة، التي لم أعرفها من قبل؛ قطعت التفاحة الوحيدة التي في الطبق إلى نصفين، حملت أحدهما على طبقٍ من ورق وأنا بالكاد أبتسم، تناولته المرأة بشكر وشبه ابتسامة أيضًا. قضم كل منّا نصف ثمرته بهدوء، تكامل حوار التفاحة هذا مع حوار صديقيّ، وكان طيف سورية الجميل يرفرف من وراء النافذة.

---

[235] هذا توصيف لحالة وهو غير قابل للتعميم بالطبع.

[236] لم يكن يعنيني أمام عشرات أصناف الطعام سوى طبق السمك وبعض الخضار. ارتبكت دائمًا بوجود العديد من الأصناف، وكان ارتياحي يتناسب طردًا مع قلّتها وبساطتها.

القطيعة وبداية مرحلة جديدة

اجتمعنا كأسرتين حول مائدة الفطور في صباح يوم جميل من أواخر شهر نيسان/ أبريل. بدأ الحديث استكشافيًا وهادئًا، ثم ما لبث أن تحوَّل إلى هجوم حادّ من قبل صديقي، وأخجل من سرده احترامًا لصداقتنا! كان مستاءً وكأنّه خسر صفقة ما، صفقة لم ينجح من خلالها باستيعابي في "المجلس الوطني" أولًا، أو كحليف شخصي يأخذه معه أين يشاء، مثلما يعامل بعضهم من حوله. ومع أنني أقدِّر مدى الثقة التي منحني إياها صديقي، فقد أخطأ في فهم شخصيتي المستقلة ونمط حياتي على الصُّعد كافَّة، إذ كان عليه أن يفكر في تكامل جهودنا في عملٍ مؤسساتي وليس بأي شيء آخر. في ذلك اليوم، تعمَّق شرخ المواقف بيننا، وصار افتراقنا السياسي جليًّا.

وعلى الرغم من شعوري بالخيبة من موقف صديقي، كنت في أعماقي مرتاحًا؛ لأنني لم أسمح لأي شخص أو قوة أن تتحكَّم برأيي، وأنّ قناعاتي المبنيّة على ما أراه مصلحةً وطنية هي ما يتحكَّم بمواقفي ويحدد موقعي السياسي في أي وضع. في تلك اللحظة، انتهت غربتي الكئيبة في العمل مع هكذا معارضة، وكان لا بدّ من مراجعة متأنية لهذه التجربة، وأنّ حقيقة واحدة كانت قائمة في سورية؛ عدمية القتل والدمار تحت أنظار العالم كله خاصَّة!

***

بقيت عدة أسابيع على نهاية العام الدراسي قبل أن نعود إلى بيتنا في اللاذقية، وعلينا التحضُّر لمحاولات بعض الجيران من المؤيدين للنظام إلحاق الأذى بنا، فقد أصبح خيار السفر إلى الخارج والعمل مع المعارضة خارج النقاش، بعد ما رأيته وخبرته! قبل ذلك بأيام، كنت قد لخّصت تجربتي السياسية والميدانية في ندوةٍ على إحدى صفحات التواصل الاجتماعي[237].

---

[237] يمكن الاطلاع على ما ورد في هذه الندوة الإلكترونية: الثورة والمعارضة وما بينهما.

https://tagasod.wordpress.com/2012/04/22/منير-شحود-انطباعات-عن-المعارضة-السور

يمكن إبداء الملاحظات التالية فيما يتعلق بالعلاقة بصديقي والجهة التي يمثلها:

1. اختلافنا بشدة حول سياسة "المجلس الوطني" التي تلخّصت بانتظار التدخل العسكري الغربي ليحمل "سياسيوه" إلى سدة الحكم[238]. كان ذلك موقفًا صبيانيًا يعتقد أصحابه أنه بإمكانهم إملاء مصالحهم على العالم ليتبناها!

2. سياسة تجميع موالين بالوسائل كافّة ليكونوا تابعين[239]، عوضًا عن بناء التحالفات مع جميع القوى لتحقيق الهدف المتمثل بالتصدي لعملية التغيير في سورية بمسؤولية.

3. درجة كبيرة من عدم تقبُّل الخلاف في الرأي، والابتعاد عن الممارسات الديمقراطية.

4. التغاضي عن الخطاب الطائفي والعنصري لبعض المعارضين والتنسيقيات المحسوبة على الثورة[240]!

5. التوقف عن دعوتي للقاء السفراء الأجانب بسبب رأيي المختلف، مع أنّ بعضهم كان يسأل عنّي ويطالب بحضوري. لم أكن أريد إحراج صديقي في الحضور، فأعتذر ببعض المشاغل.

6. التعامل مع أشخاصٍ انتهازيين لمساعدته في صوغ مواقفه السياسية ودعمه ضد منافسيه، وكان بعضهم أشبه بمرتزقة.

---

[238] حتى إن بعضهم كان يوزع المناصب، وكانت إحدى الوزارات من نصيبي!

[239] طلب مني صديقي التوسط مع حركة "معًا" لانضمامها إلى "المجلس الوطني" من أجل تمثيل أفضل للعلويين والمسيحيين كما قال، أو كما يريد السفراء الأجانب الذين ألحوا على ذلك، في حين كان "زعماء" "المجلس الوطني" يعضون على نواجذهم ويشتمون هؤلاء السفراء على "تضامنهم" مع الأقليات، التي لم تشارك في الثورة! وكدفعةٍ أولى، أُرسلت عدة مئات من آلاف الليرات السورية إلى فريق حركة "معًا" للإغاثة في اللاذقية، على أن تكون حصصًا شهرية دائمة، ثم قُطعت هذه الإعانة بصورة غير مقنعة حين لم توافق الحركة على الانضمام بصورة جماعية إلى المجلس. في هذه الأثناء، تصرف أحد أعضاء الحركة بصورة غير نزيهة، الأمر الذي أفقدني صوابي، ليتبين لي أنّ الأمر يتعلق أساسًا بشراء الولاءات من خلال المال المقدم، أكثر منه بغاية تقديم الدعم لمحتاجيه!

[240] تنسيقية الميدان وضواحيها على سبيل المثال لا الحصر، وباعتبار أن لصديقي علاقة وثيقة بها، كما فهمت.

7. تأكَّدت، بالتجربة الملموسة، من شكوكي بـ"المجلس الوطني" خاصَّة؛ أي ارتهانه لمصالح الدول الأجنبية ومتاجرته بالدم السوري.

قال صديقي قبل انتهاء العام الدراسي بأيام: إنّ أحفاده بحاجةٍ إلى البيت، فأكّدت له أننا راحلون فور إغلاق المدارس[241]. حينئذٍ، شعرت بقهرٍ لا حدود له، والتمست لصديقي بعض العذر حين عرفت، لاحقًا، بأنّه كان سيسافر إلى الخارج، لكن كيف أعذره على عدم قول ذلك بوضوح؟

في مساء اليوم الأخير لوجودنا في دمشق، وضّبنا أغراضنا الشخصية في السيارة، ثم اجتمعنا معًا للوداع. شربنا الشاي، شكرنا أصدقاءنا على الضيافة، ولمَّحت إلى خطأ حساباتنا السياسية في أوضاع متحركة ومحفوفة بالمخاطر، في محاولة منّي لاستبعاد أي مؤثرات شخصية. بعد عودتنا بأسبوعين أو ثلاثة، سافر صديقي ومن يرتبط به، بالقرابة أو بالسياسة، إلى ألمانيا، وعلى مراحل. بدورنا، عدنا إلى بيتنا في الدريكيش، كتمهيد لعودتنا إلى اللاذقية. كنت بحاجةٍ ماسة للتفكير بهدوء ومراجعة ما حدث، بموضوعية وعلى الصُّعد كافَّة.

---

[241] كان ذلك تصرفًا في منتهى الغرابة؛ لأن صديقي كان يلمس مدى شوقنا للعودة إلى بيتنا في نهاية العام الدراسي، وقد أصبحنا شبه رهائن لحوالي عام! سخرت مرة من الأمر قائلًا: "ثمة من يريد أن يضعنا في أقفاص أقلّوية ليعرضنا، حين اللزوم، كالسعادين على السفراء الأجانب، ذلك كدليل على أن الثورة تشتمل على جميع مكونات الطيف السوري!"

لقاء مع السيد كوفي عنان

تولّى السيد كوفي عنان مهمته في سورية كمبعوث للأمم المتحدة والجامعة العربية في 23 شباط/ فبراير 2012، وأعلن مبادرته لحل الأزمة السورية، كما أشير سابقًا. في الزيارة الثانية التي قام بها إلى دمشق بتاريخ 28 أيار/ مايو 2012، دُعي وفد المنبر الديمقراطي السوري، من بين وفودٍ معارضة أخرى، للقائه في فندق الميريديان، ضم الوفد الأستاذين حبيب عيسى وفايز ساره وكاتب هذه السطور.

دخلنا من باب مرآب الفندق، في الجهة الخلفية المحاذية لشارع بيروت، لتجنُّب عدسات المصورين، وقادنا أحد المرافقين عبر دهاليز التمديدات الصحية حتى وصلنا غرفة الاجتماع. حيث خُصصت نصف ساعة للقاء كلٍّ من الوفود المعارضة، واتفقت وزميليَّ، مسبقًا، على أن يتحدث كل منا مدة 7 دقائق لعرض أحد جوانب الموضوع، واستغلال الوقت المتبقي لمعرفة وجهة نظر الأمم المتحدة.

جرت الأمور بدقة [242]. أثنى السيد كوفي عنان في نهاية اللقاء، على تنظيمنا للوقت، وعبّر، في معرض حديثه، عن رغبته بالاستقالة، نظرًا لانسداد آفاق الحل، الذي يرتبط بضرورة إصدار قرار مُلزم من مجلس الأمن، الأمر الذي من غير المرجّح حدوثه في المدى المنظور؛ بسبب الخلاف الأمريكي- الروسي. كما نقل لنا كوفي عنان ما دار بينه وبين الرئيس بشار الأسد صباح ذلك اليوم، معبّرًا عن تشاؤم إضافي تجاه موقف النظام، الذي لا يرى في الأمر أكثر من صراع مع مجموعات إرهابية.

---

[242] من الاقتراحات التي قدمناها لممثل الأمم المتحدة في أثناء اللقاء:

1. زيادة عدد المراقبين الدوليين وانتشارهم في مناطق التوتر، وتزويدهم بما يستلزم لقيامهم بمهمات المراقبة، فيما يتعلق بحماية المدنيين خاصَّة.
2. طلب قوات فصل أممية في مناطق التداخل والنزاع الأهلي مثل حمص.
3. البدء بتطبيق وقف إطلاق النار في المناطق الأقل تعقيدًا وتداخلًا مثل دير الزور وريفها.
4. حظر السلاح الوارد إلى طرفي الصراع.
5. العمل على أن يترافق أي بدء للحوار بحرية العمل السياسي في المناطق التي يسيطر عليها النظام لتمكين الناس من التعبير عن رأيهم.
6. ربط مبادرة السيد كوفي عنان بقرار من مجلس الأمن لضمان استجابة الطرفين.
7. أن تترافق هذه الإجراءات مع التحضير لبدء العملية السياسية في أسرع وقت ممكن.

الدريكيش، 11 حزيران/ يونيو 2012

لُذنا مثقلين بالإحباط، ببيتنا الريفي بعد سنة لم نعرف فيها دفء البيت وحرية العيش، على الرغم من كل ما فعله أصدقاؤنا لنشعر باستقلالنا. على شاشات القنوات الفضائية تتصدر المشهد أخبار المأساة السورية وصور الدمار والقصف والمعارك. ولا يمرُّ يومٌ من دون أن تعبر قوافل شهداء الجيش على الطريق المحاذية لبيتنا، يتقدّمها شبّانٌ يركبون الدراجات النارية وتلحق بها السيارات تعبيرًا عن واجب التضامن! هل هي الحرب الأهلية؟ وهل يمكن أن ينجم عن جنون الحل الأمني الذي اعتمده النظام، وما استتبعه من جنون مقابل، غير ذلك؟

اتصل صديقي من دمشق أكثر من مرة بعد عدة أيام من وصولنا إلى الدريكيش، طالبًا منّي فتح بريدي الإلكتروني لأمر مهم جدًا! لم يكن بوسعي التواصل عن طريق شبكة الإنترنت في المنطقة، فسافرت إلى مدينة طرطوس، ووجدت في بريدي الإلكتروني دعوةً من الحكومة التركية لحضور مؤتمر يتعلق بسورية والمعارضة[243]!

جرجرت قدماي صوب البحر، جلست على صخور الشاطئ أفكّر لساعات، لم تكن تلك الموجات التي تضرب جلاميد الصخر قادرةً على منحي السكينة، وكان الوطن الذي حلمت به يتسرّب من بين أصابعي كحباتٍ من الرمل!

---

[243] لم يكن صديقي يلح عليّ كل هذا الإلحاح لو لم يتعلق الأمر بطلبٍ أحد السفراء الأجانب، إذ كان السفير التركي في دمشق وراء الدعوة، في محاولة منه لتجنيد معارضين لخدمة أجندات دولته، كما كان يحدث في معظم الحالات؛ بل إنّ السفراء الأجانب صاروا، أحيانًا، وسطاء في حلّ الخلافات المستعرة بين المعارضين السوريين!

20 حزيران/ يونيو 2012

كم كان وضعنا في الداخل محرجًا عند الحديث إلى وسائل الإعلام! عدم الوضوح في إبداء الرأي وتصنُّع الاعتدال أحيانًا كان يستغلّه بعضهم للتشكيك بالمواقف، فإن كان الحديث لوسائل الإعلام المؤيدة للنظام تعرضنا للاتهام بالتواطؤ معه[244]، وإن كان لوسائل الإعلام المعادية للنظام يعرِّضنا لتخوين أنصاره، فضلًا عن إشارة هذه الوسائل إلى الصفة الطائفية للمتحدِّث، إنْ كان ينتمي بالمولد إلى مجتمعات الأقليات! بعد عدة محاولات مرتبكة، رأيت أنّه من الأفضل الصمت، ولم يكن ينقص شاشات الفضائيات محلّلين لمصائبنا، سواء من الداخل أو من الخارج!

[244] تلقيت أيضًا دعوة من أحد المؤيدين للنظام في الخارج للمشاركة في حوارات على شاشات القنوات الرسمية بضمانته؛ لكني اشترطت قول رأيي كاملًا والحصول على ضمانات أمنية مكتوبة وعلنية!

مؤتمر جنيف 1

عقد مؤتمر جنيف 1 أواخر شهر حزيران/ يونيو 2012، وكان من أبرز مقرراته اقتراح تشكيل حكومة انتقالية واسعة الصلاحيات، فيما بقي موضوع مصير الرئيس غامضًا. مثَّل هذا المؤتمر إطارًا لحلّ المشكلة السورية؛ لكن من دون إرادة دولية حقيقية للمضي قدمًا في تحقيق الحلّ المنشود. كان العالم متّفقًا على إدارة الأزمة السورية وليس حلّها، في المدى المنظور على الأقل، فتواصلت الحرب في سورية بلا أي أفقٍ لحسم الصراع، ودخلنا في نفق كارثي مفتوح على جميع الاحتمالات.

تعايش سوري

نزح مئات آلاف السوريين من مناطق الاشتباكات، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى المناطق الساحلية، بعد اجتياح المسلحين للمناطق الشرقية من حلب خاصَّة[245]، فضلًا عن عودة آلاف العائلات العلوية التي كانت تقطن في مناطق ذات أغلبية سنية؛ بسبب التهديدات المباشرة من حملة السلاح، التكفيريين منهم خاصَّة.

كان بعض النازحين من مناطق الاشتباكات إلى الساحل من الموالين للنظام في البداية، ومن ثم اتسع نطاق النزوح ليصل إلى أكثر من مليونين خلال سنة، وتوزعوا على جميع المدن والبلدات والقرى الساحلية.

تابعت أحوال المهجرين، مباشرةً أو من خلال بعض مجموعات الإغاثة، ودُهشت لتعامل الناس معهم ومساعدتهم على المستويين الرسمي والشعبي، ومن دون أي اعتبارات أخرى. فحين وصل المهجرون من حلب إلى الدريكيش جرى تأمين من لا يمكنهم اكتراء البيوت في بعض المدارس وفي معمل الحرير، وقدم أهالي القرى لهم المواد الغذائية بسخاء، على الرغم من حالات الفقر المزرية. تدريجًا، بدأ أصحاب المهن منهم بالعمل بعد أن جلبوا ما أمكنهم من المستلزمات أو ما تبقى من ورشهم،

---

[245] بدءًا من شهر تموز/ يوليو 2012.

وساهموا في إعادة إحياء السوق السورية بعد أن وصلت الأمور إلى حالة سيئة في نهاية عام 2012 وبداية عام 2013[246].

لم تسجل أي حوادث تذكر في تقبُّل هؤلاء المهجرين، على الرغم من الازدحام الخانق في مختلف الأماكن، وهذا ما لا يفهمه المحرضون الطائفيون، أو أنهم لا يريدون فهمه. وكان للأجهزة الأمنية التي تعاملت بارتباك مع الموضوع في بداياته، اعتباراتها وحساباتها؛ لكن النظام، عامَّة، كسب هذه الجولة ضد المتشدِّدين من خصومه، الذين رفعوا شعار "الحرب ضد النصيرية" وبما يرقى إلى التطهير العرقي، فيما كان "النصيريون" يتقبَّلون أخوتهم كسوريين قبل كل شيء!

أشاعت أجهزة النظام، بطريقة أو بأخرى، أنه من غير المسموح إطلاقًا حدوث أي نشاط معارض في هذه الأماكن، تحت طائلة الانتقام القاسي التي تكفّلت به تلك القوى غير النظامية التي شكّلت لاحقًا "جيش الدفاع الوطني"، واحتوت بعضًا من خريجي السجون والمهمشين اجتماعيًا الذين ذهبوا للسّلب والنّهب (التعفيش) في باقي المناطق السورية أكثر منه للقتال.

تعزَّزت بمرور الوقت، علاقات المصالح على اختلافها، وكانت ثمة حاجة ماسة إلى اليد العاملة للتعويض عن الشباب الذين يخدمون في مختلف النشاط العسكري أو الذين استشهدوا أو جرحوا في الحرب. كما أصبح التعايش والاختلاط حقيقة، كما كان دومًا في سورية، وتكيّف المهجَّرون، إلى حدّ معقول، مع الأجواء الاجتماعية المنفتحة، بخلاف بيئاتهم الأصلية.

---

[246] بدأت عائلة حلبية من الصفر في صناعة المنظفات في قريتي النائية بريف الدريكيش، وعمل رب الأسرة مع ابنتيه بجد ليُقلع بورشته، التي تحولت بعد أشهر إلى معمل يُنتج جميع أنواع المنظفات. لا أعرف بالضبط إن كان قد استُغل من قبل رب عمله الذي أمّن له المكان والمستلزمات. حين قابلته أول مرة لطمأنته، كان الرجل مرتبكاً، لكن، بعد عدة أشهر، جلسنا نتحدث ضمن مجموعة من الأشخاص، وكأنه عاش في هذه البيئة من زمن طويل.

على وجه التوكيد، ليست الصورة وردية بالنسبة إلى أولئك الذين هجروا بيوتهم وأعمالهم؛ لكنّ الأمر يتعلّق ببعض الأمان في زمن الموت الذي كان يذكِّر بنفسه يوميًا في مختلف أنحاء سورية المكلومة[247].

بقيت المناطق التي يسيطر عليها النظام تُدار بالطريقة المستبدة ذاتها، ومنها المناطق الساحلية. مع ذلك، كانت الحياة هي التي تتغير هذه المرة، فاتّسعت درجة التعبير عن الرأي على المستوى الشعبي، نظرًا لفداحة المأساة التي طالت الجميع[248].

[247] سعينا قدر الإمكان، وبإمكانات محدودة، لمساعدة المهجرين في الساحل السوري. قبل عيد الفطر بأيام صيف 2015 قدمت هدايا العيد إلى حوالي 80 طفلا من مهجري حلب في الدريكيش، وقد تبرعت بثمنها إحدى فاعلات الخير من السوريات المقيمات في الإمارات العربية المتحدة. حينئذٍ رأيت كيف أن القبضة الأمنية ما زالت تمنع التواصل بحرية مع المهجرين، فضلًا عن الواقع الصعب للذين يسكنون في مراكز الإيواء، ومنه تشتت الأسر والمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق المرأة. مع ذلك، كان التعامل الإنساني هو المفتاح السري الذي يدخل البهجة إلى القلوب في أصعب اللحظات. كما كان التواصل الاجتماعي بين المهجرين وأبناء المنطقة عاديًا، على الرغم من جنائز الشهداء الحاضرة يوميًا. من المفارقات أن أبناء بعض الأسر النازحة كانوا يقاتلون النظام في حلب، في حين كان أبناء آخرون مجندون للقتال إلى جانب النظام.

[248] تصاعدت الاحتجاجات في المناطق الساحلية مع وعي فداحة الظلم والمأزق الذي وضع النظام مؤيديه فيه، إلى أن وصلت إلى حالة نوعية بقيام تظاهرة في اللاذقية في 9 آب 2015 بعد قتل أحد أبناء العائلة الحاكمة لأحد ضباط الجيش بسبب خلاف مروري. طالبت التظاهرة بإعدام القاتل، ورافقتها اعتصامات في كل من حمص وطرطوس واللاذقية، قام بها أهالي العسكريين المحاصرين في أماكن مختلفة في سورية؛ لكن المضي قدمًا في هذا الاتجاه كان من شبه المستحيل؛ بسبب تصاعد التطرف الإسلامي.

all4syria.info/Archive/244821

http://alhayat.com/Articles/10493082/تظاهرة-في-اللاذقية-تطالب-بإعدام-سليمان-الأسد

18 تموز/ يوليو 2012

اغتيل أعضاء ما سمي بخلية الأزمة في مبنى الأمن القومي بدمشق، في أهم وأكبر عملية ضدّ الكوادر العليا للنظام، وعلى الرغم من تبنّي "جيش الإسلام" وأحد فصائل "الجيش الحر" للعملية، فقد اكتنفها كثير من الغموض(249).

30 آب/ أغسطس 2012

استمر نزيف الدم في سورية، وتفاقم الصراع من دون أي أفق لمخرج سياسي؛ نظامٌ فقد مبررات وجوده؛ لكنه يمتلك القوة والحلفاء، وفي المقلب الآخر، مسلحون ليس لهم أي هدف معلن سوى إسقاط النظام، يدخلون المدن ليحرروها، فيصبح سكانها لاجئين، وتتدمَّر من دون أن تتحرّر!

كنت ما أزال أرزح تحت شعور مرير بالخيبة من المعارضة السياسية التي لم تكن على مستوى الحدث، ومن ثم، لم يكن بمقدورها المساهمة في إخراج سورية من النفق المظلم الذي ولجته، فتقدَّم الإسلاميون بحلِّهم العسكري في مواجهة الحلّ الأمني للنظام. وفي الوقت ذاته، كان السيد الأخضر الإبراهيمي يعدُّ العدّة لمواجهة أزمة مستعصية، بأمل ضئيل، بعد أن حلَّ مكان السيد كوفي عنان كمبعوث دولي وعربي في التعامل مع الحدث السوري.

(249) قتل في التفجير وزير الدفاع داوود راجحة ونائبه آصف شوكت ورئيس مكتب الأمن القومي هشام اختيار ورئيس خلية إدارة الأزمة حسن تركماني.

العودة إلى اللاذقية

وصلنا صباح يوم الخامس من أيلول/ سبتمبر 2012 إلى بيتنا في مدينة اللاذقية، وعلى الفور استعد بعض جيراننا لاستقبالنا بالغمز واللمز والاستعداد للأذى. بالفعل، ما إن جاء المساء حتى اشتغل جهاز الإنذار في السيارة، وقررت أن أفعل شيئًا. نزلت إلى الفسحة أمام البناء للحديث إلى الشباب المتجمعين في المكان. حيّيتهم وقلت لهم: إن موضوع السيارة غير مهم، وقد سامحتكم عمّا مضى؛ لكنّي أودّ التحدث معكم في السياسة وعن المعارضة! كان رد فعلهم مزيجًا بين الدهشة والحذر؛ تفوَّه أحدهم ببعض السخافات، في حين بدا أنّ بعضًا منهم على استعدادٍ، ولو بحياء، للاستماع والحوار.

تركت لهم الفرصة لطرح الأسئلة وأجبت عنها باقتضابٍ ووضوح مهما بدت استفزازيةً، وبقينا نتحاور لعدة ساعات. كانوا نحو عشرة شبان في البداية، ثم خرج معظمهم حتى بقي اثنان فقط. هدأ الحوار لاحقًا بعد أن "اكتشفوا" أنني معارض "طبيعي"، وعبروا عن مخاوفهم، كما تخلَّوا عن بعض مسلماتهم، والأغلب أنّهم تظاهروا بذلك.

في نهاية الحوار الصعب، شعرت أنّ جبلًا قد انزاح عن صدري، وأنّي قمت بما يلزم عليّ القيام به. لم يرق اللقاء مع الشباب لبعض جيراني من الكبار، الذين تشبَّعوا بالحقد والضغينة والإقصاء، كأبناء نجباء لمقولة حزبهم: "أنا بعث وليمتْ أعداؤه ...!"[250]

[250] بقيت بعض حالات التحرش المنفردة، فعملت على معالجتها مع الأهل، واستعصت عليّ حالتان؛ أبناء أسرتين من أمهات روسيات، الذين أظهروا المزيد من الحقد، ربما كخلطة مميزة من الاستبداد المحلي والعقيدة الستالينية التي لا تعرف سوى تدمير الخصم، وكان لا بد أن ينفجر الوضع في وقت لاحق.

مؤتمر آخر وخيبات أخرى!

دُعيت في 17 أيلول/ سبتمبر 2012، لحضور مؤتمرٍ في القاهرة بهدف توحيد القوى الديمقراطية. وصلت مساء اليوم السابق لعقد المؤتمر إلى مطار دمشق، أنهيت الإجراءات ودخلت قاعة الخروج إلى الطائرة. من خلال الزجاج، لمحت وفد هيئة التنسيق الوطنية الذي كان قادمًا من زيارة إلى الصين برئاسة الدكتور عبد العزيز الخير[251]، وبدا مع زملائه في حالة ارتباكٍ واضحة.

حين وصلت القاهرة، سمعت أنَّ عبد العزيز الخير واثنين من رفاقه[252]قد خُطفا على طريق المطار. لم تعترف السلطات السورية باعتقالهم حتى لحظة كتابة هذه السطور، واتهمت "العصابات المسلحة" بالقيام بذلك. لاحقًا، زعمت مصادر هيئة التنسيق أنهم معتقلون في أحد سجون الاستخبارات الجوية، ولم تفلح جميع الوساطات في الكشف عن مصيرهم على وجه التوكيد.

كان من في الداخل من المعارضين أشبه برهائن يحجّمهم النظام متى رأى أنهم يمثلون تهديدًا له، مع حرصه على أن يترك لهم هامشًا من الحرية من أجل العزف على أوتار المعارضة الداخلية. في الواقع، كان الأمر بالنسبة إلى المعارضين في الداخل، وما يزال، في غاية الصعوبة، ولم يكن الالتحاق بالمعارضة في الخارج حلًا أيضًا؛ بسبب ارتباطاتها ومشكلاتها، ويا له من حصار!

لماذا أُخفي عبد العزيز الخير؟ هل لأنّ حجمه وعلاقاته الدولية، مع حلفاء النظام خاصَّة، قد يجعل منه بديلًا ما في مرحلةٍ انتقالية؟ هل كونه "علوي" ومن القرداحة نفسها أمر مهمّ أيضًا؟ وما هي الخطوط الحمر التي تجاوزها؟ أسئلة كثيرة ولا إجابات واضحة.

***

[251] طبيب وسجين سابق من قادة حزب العمل الشيوعي، نال سمعة طيبة في السجن لعلاجه جميع المعتقلين من دون تمييز. في خريف 2011 هاجمه معارضون في القاهرة وتعرض للضُرب ورُميَ بالبيض، وكان ذلك بداية التشبيح "الثوري" من قبل أنصار "المجلس الوطني".

[252] ماهر الطحان وإياس عياش.

تعرّفت خلال حضوري هذا المؤتمر إلى بعض الشخصيات السورية المعارضة موضع الجدل، وعلى مواقف بعض العشائر السورية. كما اطلعت على بعض مجريات مؤتمر آخر عقده معارضون إسلاميون سوريون في أحد فنادق القاهرة الفخمة، وخرجت بعد وقتٍ قصير لأني وجدت نفسي في أجواء غريبة!

في أثناء تسكعي في شوارع القاهرة، اتّخذت قراري النهائي؛ لن أحضر أي مؤتمر بعد الآن، لا في الخارج ولا في الداخل، في المدى المنظور على الأقل، إذ ليس ثمة من أمل يلوح في الأفق، وبُتنا كصبية يلعبون على هامش الحريق السوري!

تشرين الأول/ أكتوبر 2012، معارك حلب

يعدُّ هجوم المسلحين من الريف الحلبي الشمالي على مدينة حلب، ابتداءً من صيف 2012، وما رافقه من نهب وحرق وقصف لأغنى مدينة سورية وأكثرها ازدهارًا من الناحيتين الصناعية والتجارية، يُعدُّ من أكبر الكوارث التي حصلت خلال هذه الفترة، ولن يغفر الحلبيون لمن تسبب لمدينتهم بالخراب، مثلما لمست من جلِّ من تحدّثت إليهم. لعلّ في هذه الرسالة التي أرسلتها طبيبة في المشفى الجامعي، طالبتي السابقة في كلية الطب بحلب، ما يلقي الضوء على الجحيم الذي عاشته المدينة. تركتُ الرسالة كما هي باللهجة الحلبية، مع القليل جدًا من التحرير[v].

كما وصلت رسائل من أحد الأصدقاء؛ طبيب أسنان من طرطوس كان قد استقر في حلب الشرقية الخاضعة للمسلحين بعد أن اعتقل من قبل النظام في الأشهر الأولى، تحدّث فيها عن انطباعاته عما آلت إليه الأمور[vi].

الاستدعاء إلى فرع الاستخبارات الجوية في اللاذقية

في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر 2012، بعد أسبوع من العمل على جني محصول الزيتون، وفي وقت كنت أستلم فيه أوعية الزيت الأربعة من المعصرة، ترجّل أحدهم من سيارة دفع رباعي رُكنت قرب المكان، ثم تقدَّم بصورة مريبة من المحاسب وسأله عن أسعار الزيت، وحين قُدت سيارتي باتجاه البيت تبعتني السيارة حتى توقَّفت على مدخله.

تقدَّم الرجل نحو قريبي الذي كان يساعدني في إفراغ عبوات الزيت، لظنّه بأنّه هو الدكتور الذي يبحث عنه، كون ثيابه أقل اتّساخًا من ثياب العمل التي كنت أرتديها، وعرّف عن نفسه كعنصر من مفرزة الاستخبارات الجوية بطرطوس، فأحاله القريب إليّ.

طلب العنصر لقائيَ منفردًا، وبقي زميله واقفًا على أتمِّ استعدادٍ، ويده على مسدّسه المرئي بوضوح على خصره! أبلغني العنصر بضرورة مراجعة فرع الاستخبارات الجوية في اللاذقية صباح اليوم التالي، وطلب مني التوقيع على ورقة التبليغ، مضيفًا بأنني سأجد فاكسًا باسمي عند مراجعة الفرع المذكور، وسأتحمل المسؤولية كاملةً إن لم أحضر غدًا.

حين استفسرت عن الأمر، قال العنصر: إنّ ثمة تقارير حولي، منها ما يتحدّث عن أنني أرفع علم الثورة على سطح بيتي، وثمة صورة تؤكد ذلك! إضافة إلى أمر آخر يتعلق بسكني في بيت صديقي بدمشق. لم يكن عنصر الأمن وديًّا في حديثه، وأصرَّ على أن يسمعني تهديداتٍ مبطَّنة. كنتُ تعبًا، تحدّثت معه بشيء من العصبية، فقد استفزتني تهمة رفع العلم؛ لما تتضمَّنه من تحريض واضح.

في اليوم التالي سافرت إلى اللاذقية، وتوجهت إلى مقرِّ فرع الاستخبارات الجوية في المشروع السابع. لم أكن خائفًا، ولم تصبني تلك القشعريرة المقيتة التي لازمت اقترابي من هذه الأماكن في استدعاءات سابقة، فما الذي يمكن أن يحدث؟ حتى الموت أصبح سخيفًا ومبتذلًا. ما كان يقلقني هو ذلك الفشل الكبير على الصعد كافَّة، واستمرار الموت والدمار وسط صمت العالم.

كان ثمة شابٌّ في مكتب الاستقبال يتحدّث إلى امرأة ترتدي جلبابًا أسود في العقد الرابع من العمر. سألت المرأة الشاب عن سبب عدم خروج ابنها المعتقل على الرغم من صدور مرسوم العفو الرئاسي الأخير، أجابها الشاب: إنّ الابن السجين قد طلبته جهة أمنية أخرى للتحقيق، وسيفرج عنه لاحقًا! أراحني التصرف الطبيعي للشاب مع المرأة، ولم أكن قد رأيت مثل هذه المعاملة عند المثول للتحقيق في المرات السابقة.

حين استفسر الشابّ في مكتب القبول عن أمري، قلت له: إنني معارض سياسي، ومطلوبٌ بسبب تقارير. ذُهل الشاب لهذه الجرأة، حدّق في وجهي لثوانٍ، ثم رفع سماعة الهاتف مبلغًا عن حضوري. وصل المحقِّق بعد لحظات وطلب لي كرسيًا، ريثما يتفرَّغ للتحقيق معي.

بعد نحو الساعة، قادني أحدهم إلى غرفة صغيرة تحتوي على أرائك من الجلد الممزَّق. جلس المحقق بلباسه العسكري، بلا رتبة، وراء الطاولة، وشرع يقرأ في أوراقٍ أمامه.

كالعادة، بدأ المحقق باستعادة سيرة حياتي منذ الولادة، بما فيها مراحل التعليم كافَّة، ثم الوظيفة والفصل منها، وصولًا إلى الوضع الحالي. تمحور التحقيق حول المعارضة الداخلية والخارجية وموقفي وعلاقاتي. سألني المحقق عن بعض الأشخاص، لكنْ من دون تفاصيل محرجة، وعبّر، من دون مناسبة، عن ارتياحه لموقف روسيا وفيتواتها في مجلس الأمن، واصفًا الرئيس الروسي بوتين بـ "بو علي تين"، فيما حاولت إخفاء شعوري بالاشمئزاز!

أخيرًا، كان عليّ إعادة كتابة التحقيق الذي أجراه المحقق معي. وبعد أن قرأ المحقق ما كتبته، أضاف إليه أنّ الجيش يحارب "عصابات إرهابية"، ثم جاء بورقةٍ مطبوعة فيها جمل فضفاضة حول "الإصلاحات" التي قاموا أو يعتزمون القيام بها للخروج من "الأزمة"، وطلب مني التوقيع عليها، فسألته مبتسمًا:

- أين طُبقت هذه الإصلاحات التي سأوقع عليها؟ وما الذي تغيَّر؟

أجاب المحقق بتعب:

- في حال حصلت، هل أنت معها؟

قرّرت التوقيع؛ لأن المحقق يريد أن يثبت أنه قام بعمله فحسب، ولا معنى لوجودي في عهدة الاستخبارات الجوية إن كان التوقيع على هذه الورقة التي لا تلزمني بشيء عمليًا، سيخرجني من هذا المكان.

أعطاني المحقِّق هويتي وترك لي الخيار لمراجعتهم إن أحببت، كما يفعلون دائمًا في مثل هذه الحالات، ولم أجب بشيء. ركض الشاب الذي كان في استقبالي وودعني، ويبدو أنني تركت لديه انطباعًا جيدًا خلال الدقائق التي قضيتها في مكتب الاستقبال، فيما كان زميله الآخر ينظر إليّ بما ينمّ عن شعورٍ بحبِّ الانتقام، مستغربًا خروجي من الفرع بعد عدة ساعات فقط. في كل الأحوال كان الباب الخارجي قد فُتِح، فانطلقت لا ألوي على شيء!

19 تشرين الثاني/ نوفمبر 2012

اتصل بي نائب السفير الإيراني بدمشق يدعوني إلى حضور مؤتمر الحوار الوطني السوري الذي تنظِّمه الحكومة الإيرانية في طهران، وعرض عليَّ خدماته لتذليل العقبات المتعلقة بسفري، منها تأمين الحصول على جواز سفر والخروج من المطار! ومع أنّي طلبت منه مهلة 24 ساعة، متظاهرًا بالحاجة إلى لتفكير في الأمر، فإنّ قراري كان قد اتُّخذ سلفًا بعدم المشاركة في أي لقاءات إقليمية أو دولية في هذه المرحلة التي قد يُفهم منها اتِّباع أجندات الدول المنظِّمة لمثل هذه المؤتمرات. وهكذا، حين عاود نائب السفير اتصاله بعد انقضاء هذه المدة، اعتذرت منه عن الحضور، متذرعًا بأحوال خاصة.

7 أيار/ مايو 2013، رائحة الموت

هزّني بعد أشهر من الانكفاء واليأس، والحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية، ما حصل في قرية البيضا ومدينة بانياس[253]، حيث قامت قوى غير نظامية من اللجان المحلية و"الدفاع الوطني" بهجوم راح ضحيّته العشرات من الأبرياء، كما حُرقت عشرات المنازل أيضًا. كان لا بد من فعل شيء، ومواساة من نكبوا في هذا العمل البربري.

(253) روت لنا إحدى الناجيات من مجزرة رأس النبع في بانياس، في أثناء توزيعنا لمواد الإغاثة في مركز الهلال الأحمر، أنّ حواجز الجيش الثابتة في المدينة ساعدتهم على الفرار حيث غطتهم بالنيران وطلبت منهم الانحناء والزحف.

لم تكن هذه المجزرة هي الوحيدة في هذه الحرب، ولن تكون، فقد قام/ اتُّهم أنصار النظام بارتكاب العديد من المجازر[254] التي راح ضحيتها المئات في مختلف المدن والبلدات السورية المنتفضة، كما اتّهم/ قام التكفيريون بمجازر وأعمال خطف بحق المدنيين في حربهم ضد "النصيرية!"[255] انطلاقًا من فتاوى طائفية بغيضة.

استيقظت ابنتانا منذ الصباح الباكر لتجمعا من حاجاتهما حقيبةً من أجل المنكوبين، وسالت دموعهما معًا حين أخبرتهما مساءً حول الأمر، بمقدار ما سمح

---

[254] على سبيل المثال لا الحصر:

- مجزرة كرم الزيتون، وقعت في في 2012/3/11.
- مجزرة داريا، وقعت في الفترة بين 20 – 25 أغسطس 2012م في مدينة داريا بريف دمشق.
- مجزرة الحولة، وقعت يوم 25 مايو 2012م في قرية الحولة بريف حمص.
- مجزرة القبير، وقعت يوم 6 يونيو 2012م في قرية القبير قرب مدينة حماة

http://www.sasapost.com/syrian-army-massacres/

- في 21 /2013/8 ارتُكبت مجزرة الكيماوي في غوطة دمشق التي راح ضحيتها المئات من المدنيين والأطفال خاصَّة.
  أكدت لجنة الأمم المتحدة المشكلة للتحقيق في القضية استخدام السلاح الكيماوي؛ لكنها لم تحمل أي طرف المسؤولية.

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2013/08/130821_syria_many_killed_chemical_weapons

- .... الخ.

[255] مثل:

- مجزرة قرية عقرب في الريف الغربي الجنوبي لمدينة حماه في 2012/12/11،

http://www.yemeress.com/aljnoobmedia/57216

- مجزرة قرية معان بريف حماه بتاريخ 2014/2/11،

assafir.com/Article/337428/RelatedArticle

- وفي 8/6/ 2013 هاجم متطرفون إسلاميون (أحرار الشام وجبهة النصرة) 8 قرى آمنة في الريف الشمالي لمدينة اللاذقية فارتكبوا المجازر بحق المدنيين واختطفوا عشرات النساء والأطفال.

http://www.alhadathnews.net/archives/93331

- مجزرة اشتبرق، جسر الشغور، 25 نيسان 2015.

al-akhbar.com/node/231746

- مجزرة الزارة، ريف حماه، 13 أيار 2016

www.al-akhbar.com/node/257784

.. الخ.

به استيعاب الطفلتين. قدتُ سيارتي إلى مدينة طرطوس، التقيت هناك عددًا من الناشطين والناشطات الذين نظموا حملة إغاثةٍ من خلال جمعية العاديات وبمساعدة الهلال الأحمر. حضر عناصر الاستخبارات لتسجيل بيانات هوياتنا، ثم انطلقت القافلة محملةً ببعض السلع الضرورية التي جُمعت بصورة عينية أو شريت من التبرعات، ورافقتنا عدة سيارات تحمل مساعداتٍ أخرى مقدَّمة من الهلال الأحمر.

وُزِّعت في مركز الهلال الأحمر ببانياس المساعدات على المتجمعين. لم تكن قد مضت عدة أيام على المجزرة[256]، وارتسمت على الوجوه ملامح من الوجوم والحيرة والرعب. غرق الرجال في الصمت، فيما لم يكن بوسع النساء كبح ألسنتهن على الرغم من الخوف، فتحدّثن إلينا عمّا حصل في حيّ رأس النبع ببانياس، وعن البيوت التي حُرقت والجرحى الذين لم يكن بالإمكان إنقاذهم بسبب عدم استقبالهم في المستشفيات. اختلط البكاء بالكلمات والاستغراب، وشاركت الناشطات اللواتي يرافقننا النسوةَ بذرف المزيد من الدموع.

بقي القرار الأصعب، ألا وهو الوصول إلى قرية البيضا المنكوبة والمعزولة نسبيًا[257]. قدت سيارتي بصحبة صديق وثلاث شابات[258]، ورافقتنا شاحنة صغيرة محمّلة بالمساعدات. تخطينا الحواجز العسكرية والأمنية، رافعين راية الهلال الأحمر وملصقات جمعية العاديات بطرطوس، حتى وصلنا إلى كنيسة قرية "المران".

توقفنا في باحة الكنيسة التي كانت تعجُّ بالنساء والأطفال، قدمنا لهم بعض ما لدينا، وسلّمتُ إحدى النسوة ما قدمته طفلتيّ من ألبستهما وأحذيتهما وألعابهما للطفلات النازحات من بيوتهنّ. عمل القيِّمون على الكنيسة ما في وسعهم لإغاثة منكوبي قرية البيضا وتقديم الطعام والحاجات الأساسية إليهم.

---

[256] بدأت العملية صباح يوم الخميس في 2/6/ 2013.

[257] سمعت في هذه الزيارة، من مصادر عدة، أهلية ومن الجيش والأمن العسكري، بأن جماعات "الدفاع الوطني" هم من قاموا بالمجزرة، وأن الأوامر صدرت من القيادات العليا في الجيش ليلًا للانسحاب من القرية، وهذا يعني أنهم لم يكملوا مهمّتهم!

[258] شكلت بعض الفتيات من حي القصور ذي الأغلبية العلوية، جمعيةً أسمينها "تواصل" من أجل إغاثة جيرانهم المنكوبين، وكنّ أول من وصل إلى حيّ رأس النبع لإسعاف المصابين، وتعهدن أمامنا بمتابعة موضوع قرية البيضا قدر الإمكان.

توجهنا بصحبة عدة أشخاص إلى ساحة قرية البيضا، منهم شيخ القرية الجديد الذي حلَّ مكان شيخ الجامع الشهيد السابق[259]. بدت القرية خاليةً ومقفرة بعد حرق نحو ربع بيوتها، ولم تبدُ آثار معركة عنيفة، باستثناء بعض الطلقات الرشاشة التي أصابت عدة منازل في مدخل البلدة.

أبلغنا شيخ القرية أنه دوَّن أسماء 146 شابًا وصبيًا، ثم صلى عليهم، ودُفنوا في مقبرة جماعية، فيما فرَّ نحو 700 شخص إلى البساتين المجاورة، وما زال العديد منهم في عداد المفقودين. أضاف الشيخ: إن مراجعاته للدوائر الأمنية في اليومين التاليين للمجزرة لم تسفر عن معرفة مصير المفقودين، وأنهم طلبوا منه التريث والانتظار. في هذه الأثناء، كان قد تجمع نحو عشرين رجلًا وفتىً ، وجلُّهم لم يكونوا موجودين وقت المجزرة.

انقسمنا إلى مجموعتين، اتجهت كل منهما إلى حارة من حارات القرية للاطلاع على الوضع عن كثب. كان دليلَ مجموعتي شابٌ جامعي يدرس الهندسة، كان قد نجا بسبب اختبائه تحت "الصوفا" في حين قُتل أخوه في العملية، كما قال. دخلنا البيوت ووجدنا آثار الأواني والحاجات المحروقة. عزّينا كلّ مَن صادفناه من الأهالي الذين كانوا ما يزالون في مرحلة الصدمة، وقال أحد مرافقينا: إن "الوضع ما قبل مجزرة البيضا لن يكون على حاله بعدها."

قبل المجزرة بأيام، كان أحد قادة ميليشيا "الدفاع الوطني[260]" قد هدّد، في شريطٍ مصوَّر، المسلحين في هذه القرية، وظهر برفقته بعض الأشخاص، منهم رجل دين أيضًا[261].

في الواقع، كان من المتوقَّع أنّ فتح أي معركة عسكرية[262] في منطقة الساحل سيتسبَّب بانتقام رهيب، إذ كان يجري تمرير التحذيرات بين وقت وآخر، ليس في

---

[259] الشيخ عمر البياسي الذي استشهد في المجزرة.

[260] ع. ك. قائد ميليشيا "المقاومة السورية".

[261] www.youtube.com/watch?v=9AVi87aRnuc .

[262] هُوجمت قبل يومين من المجزرة، حافلة تقل عناصر من اللجان الشعبية فقتل وجرح نحو ثلاثين عنصرًا منهم.
http://en.trend.az/world/arab/2146620.html

بانياس فحسب؛ بل في المدن الساحلية كلها، بعد احتدام الصراع في باقي أنحاء سورية خاصَّة.

بالطبع، لا يمكن تبرير هذه الجريمة البربرية على الإطلاق؛ لكن، في الوقت ذاته، لا بدّ من إدانة سلوك هؤلاء المسلحين المغامرين الذين لم يدركوا خطورة الوضع على المدنيين العُزَّل في مثل هذه الأوضاع.

***

عدنا في 25 أيار/ مايو 2013 إلى قرية البيضا، ووزعنا المساعدات بمؤازرة الهلال الأحمر أيضًا. اجتمعنا في ساحة البلدة مع مجموعة من الأهالي الذين كانوا قد استعادوا رشدهم بعد هول الصدمة، ومن ضمن ما سمعناه أن أحد عناصر الأمن العاملين هناك قام قبل المجزرة بأيام بتوزيع السكاكر في ساحة البلدة بعد أن رُزق بصبي، كإشارةٍ إلى عدم علاقة هؤلاء بما حدث وتحميل المسؤولية الكاملة لعناصر "اللجان الشعبية." كما حدَّثنا عسكري على أحد الحواجز أنهم شاهدوا النيران تندلع ليلًا في بيوت القرية فأبلغوا قادتهم العسكريين، وبعد ساعتين خرج المسلحون، وكانت الساعة حوالي الثانية بعد منتصف الليل.

كان ثمة إصرار على تحميل "اللجان الشعبية" من القرى المجاورة المسؤولية، ومع أنهم هم بالفعل مَن ارتكب المجزرة، فقد أراد الأهالي تطمين أنفسهم والحصول على بعض الأمان من خلال الإيحاء بأنّ ثمة قوى نظامية، الجيش خاصَّة، يمكن أن تحميهم من هؤلاء "المنفلتين" الذين لم يهبطوا من كوكبٍ آخر بالطبع، وربما كانوا يؤدون في نهاية المطاف أدوارهم المرسومة لهذه الدرجة أو تلك!

زرنا في ختام جولتنا، كنيسة قرية البيضا على منحدر حادٍ أعلى القرية. صادف ذلك وصول شاحنة تنقل مساعدات من جمعية خيرية مسيحية في حلب، ولم يتوقّف العاملون في هذه الكنيسة أيضًا عن مساعدة جيرانهم في القرية منذ اللحظات الأولى للمأساة.

مؤتمرات الطوائف؛ مؤتمر "كلنا سوريون" في القاهرة[263]

عملت قوى الإسلام السياسي، مدعومةً من قبل حلفائها الإقليميين، على صبغ الصراع في سورية بصبغةٍ طائفية وتحويله إلى صراع أهلي، مستندةً إلى مفهوم الغلبة العددية الطائفية والتحريض الشعبوي؛ من أجل تسلّقهم على آلام البسطاء ودمائهم، وتشييد بنيان استبدادي جديد، بعيدًا عن روح المواطنة ومصلحة الشعب السوري بكامله في الانتقال إلى الدولة المدنية الديمقراطية.

منذ تشكيل "المجلس الوطني"، كتعبير سياسي مزعوم عن الثورة السورية، عمل المتحدثون باسمه على زرع بذور التفرقة بين السوريين. ونزولًا عند طلبات السفراء الأجانب، حاولوا تلوين بنيتهم السياسية التي يهيمن عليها الإسلاميون، بمزقٍ من الأقليات؛ أي بأشخاص يتبعونهم كعملاء، لينسجم ذلك مع تبعيتهم للدول الإقليمية والأجنبية. في هذه الأثناء، اتَّخذ الصراع في سورية مظهرًا طائفيًا خادعًا، إذ لم يكن في الواقع سوى صراع مصالح لدول إقليمية تستخدم المكونات السورية لتحقيق مآربها، وقد تنبَّه معظم السوريين على خطر التحريض الطائفي من جميع الأطراف.

---

(263) http://orient-news.net/?page=news_show&id=2614

صدر في نهاية المؤتمر بيانٌ عبّر عن "ضرورة إخماد الحريق السوري أولاً ومن ثم إسقاط النظام مهما كانت التخوفات من البديل المقبل (!) وتوجه المؤتمرون إلى السوريين جميعهم لإنقاذ سورية، وإلى القادرين منهم على الفعل خاصّة، وحثوا الجيش على الإجهاز على عصابة الحكم الفاسدة، والموالين للابتعاد عن النظام، والمعارضة لوقف سفك الدم والتعاون من أجل إسقاط النظام، وأنّ سورية المقبلة لن تكون إلا على جثّة هذا النظام." إنها مجموعة من جمل اللغو السياسي التي تفتقد لآليات تحققها!

في هذه الضبابية السياسية، جرى إقناع بعض أبناء الأقليات بتشكيل كيانات طائفية لتبرِّر طائفية الإسلاميين. ولأنّ معظم المثقفين "العلويين" هم من العلمانيين، فقد سموا مؤتمرهم "كلنا سوريون" كحالة توفيقية، متغافلين، بحجج واهية[264]، عن حقيقة أنّ حلول المشكلات الطائفية لا يمكن أن تكون إلا بالمواطَنة، وبلا مواربة.

رفضت حضور هذا المؤتمر، الذي عقد بتاريخ 25 آذار/ مارس 2013، ودخلت في حواراتٍ مريرةٍ رفضًا لهذا التوجه القاضي بعقد مثل هذه المؤتمرات الطائفية أو شبه الطائفية، بعد أن خبرتُ طائفية متأسلمي المعارضة وأتباعهم من الليبراليين والعلمانيين الباحثين عن فتات الشهرة والمال خاصَّة. عُقد المؤتمر بنسخته الثانية في اسطنبول بتاريخ 11/12/ 2013، وأصدر بيانًا أكثر تواضعًا [265].

---

[264] منها مثلًا القول: إنّ سورية تحتاج إلى عقد جديد لمكوناتها كما حدث عام 1936 إبان الانتداب الفرنسي، حينما تشكلت سورية الحالية من الدويلات التي أنشأها الفرنسيون؛ أي دويلات حلب ودمشق والدروز والعلويين. لاحقًا، فطن معظم المشاركين في هذا المؤتمر، بنسختيه، إلى هذه "اللعبة"، ماعدا بعض المنتفعين من مثل هذه الارتباطات الذين أصبحوا برعاية الاستخبارات التركية بصورة سافرة (باعتراف إحدى المشاركات)، وعقدوا مؤتمرًا آخر في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 2015

http://lebwindow.net/177780

[265] وردت في البيان الختامي، هذه المرة، شكوك حول "إمكانية توحيد الجيش الحر مع الكتائب الاسلامية؟" وأن "بعض الأطراف تريد تدمير سورية من خلال إنهاء حالة الجيش الحر بقوة بعض الإسلاميين وداعميهم." وهكذا تغيرت لهجة المؤتمِرين بصورة واضحة في أقل من سنة، كأنهم قد استيقظوا من غفلتهم، وقد تحقّقت معظم هذه التخوفات بالفعل، وبسرعة قياسية

http://syria-nass.com/?p=7633

تلك الرصاصات "الطائشة!"

كنتُ في الأول من حزيران/ يونيو 2013 أقود سيارتي على مشارف مدينة الدريكيش حين دوّت، على حين فجأة، عدة طلقات نارية، تلاها صوت ارتطام قوي في سقف السيارة، فوق رأسي تمامًا. التفت إلى الوراء لأُطمئنّ على طفلتيّ في المقعد الخلفي، فاختل توازن السيارة وخرجت عن الطريق. استعدت التوازن بصعوبة وتابعت القيادة بسرعة، بعيدًا عن المكان، وعدت إلى البيت من طريقٍ آخر. حين ترجّلت من السيارة، وجدت أنّ ثمة طلقةً بندقية كلاشينكوف قد اخترقت سقف السيارة بصورةٍ مائلة واستقرت داخل السقف.

حتى الآن، لا أعرف إن كان ما حدث مجرّد مصادفة؛ بسبب فوضى استعمال السلاح أم أنه أمر آخر؟ في جميع الأحوال لم يكن ثمة من مهرب، استسلمت لقدري وتابعت حياتي، وكأنّ شيئًا لم يكن؛ لكنّي بقيت أتحرك وحيدًا في السيارة لعدة أشهر. كان ثمة أكثر من سبب يمكن افتراضه لما حدث، بيد أنني عقدت العزم أن أبقى في الحطام السوري مهما حصل، انسجامًا مع مواقفي وقناعاتي!

عرّجت قبل عدة أيام من هذه الحادثة، لزيارة أحد زملاء [266] الدراسة من الأطباء في عيادته بمدينة طرطوس. استقبلني الزميل بارتباك وخوف، على غير عادته، وطلب مني، وهو يلتفت في جميع الاتجاهات، أن أتوارى وأكبح نفسي، فـ "الأمور خطرة جدًا" كما قال، ولم يقدّم لي أي إيضاحات إضافية. ما الذي كان يحدث يا تُرى؟

---

[266] سُجن صديقي هذا ظلمًا لثلاث سنوات؛ بسبب مواقفه ضد الفساد، منها ثمانية أشهر في زنزانة منفردة، وتحلّى طوال حياته بموقفٍ أخلاقيّ كإنسانٍ وطبيب، بيد أنه خضع، بعد خروجه من السجن، وربما تحت ضغط الوحدة واليأس، لتأثير بعض المنافقين من مُدعيّ التدين، فزادت غربته غربة، لكن، ربما، منحه ذلك بعض السكينة والخدر. كان صديقي هذا قد أسرّ لي، في محاولة لإظهار فضل التديّن عليه، بأنّ ما أبقاه حيًا في رطوبة الزنزانة هو قراءة كتابي القرآن ونهج البلاغة، وقد هرّبهما له أحد السّجانين.

11 حزيران/ يونيو 2013، تشكيل الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة

وصل "المجلس الوطني" في هذه الأثناء، إلى طريق مسدودة، ولم تعد وسائل التلميع كافَّة قادرةً على تجميل صورته التي لا تشبه سورية في شيء، فشُكل الائتلاف الوطني السوري، بالتنسيق بين صديقي والسفير الأمريكي السابق في دمشق "روبرت فورد"، كما تناقلت الأخبار.

لم تتبدل هيكلية "المجلس الوطني" ولا طبيعة ارتباطاته، فحمل الائتلاف الجديد إشكالات "المجلس الوطني" وأضاف إليها إشكالاتٍ جديدة، منها دخول السعودية، من خلال كتلة الجربا- كيلو "الديمقراطية[267]"، بقوة على خطّ النفوذ القطري- التركي، الذي احتكر السيطرة على "المجلس الوطني" منذ نشأته.

بقيت المعارضة التي يمثلها الائتلاف على حالها، من حيث قلة فاعليتها على الأرض، واحتدام التناقضات البنيوية، سواء بين أطرافها أو بين الدول والمصالح التي ساهمت في تشكيلها. الفرق السياسي الأساس بين المجلس والائتلاف كان التفكير بطريقة ما لحلّ الصراع السوري، بعيدًا عن آمال تكرار الحالة الليبية[268] التي قام على أساسها "المجلس الوطني" السابق كتقليدٍ للمجلس الوطني الانتقالي المؤقت الليبي[269].

---

[267] اتحاد الديمقراطيين السوريين: عقد مؤتمره التأسيسي في 28 و29 أيلول/ سبتمبر 2013 وانتخب السيد ميشيل كيلو رئيساً له.

[268] انظر:

http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Iraq%20Syria%20Lebanon/Syria/146-anything-but-politics-the-state-of-syria-s-political-opposition-arabic.pdf

[269] شكل في 27 شباط/ فبراير 2011 بعد عشرة أيام من اندلاع الثورة الليبية.

المدنيون بين فكيّ كماشة المتحاربين

اضمحلّ الفرق تدريجًا بين ممارسات الطرفين المتصارعين؛ فكلاهما يستعملان ما لديهما من أسلحة بلا تردُّد، فيما عَلِق المدنيون بين تقاطع النيران[270] وفرّوا إلى أيِّ مكانٍ آمنٍ، نسبيًا. استخدمت الفصائل المسلحة القذائف البدائية والتفجيرات بالسيارات المفخخة ضد المراكز العسكرية والمدنية على حد سواء، فيما استخدم النظام البراميل المتفجرة شبه العشوائية[271] لإمطار المدن التي يحتشد فيها المسلحون، وفي كلتا الحالتين، كان جلّ الضحايا من المدنيين.

---

[270] عبر أحدهم بسخرية عما حدث له في هذه الحرب المجنونة:

(أنا من إحدى بلدات محافظة إدلب وأسكن في حي الزراعة باللاذقية منذ ثلاثين سنة. في إحدى المرات، سقط صاروخ على منزل العائلة في البلدة ودمره، فجاء في الشريط الإخباري للإخبارية السورية، "تدمير أحد الأوكار الإرهابية في...، قلت لزوجتي: ها قد أصبحنا إرهابيين يا امرأة. بعد عدة أشهر، سقط صاروخ على مدخل بنايتنا في حي الزراعة باللاذقية، ولم تمضِ دقائق حتى كان إعلام محطة أورينت "الثوري" يبث: "الثوار يدكون معاقل الشبيحة في حي الزراعة باللاذقية"، عندها قلت لزوجتي: وها قد أصبحنا الآن شبيحة يا امرأة، ومن حسن الحظ أننا أنجبنا أولادنا قبل "الأزمة/ الثورة" وإلا لكانوا "بدون" أو...!).

[271] لم يخل الأمر من بعض المفارقات؛ حدثني أحد أبناء المنطقة أن أحد الطيارين، وهو من قرية علوية مجاورة، كان يرمي البراميل المتفجرة في مقلع حجارة مهجور بريف إدلب حتى انكشف أمره.

أزمة الترسانة الكيماوية السورية

صعَّدت الإدارة الأمريكية من لهجتها بعد توجيه التهمة للنظام بارتكاب مجزرة الكيماوي في ريف دمشق، وهددت بضرب مراكز قوى النظام، فما كان من وليد المعلم؛ وزير خارجية النظام، إلا أن طار إلى موسكو، معلنًا من هناك قبوله بتسليم الأسلحة الكيماوية وما يتعلق بها [272]. كان التخلُّص من الترسانة الكيماوية السورية هدفًا ملحًا للإسرائيليين والأميركيين، ولم يفوتوا هذا الهجوم الكيماوي لتحقيق هدفهم. اتّضح، وبما لا يقبل الشك، بأنّ النظام لا يفهم غير لغة القوة. في الوقت ذاته، كانت إسرائيل تراقب من مراصدها في هضبة الجولان تلك الوقائع المتسارعة على الأرض السورية، وكأنها في حلم جميل!

---

[272] وقّع الاتفاق بين النظام والمجلس التنفيذي لمنظمة حظر الأسلحة الكيماوية بتاريخ 2013/9/27 الذي تبناه مجلس الأمن بالقرار رقم 2118.

من جرائم التكفيريين

زحف التكفيريون في كل اتجاه، قتلوا الحياة والرموز والتماثيل[273]، وساهموا في إعادة سورية إلى عهد البربرية، وردّوا على الجنون "العصري" بجنونهم الغابر. كم هالني قتلهم لأحد الأطباء[274] الذي كان طالبي في جامعة حلب خلال العام الدراسي 2004/ 2005، بتهمة علمانيته! عمل الطبيب بعد تخصصه في الجراحة العظمية في مستشفى تابع لمنظمة أطباء بلا حدود بريف حلب الشمالي، ووجدت جثته بتاريخ 3 أيلول/ سبتمبر 2013 مرميةً في العراء قرب المستشفى الذي عمل فيه. كان الراحل قد أرسل لي عدة رسائل[275] تحدّث فيها عن أولئك الغوغاء الأجانب الذين يدخلون إلى الجوامع ويكفِّرون الأفراد والجماعات، انطلاقًا من فتاوى تاريخية لم تجلب للمسلمين سوى الفتن.

كان الشهيد محمد من أكثر الطلبة قربًا منّي، وطرح عليَّ كثيرًا من الأسئلة الاجتماعية والسياسية بكل لطفٍ وتهذيب، كما كان متدينًا سمحًا ولا يستفزّ مخالفيه في الرأي. لاحقًا، أوضح لي بعض أصدقائه أنّ ثمة من حرَّض عليه من زملاء الدراسة، ليلقى مصيره المأسوي هذا!

---

(273) في الإشارة إلى تحطيم تمثال المعري في 11 شباط/ فبراير/ 2012، وكان ذلك مجرّد بداية! ومع ذلك، اجتهد "مثقفون" في التبرير؛ بالقول مثلًا: إنّ التمثال ليس هو النسخة الأصلية، وكأنّ الظلاميين يهمهم نوع المادة المنحوت منها وليس الرمزية الحضارية لكل فكر وعقل! لم يستثنِ الانحطاط الأخلاقي الذي رافق الحدث السوري "إلاّ من رحم ربي"، وتسارع الانزلاق نحو الهاوية، في وقت كان فيه مئات آلاف السوريين يفرون، ليس إلى شعاب مكّة، إنّما عبر قوارب الموت، إلى حيث تُحترم كرامة الإنسان وحريته، مطلبهم الأساس الذي فجّر كل هذا الحضيض!

(274) الدكتور محمد أبيض.

http://www.msf-me.org/ar/news/news-media/news-press-releases/msf-surgeon-killed-in-syria.html

(275) للأسف، مرة أخرى، حال الحذف المتكرِّر للرسائل بسبب المخاطر الأمنية من دون الاحتفاظ بكثير من المواد التوثيقية.

10 تشرين الثاني/ نوفمبر 2013

أعلنت معظم الفصائل المقاتلة عدم اعترافها بالائتلاف كممثل للمعارضة، وشكلت "الجبهة الإسلامية" في سورية في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 2013[276]. ترافق ذلك مع تزايد متصاعد لدور الجهاديين من تنظيمي "داعش" و"النصرة" الإرهابيين.

باستثناء شعار إسقاط النظام الذي استبدله لاحقًا شعار إسقاط الرئيس، سيجري القتال من دون سياسة. حتى هذا الشعار لم يكن يعني كثيرًا بالنسبة إلى الجهاديين التوّاقين لبناء إماراتهم "الإسلامية" وممارسة استبدادهم الفصامي على أي بقعة من سورية، سقط النظام أم لم يسقط! في الوقت ذاته، تنامى تدخل حزب الله في سورية، إضافة إلى عناصر إيرانية أو تلك التي تعمل بإشراف إيراني مباشر؛ الأمر الذي أعطى الصراع مظهر حرب إقليمية سنية- شيعية، مع أنّ نتيجة الصراع لن تكون سوى تقاسم المصالح التي ستتحدَّد تبعًا لحجم التغيرات الجيوبوليتيكية في خريطة المنطقة.

---

(276) http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=23112013&id=6be186ce-105e-47cd-802d-f8dc19b6bc49

متعلمون و"مثقفون"![277]

حفلت في هذه الأثناء، مواقع التواصل الاجتماعي بانفلات غريزي طائفي، وتعمق الصّدع الاجتماعي كانعكاسٍ لحدّة الصراع على الأرض. كما وقع معارضون كُثر في فخّ النظام؛ بسبب تماثل منهجي التفكير، وليس لأنَّ النظام "جرّنا"[278] كما كانوا يدّعون!

اشتغل في كثير من الأحيان، الطائفيون من المنتمين إلى فئات "المثقفين"، وبعضهم معروف على نطاق واسع، اشتغلوا بحماس لشيطنة الطائفة العلوية، فحصلوا على التأييد من قبل جمهور غرائزي، واستثمروه في ربح سريع، مضحّين بخراب "تجارتهم" المبنية على مثل هذه الأحقاد. لم يكن الأمر في مثل هذه الحال على المستوى الشعبي، وبقي ضمن الحدود المقبولة من التعايش، على سبيل المثال، ما إن كانت تنقضي فترة التعارف الحذر لوفود النازحين في المناطق الساحلية، حتى يعيش الناس مع بعضهم بصورةٍ طبيعية. لعلّها أحد مفارقات الحالة السورية، حيث يتخلّف المثقفون عن الوعي الشعبي، أو أنهم يأخذون بأسوأ ما فيه ويعمّمونه[279].

تستحق ظاهرة تخلُّف المتعلمين والمثقفين وتعصبهم، مقارنة بعامة الناس في سورية، المزيد من الدراسة والتمحيص لاستجلاء هذه المفارقة؛ لعلّهم كانوا أكثر الفئات التي رضعت من ضرع ثقافة الاستبداد ومناهجها التعليمية المتخلّفة، فضلًا عن ركام مديد من ثقافة الخنوع المتجذِّرة في العقول، سواء تعلّقت بالتدين الطقوسي أو الباطني على حدّ سواء، ولم يشكل ما جمعته معظم "النُّخَب العلمانية"، من ثقافة عامة وكتابات استشراقية، أكثر من قشرة رقيقة لم تصمد أمام المحن.

---

[277] ورد في عام 1899 في رسائل الكاتب الروسي أنطون تشيخوف إلى أخيه: " ليس الحاكم وحده مذنبًا، إنما الصفوة المثقفة بأثرها. وأنا لا أؤمن بالصفوة المثقفة، المنافقة، الكاذبة، المهووسة، قليلة الأدب، الكسولة، إنني أثق فقط في أشخاص بعينهم".
http://diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=11114

[278] تكرّرت هذه العبارة "النظام جرّنا" على ألسنة معارضين كثر التي قد تكون صحيحة على المستوى الميداني، لكن كم تبدو بائسة حين يتحدث بها سياسي معارض؛ لأنها تكشف شعبوية مثل هؤلاء المعارضين وتعاملهم في السياسة بردود الأفعال وانفصامهم عن الواقع، واستطرادًا، عدم القدرة على التأثير فيه.

[279] يحتاج هذا الأمر إلى بحث علمي رصين لتفحُّص طرائق التعليم السائدة في عهد الاستبداد، فضلًا عن المؤثرات الثقافية الأخرى.

مؤتمر جنيف 2

عقد مؤتمر جنيف 2 في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير 2014، بدعوةٍ من الأمين العام للأمم المتحدة وفشل في تنفيذ ما اتُفق عليه في مؤتمر جنيف 1 فيما يتعلق، بتشكيل حكومة انتقالية واسعة الصلاحيات خاصَّة. حيث لم تكن للمرة الثانية ثمة إرادة دولية لفرض الحلّ السياسي على الطرفين؛ لأن ذلك سيتطلَّب توافقًا سياسيًا روسيًا- أمريكيًا، وربما تدخلًا واسعًا على الأرض؛ الأمر الذي لم تكن الأطراف الدولية الفاعلة متفقةً عليه أو مستعدةً للقيام به، بما في ذلك التصدي للإرهاب بالجدية المطلوبة. أما النظام، الذي أغرته بعض الإنجازات العسكرية بدعم من حلفائه، فقد عاد إلى الركض وراء سراب الانتصارات!

شباط/ فبراير 2014، مخفر الشرطة

يُقال "الجار قبل الدار"، لكن ما العمل إن كان جيرانك يعتقدون بأنّ حياتك مستباحة باعتبارك تعارض النظام الذي يوالونه، وفي بلد لم تعرف أجيال فيها معنى المعارضة إلا كنبتة ضارة يجب اجتثاثها[280]!

كنا قد دعونا صديقين عزيزين للعشاء حين افتعل الجيران مشكلة سخيفة، ووجب علينا العضّ على النواجذ والتظاهر بأنّ "الأمور طبيعية". وبعد ليلةٍ من القلقِ والأرق، قررت تقديم شكوى لمخفر الشرطة؛ لأن الأمور أوشكت على أن تخرج عن السيطرة، وأنّ مقولة "داروا سفهاءكم"، التي نصحني بها صديقي المحامي، لم تعد تجدي نفعًا. اكتشفت أن جيراني قد سبقوني إلى التشكي، مع تركيزهم على أنني جار معارض ولديّ "مشكلات مع الدولة" التي هي السلطة بنظرهم!

ما أودُّ الإشارة إليه من هذه الحادثة هو أن المخفر انقسم إلى فريقين: فريق يريد أن يحل المشكلة من دون تصعيد بقيادة رئيس المخفر[281]، وفريق ثانٍ كان متحفِّزًا للانتقام من المعارض.

هنا يكمن جوهر إحدى القضايا الرئيسة في سورية، إذ إنّ الخلط بين مؤسسات الدولة السورية والتسلُّط الأمني عليها جعل السوريّ يكفر بهذه المؤسسات ويعتبرها مظهرًا من مظاهر السلطة المستبدة فحسب، كما يشير، في الوقت ذاته، إلى أهمية التمسك بمؤسسات الدولة والعمل على تخليصها من براثن السلطة؛ لتتمكّن من العمل بصورة طبيعية وقانونية. في هذه الحالة، تصرف رئيس المخفر بحيادية وقانونية؛ وقعنا على تعهدات متبادلة بعدم الاعتداء وحُلَّت المشكلة شكليًا.

---

[280] جاء في نشيد بعثي: "أنا بعثٌ وليمت أعداؤه... عربي عربي عربي".

[281] أصرّ رئيس المخفر الذي كان يتحدّث بلهجة المناطق الشرقية من سورية، على ممارسة صلاحياته من دون الالتفات لما عداها، ووضع حدًا للاستفزازات، فهل فعل ذلك انطلاقًا من مهنية وحيادية، أم أنه كان متعاطفًا معنا، كما ادّعى خصومه؟ الجواب ليس سهلًا لاستحالة التلميح أو التصريح بذلك؛ لكنّ الجوهري في الأمر أنه تعامل معنا كمواطنين، وضمن إطار القانون.

مساعدة أم رشوى؟

اقترح في ذلك الحين، أحد أعضاء الائتلاف البارزين على إحدى صديقاتي أن تختبر ردة فعلي بخصوص تقديم مساعدة مادية. لم أعرف إن كانت تلك المساعدة مبادرةً شخصية من هذا العضو، أم من الائتلاف نفسه. مهما يكن فقد رفضتُ الأمر رفضًا قاطعًا، وقلتُ: إنّ من يودّ الخير لي ولأسرتي يمكنه المساعدة في تأمين عملٍ شريف أعيش منه بتعبي وكدّي، وكنا نعيش وقتها، جزئيًا، من أعمال الترجمة.

اخترنا، كأسرة، عدم الخروج من سورية مادام ثمة مكان شبه آمن للعيش فيه، مع أنّ علاقاتنا، في أثناء وجودنا بدمشق، كانت تسمح بحصول مثل هذا الخيار كلجوء سياسي أو إنساني بسهولة. الأرض أرضنا، ومن بقي من هؤلاء الناس هم أهلنا، مهما حصل، ولا مبرر أخلاقي لعدم مشاركتهم معاناتهم اليومية[282].

[282] ربما كان لتجربة التهجير إلى دمشق، ومعاناتها على الصُعُد كافّة، بما فيها ممارسات بعض أوساط المعارضة، دورًا مهمًا أيضًا في اتخاذ مثل هذا القرار.

آذار/ مارس 2014

وصلتني رسالة على الفيسبوك من أحد رجال الأعمال المعارضين في الخارج، ينبهني فيها إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر عدة أيام؛ بسبب معلومات عن التهديد بتصفية معارضين في الداخل. شكرته وطلبت منه الانتباه لنفسه، ولم أحرك ساكنًا!

حصل في هذا الشهر أيضًا هجوم مفاجئ وكبير على منطقة كسب في ريف اللاذقية الشمالي، فيما سميّ بمعركة "الأنفال"[283]. كانت الأراضي التركية هي الخلفية الرئيسة التي انطلق منها المهاجمون، وعلى رأسهم جبهة النصرة وأنصار الشام (بزعامة الشيشان المدعومين من تركيا)، ومن ثم تتابعت الكتائب ذات المسميات المختارة من قواميس التاريخ الغابر!

ظهر قادة "النصرة" و"أنصار الشام" على قناة الجزيرة وهددوا "النصيرية" بالطبع، فكان أن حصل تضامن اجتماعي ملموس لمواجهة المهاجمين الغرباء، وتطوعت النسوة لتحضير الطعام وإرساله إلى الجبهة، وجرى استيعاب الهجوم خلال أيام. قطف النظام ثمرة جديدة في دعوى الحرب على الإرهاب، وخسرت المعارضة الطائفية الداعمة للكتائب الإرهابية جولةً أخرى في مساعيها لإسقاط النظام بوساطة منظمة "القاعدة" وتفريعاتها السورية.

تساقطت بموازاة ذلك، القذائف العشوائية على مدينة اللاذقية، كما على المدن الأخرى، وسقط بعضها في محيط منزلي، ما يذكِّر بقذارة الحرب، أي حرب. ثم تكيّف الناس، كعادتهم، وصار سقوط قذيفة يدفع بالقليل من المارّة للالتفات إلى مكان سقوطها، والمكابرة على الخوف أو محاولة استبطانه!

---

(283) 20 آذار/ مارس 2013

https://www.youtube.com/watch?v=rbvck-oL_V4

ذهبت مع أحد الأصدقاء في جولةٍ على طريق كسب في يومٍ من أيام المعارك العنيفة، من أجل استكشاف الوضع عن كثب، ووصلنا إلى مقربة من سدّ بلوران. ما لفت انتباهي هو الخوف الذي كان يبدو على محيّا شباب في مقتبل العمر، سواء أكانوا على الحواجز أم أولئك المتجهين إلى جبهات القتال، وأن طبيعة البيئة تجعل الموت حاضرًا في كلّ منعطفٍ وزاوية خاصَّة. كيف لهذه الغابات الساحرة أن تصبح مكانًا للحرب؟ وكيف ماتت الحياة في سورية الجميلة وتدنّست أرضها بغزاةٍ من الأصقاع كافَّة؟ ومن مهّد الطريق لكلّ هذا الخراب والموت؟

أيار/ مايو 2014

جرت "المصالحة" في حمص القديمة، في 3 أيار/ مايو 2014 وقد سبقتها عشرات المصالحات، في ريف دمشق خاصَّة، وصمد معظمها بسبب وصول المعاناة إلى درجات يصعب تخيلها[284]. كان الأمر أقرب إلى الهِدن الحربية منها إلى المصالحات، وقد عجز المتقاتلون عن تحقيق نتائج حاسمة على الأرض، فوجد الاستعصاء مخارج له بهذه الطريقة.

أصدرت الجبهة الإسلامية في منتصف هذا الشهر، "ميثاق الشرف الثوري[285]" الذي يتبنى مشروع الدولة المدنية عوضًا عن الخلافة، ورفضته جبهة النصرة. ربما كان ذلك ضربًا من استشفاف حرب قادمة ضد الإرهاب، فكانت محاولة من الكتائب "المعتدلة" للنأي بالنفس، ولو قليلًا، عن "النصرة" و "داعش." أثار الميثاق مزيدًا من اللغط، إذ كيف لمن يتبنّى مشروع الدولة الإسلامية أو دولة الخلافة أن يجمع بينها وبين مشروع الدولة المدنية الحديثة، وما يفترضه ذلك من قبول الآخر؟

---

[284] جرت هذه المصالحة برعاية الأمم المتحدة. ربما تعود هذه المصالحات، جزئيًاإلى تخوف المتقاتلين السوريين من تزايد العناصر الأجنبية وتطرفها، وهذا ما لم يدركه من ينظر إلى المشهد من بعيد. في 26 آب 2016 حدثت مصالحة مشابهة في داريا، حيث نُقل 700 مسلح إلى إدلب بأسلحتهم الفردية ومع عائلاتهم، في حين تحول آخرون إلى اللجان الشعبية. مثّلت داريا رمزًا للثورة السلمية في الأشهر الأولى، ولم يدخل إليها المتطرفون الإسلاميون.

[285] http://aranews.org/2014/05/فصائل-إسلامية-مقاتلة-في-سوريا-توقع-على/

ومع أنه يجب الترحيب بمحاولة أمثال هؤلاء للخروج من شرنقة الأفكار المسبقة والانفتاح على العالم من حولهم، فإن مثل الانفكاكات والتحالفات لم تكن سوى انعكاس لإرادات الممولين الخارجيين في التراجع أمام الضغوط الدولية المتزايدة على تمويل الإرهاب، سواء أكانت مصادره دولًا، أو جمعيات تابعة لدول، أو مجموعات دينية أهلية[286].

اتسعت في الوقت ذاته، رقعة المعارك بين المسلحين، واندلعت حرب شرسة في ريف دير الزور بين داعش من جهة وجبهة النصرة والجبهة الإسلامية من جهة أخرى للسيطرة على آبار النفط في تلك المنطقة، ومن ثم ضمان مصادر تمويل العمليات القتالية والمشاريع السياسية المرتبطة بها، وستكون هذه المعارك بداية تمدُّد "داعش" وفرض نفسها كأقوى وأخطر تنظيم يعمل على الأراضي السورية.

[286] في مؤتمر الرياض المنعقد بتاريخ 8- 10 ديسمبر 2015، حضرت حركتا "أحرار الشام" و "جيش الإسلام" وصدر البيان النهائي الذي تضمن الكلام عن مفهوم الدولة المدنية الغامض، ولم يتّضح إن وافقت الحركتان عليه أم لا، لكن من المؤكد أنهما تعرضتا لضغوط من الطرف المضيف بعد تهديدهما بالانسحاب.

22 أيار/ مايو 2014

وصلت قوات نظامية إلى سجن حلب المركزي وفكّت عنه الحصار الخانق الذي استمر نحو 13 شهرًا. كان صمود المدافعين عن السجن، ملحمة تستحق الكتابة عنها كدراما بشرية معقدة وفريدة من نوعها، تشابكت فيها علاقات السجناء والسجينات وحامية السجن في الدفاع عن النفس واقتسام كل كسرة خبز، وتحدي الموت من أجل سحب بعض الذخائر أو أرغفة الخبز التي أسقطتها الطائرات في محيط السجن.

كانت حالة الحصار هذه واحدة من حالات حصار كثيرة ومأسوية عانى فيها، على نحو خاص، المدنيون في العديد من البلدات والمدن التي لم يكن لهم فيها أيّ خيار في زمن سطوة السلاح بألوانه وأشكاله كافّة.

حزيران/ يونيو 2014، انتخابات رئاسية جديدة ولا جديد

لم يكن ترشيح سوريَّين اثنين إلى جانب الرئيس لخوض الانتخابات الرئاسية في هذه الأوضاع[287] سوى خطوة روتينية، اللهم إلا فيما يتعلق بتخفيض النسبة المئوية التي سيفوز فيها الرئيس!

بدا الانتخاب الصوري مفارقة تاريخية مؤلمة في وقت ذي كان فيه نصف السوريين مهجرين في الداخل والخارج، ومؤشرًا لاستمرار الأمور في الانزلاق نحو الهاوية، وجرعة مُسكرة إضافية، وتشويهًا آخر لكلمة الديمقراطية، ذلك من ضمن عملية التزييف التاريخية التي طالت كثيرًا من القيم والمصطلحات والكلمات.

ربما دفع اليأس بقسم من السوريين؛ بسبب عدم تبلور بديل مقنع والانفلات الأمني المعادي لمفهوم الدولة، إلى الذهاب إلى الانتخابات. بالطبع، يصعب التحقق موضوعيًا من أي شيء حول هذا الأمر أو غيره، طالما لم تُجري استبيانات موثوقة. الثابت هو استنقاع الحالة السورية وتحولها إلى حرب عبثية متعددة الأطراف، وغياب الحلول التي تصبّ في مصلحة السوريين.

عدتُ في تلك الأيام، إلى الانعزال في بيتي بالدريكيش، محاطًا بغمامة من الإحباط واليأس. زاد من شعوري هذا تفاقم إصابتي المفصلية التي حدَّت كثيرًا من حركتي، فكنت أتجوَّل في الجوار مستندًا إلى عكازي، وأريح عينيَّ من خلال النظر في المدى الأخضر الجميل.

---

[287] أُجريت الانتخابات في 3 حزيران وأعلنت النتيجة في اليوم التالي. فاز الرئيس بشار الأسد فيها بنسبة تفوق 87%. بعد ذلك سادت هيستيريا حقيقية وإطلاق نار في المناطق التي يسيطر عليها النظام، بما يشبه الرقص فوق أشلاء سورية وجثث أبنائها، من دون أي وعي للمستنقع الذي نغوص فيه جميعًا.

www.alalam.ir/news/1599997

العصر الداعشي!

عرضت "داعش[288]" المزيد من فيديوهات الرعب عن الذبح وقطع الرؤوس، ما يذكر بأسوأ مراحل العنف في التاريخ الإسلامي[289]، فتجاوزت حليفتها منظمة القاعدة وفرعها النصرة في سورية فيما يتعلق بهذا النوع من الإجرام الذي تحدث مشاهده على مرأى من الجمهور، بما فيهم الأطفال، وفي لوحةٍ جديدة- قديمة للتداخل بين السياسة والعنف الديني[290].

نشرت "داعش" الرعب أينما حلت؛ سبت واغتصبت، باعت واشترت، حتى الجنود كانوا يفرون أمامها أحيانًا من دون قتال، تفاديًا للموت بقطع الرؤوس، كما قتل بعضهم أنفسهم وعائلاتهم حتى لا يقعوا في أسر متطرفين آخرين[291].

---

[288] داعش: مختصر الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام.

[289] كان قد حدث مثل ذلك في أوروبا المسيحية في القرون الوسطى، قبل أن يحلّ عصر التنوير وتتراجع المسيحية إلى كهنوتها وكنائسها.

[290] ذكر يوسف زيدان في كتابه " اللاهوت العربي وأصول العنف الديني- دار الشروق، القاهرة، 2009 " قصة مقتل الجعد بن درهم على يد الأمير خالد بن عبد الله القسري بجامع واسط بالعراق، حيث، وبعد انتهائه من صلاة عيد الأضحى، نزل من على المنبر وذبح الجعد بسكينه معتبرًا ذلك تضحيته بهذا العيد، ولم يستنكر أحد من الحاضرين هذا الفعل كما قال الإمام! ونقل عن الإمام الدرامي: "الجعد ذبحه خالد بواسط (العراق) يوم عيد الأضحى، على رؤوس من حضره من المسلمين، لم يعبه به عائب، ولم يطعن عليه طاعن، بل استحسنوا ذلك من فعله، وصوبوه.." (الرد على الجهمية ص 176).

كما استلهمت بعض الحوادث التاريخية في صدر الإسلام وتقليدها في القرن 21، إذ قام أحد المسلحين، ويدعى أبو صقار من كتائب الفاروق في ريف حمص الغربي، بفتح صدر جندي من الجيش النظامي وأكل كبده، في محاكاة لما حدث في أثناء غزوة أُحُد، حيث قامت هند زوجة أبي سفيان وصاحباتها بالتمثيل بجثث الهاشميين، ومنهم سيد الشهداء حمزة عم الرسول، بأن شققن صدره وأخرجن كبده ومضغنها حقدًا وتشفيًا (مصادر تراثية مختلفة).

https://www.youtube.com/watch?v=HtLnhGGEjZo

https://www.youtube.com/watch?v=7HgdP2hR63Q

[291] هاجمت بتاريخ 2013/12/11 مجموعات متطرفة مدينة عدرا العمالية بريف دمشق واختطف المئات، وربما الآلاف، من المدنيين، بمن فيهم الأطفال والنساء، كما حصل القتل والفرز على أساس طائفي، وذكرت الأخبار حالة أحد الضباط الذي قتل عائلته ونفسه كي لا يقعوا في أيدي التكفيريين. لاحقاً، قام جيش الإسلام بوضع الأسرى من النساء في أقفاص حديدية ونشرها في أماكن مختلفة من مدينة دوماً، في محاولة لردع النظام عن قصف المدينة!

https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_عدرا

حصل في الثاني عشر من شهر حزيران/ يونيو 2014 هجوم واسع ومفاجئ لمئات من عناصر "داعش" على مدينة الموصل العراقية. انهارت قطعات الجيش العراقي، فكشف ذلك عن هشاشة البنية السياسية والطائفية لنظام حكم نوري المالكي المدعوم من إيران. استمر تقدم "داعش" على نحو سريع في سورية والعراق؛ الأمر الذي دفع إلى تشكيل التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية لمحاربة هذا التنظيم، وبدء القصف الجوي على العراق ثم على سورية[292].

***

بدأ التململ في صفوف الجيش النظامي والقوى الحليفة في ذلك الحين، وازداد عدد الفارين من الخدمة العسكرية، بالتوازي مع زيادة الاعتماد على الفصائل الشيعية والمرتزقة من إيران وباكستان وأفغانستان. كما تحول بعض الفارين من الخدمة العسكرية إلى مجموعات "الدفاع الوطني" شبه المستقلة؛ لتوفير الحماية لهم، وللرواتب العالية التي كانوا يتقاضونها خاصَّة، كما كان يحدث في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام. ومع أنّ الحرب قد أفرزت بعض القادة الميدانيين، فقد بقيت قنوات الفساد في الجيش على حالها؛ بل إنها استفحلت، فلكل قضية سعر، بما في ذلك التهرُّب من الخدمة.

كما تحوّل الهمس تدريجًا إلى أصوات مسموعة حول أنّ المقاتلين يدافعون عن أهلهم وأنفسهم وبلدهم وليس عن النظام أو رئيسه، وأنّ ثمة سوءًا في إدارة "الأزمة"؛ ولكن إلى أين المفرّ؟ وفي بعض المناطق، صار عملاء النظام من البعثيين يمرون خلسة إلى خيم العزاء ليضعوا صور الرئيس حتى لا يصطدموا بالحضور أو ذوي الشهداء! واستباقًا لما يمكن أن يحدث، كان الجنود الذين يرافقون الجنائز يطلقون شعارات

---

[292] بدأ قصف التحالف الدولي في العراق بتاريخ 2014/8/8، وفي سورية بتاريخ 2014/9/23، من دون تحقيق نتائج حاسمة، باستثناء كبح تقدم داعش نحو مناطق الأكراد في الشمال السوري؛ لكن زخمًا دوليًا جديدًا انصب في هذه الحرب في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2015 بعد التدخل الفرنسي والروسي المباشر في سورية الذي جاء بعد هجمات باريس الدامية في 13 تشرين الثاني 2015، وقبلها إسقاط الطائرة المدنية الروسية فوق شبه جزيرة سيناء المصرية في 31 تشرين الأول 2015.

التأييد للرئيس مرة أو مرتين كضربٍ من الواجب قبل أن يوارى الشهيد الثرى؛ لكنهم لم يعودوا يجدون أي استجابة من الحضور[293]. وتحدث أولياء الدم همسًا وعلانيةً، هنا أو هناك، محتجين على الطريقة التي قتل فيها أبناؤهم وعدم توفير الحماية لهم، وأدرك كثيرون منهم، ولو متأخرين، أنّ الإنسان كان "البضاعة" الأرخص في سورية، وما يزال[294].

---

[293] هذه الملاحظات مبنية على تجارب الكاتب الخاصة ومشاهداته وحواراته في منطقته- الدريكيش- بصورة أساسية.

[294] فيما يلي رسالة من جندي نُشرت على صفحة "شبكة أخبار اللاذقية" على موقع الفيسبوك بتاريخ 31 كانون الثاني 2016. ويبدو أنه حذف لاحقًا:

"عالأغلب هاد آخر شي بكتبه هون لأن تعبي زاد فوق الحد لدرجة ما قادر ضل واعي ومتزن
لأن تعبت شوف أمهات عم يبكوا لأن ما بيعرفوا شو يطبخوا اليوم لأن الأب ما معه مصاري يطعمي ولاده
الحياة بتطحن ...
الكل أناني وعنده لؤم راعب
أيام يلي كانت الأم تشيل اللقمة من تمها تعطيها لابنها راحت.
أيام يلي الأب يضل بنفس القميص و البنطلون كذا سنة ويشتري تياب لابنه راحت ...
حتى الأمهات والأباء يلي عاشوا مرحلة العطاء صاروا مظلمين وعندهم حب ذات فوق الطبيعي
الأرواح صارت مظلمة ولا في بصيص نور ....
ما حدا متحمل حدا ... ما حدا بيعمل خير إلا لغاية
ما بقا في ذكاء اغلب المجتمع أحمق وساذج مدعوس كالقطيع والفقر أكل من لحمه ...
وإذا في حدا ذكي فهو وحشي انتهازي
شو بيعمل الشب بهالزمن وهالبلد اللعين كيف ممكن يعيش ويعمل شي مو للمستقبل خيو لبعد بكرا ...
أو البنت شو ما عملت ما بعتب عليها " وعد شرف "
إذا ضل في شرف ...
لهلق في تفرقة ... واسطات ...رشاوي بالهبل
الرجل الغير مناسب بالمكان العر.... والرجل المناسب عم يتعلم كيف يصير رجل غير مناسب
لهلق في طبقية... فوقية ... ثقافة ومثقفين تبع ال5 ورقات وعمر المراهقة صار بيوصل لل35
يحرم عليه في طيبة وحنية بلا سبب ...
يحرم تلاقي شخص حنون بس لأنه حنون
وقيادتنا الحكيمة ضايعة متلنا وأكتر وصدقا توب الوطن شبع ترتيق ولهلق ما طلع ولا عرصا يقلنا الوضع بخري ولازم نفير عام اجتماعي وعسكري وسياسي وإلاااا ....
بضل الوطن بس لابن فلان وابن الوزير فلان وابن الزنا فلان والضرب البراني للوزير أو التاجر فلان ...
ونحنا منموت ونندفن ونصير سماد مشان يعمر ويزرع البركة مي وخمس بحصات وكمشة تراب " الوطن "

في هذه الأثناء، عمل انتشار السلاح على الحدّ من سلطة النظام المركزية، وبدا كأن النظام يفكك نفسه بنفسه. مقاتلو حزب الله أو العاملين معهم كان يُفرض عليهم نظام صارم من الانضباط فحسب، إلى جانب هدفهم الثابت في الدعاية المبتسرة للتشيُّع[295].

وفي هذا الشهر أيضًا، تسربت وثائق مخيفة عن معاناة السجناء في سجون النظام وتعرضهم لمختلف أشكال التعذيب والموت[296].

ما بقى فيني شي عم يشتغل بطريقة مزبوطة بعد 5 سنين احتياط لخدمة أبناء الوزراء والساسة والتجار و السودان الشقيق و العروبة وزمبابوي تل والفيزونات والسبانكي والسبايكي والجامعات والمعارض والجمعيات الخيرية وبهاء اليوسف وعرصات روتانا أفاميا الشاطئ وكل مقهى ومطعم ومعرصة بهالوطن الغالي ...

والسلام عليكم ورحمة الرب العادل الرحيم وبركاته ...."

**رسالة من أحد شباب الجيش السوري احتياط 5 سنين ومتصاوب 7 مرات ورفض يذكر اسمه بناءً على طلبه .... (تعليق من محرر الصفحة).

(295) ذكر لي أحد المقاتلين السوريين مع عناصر حزب الله أن قائدهم كان يتحدث عن فضائل "أهل البيت"، في وقت يقوم فيه برفع عقب السجائر من على أرض الموقع الذي يعسكرون فيه، وبطريقة دعائية مكشوفة.

(296) http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/1/23/صور-جديدة-للتعذيب-بسوريا-وواشنطن-على-علم

الفصل الحادي عشر

مواقف دولية

الموقف الإسرائيلي

راقبت إسرائيل ما يحصل في سورية بانتشاءٍ وحذر، ومصلحتها في استمرار الهدوء على الحدود السورية، لتبقى آمنةً كما كانت طوال سنوات "الممانعة والمقاومة". وقد عملت في وقتٍ لاحق، بعد سيطرة المسلحين على الشريط الحدودي، على تقديم العون الطبي لهم وإجلاء مئات الجرحى ومعالجتهم في المستشفيات الإسرائيلية، كضرب من مدّ الجسور مع القوى التي تساهم بتدمير ما تبقى من الجيش السوري ومعداته، ولو أنها ليست من الغباء لتعتقد أن قوى مثل جبهة النصرة قد تحلّ مكان النظام الحالي مستقبلًا. في الوقت ذاته، لم يتوقف العدو الإسرائيلي عن تدمير كل ما يعتبره خطرًا على أمنه من أسلحة مهمة في سورية أو تلك التي كانت تُرسل إلى حزب الله في لبنان. ما خلا ذلك، التزمت إسرائيل الصمت المطبق في معظم الأحيان، بيد أنّها لم تكن منسيةً من حلفائها الأمريكان. كما نسّق الروس، بعد دخولهم سورية، مع الإسرائيليين، سواء على صعيد المواقف أو على الطلعات الجوية. بقيت إسرائيل الطرف المدلل دوليًا، التي بوسعها فعل أي شيء بلا حسيب أو رقيب!

الموقف الأمريكي

لم تكن إدارة أوباما مستعجلة؛ اكتفت بالمراقبة وجمع المعلومات، وكان الدرسان العراقي والأفغاني ما زالا بليغين. وباستثناء مطالبة الرئيس الأسد بالتنحي[297]، لم تقدم الولايات المتحدة أي وعود للمعارضة بالتدخل، وكل الخيبات التي عبّر عنها، لاحقًا، معارضون من جماعة "المجلس الوطني وغيرهم، ليست سوى أحلام أطفال يرغبون بحصول ما كانوا يتمنونه؛ أن تحملهم الدبابات الأميركية إلى سدّة الحكم، كما حصل في العراق، مع اختلاف ألوان الرايات بالطبع!

بالفعل، كانت تركة مغامرة بوش الابن ثقيلة، والعراق ما يزال في وضع قابل للانفجار؛ بسبب المحاصصة الطائفية "غير العادلة"، مع العلم أنه من غير المنطقي تحميل الأميركان مسؤولية صراعاتنا البنيوية ومشكلاتنا المؤجلة والمزمنة، إنما من باب التّمني بأن تقوم أميركا بدورها، كقوة عظمى، في الحدّ من النزاعات.

كما يمكن القول أيضًا: إنّ الأميركان كانوا يتلطّون أحيانًا خلف الموقف الروسي الداعم للنظام وفيتواته في مجلس الأمن"[298]، أو أنّهم لم يكونوا جادين، أقلّه، مفضلين الانتظار حتى تصل الوقائع على الأرض إلى حالة يمكنهم فيها التدخل للمساهمة في إعادة تشكيل ليس سورية فحسب؛ بل الشرق الأوسط برمته، وكأن حلم المحافظين الجدد الأميركيين وإدارة بوش السابقة لم يمت بعدُ، لكن بطريقة أكثر حكمة وحصافة.

---

[297] http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/10/111007_syria_us_white_house_.

[298] اعتقد "المجلس الوطني" أن الدول الغربية تقف وراءه كالبنيان المرصوص في رفضه أيّ حوار مع الروس. لكن، في ربيع 2012، وفي لقاءٍ مع بعض مؤيديه في الداخل السوري، صارح السفير الأميركي فورد "المجلس الوطني" بضرورة محاورة الروس، وقال: إنّ ذلك هو الحل الوحيد! بعد الاجتماع مباشرةً، جاءني صديقي بحالةٍ من الحيرة والصدمة وأخبرني بما قاله السفير الأميركي، وأعرب عن رغبته بمقابلة السفير الروسي في دمشق، طالبًا مني القيام بدور المترجم. لم تفلح عدة محاولات في أخذ موعد لمقابلة السفير الذي تعامل مع هذه الجهة المعارضة باستعلاءٍ وصلف!

لم يكن ذلك اعتياديًا على الأقل بالنسبة إلى طيف واسع من الأحزاب السياسية في منطقتنا، التي استقر العداء للسياسات الأميركية في عقول أفرادها المؤدلجة، كونها تقف بجانب إسرائيل، ومن دون عميق تمحيص.

مع ذلك، لم يكن بوسع الأميركان مراقبة الحوادث وإدارة "الأزمة السورية" إلى ما لا نهاية، في حال تهدّدت إسرائيل خاصَّة، أو انتشر الخطر إلى دول الجوار، أو وصل الإرهاب إلى حدود لم تعد تُحتمل. أما بالنسبة إلى دور وواجب الدول العظمى وقضايا حقوق الإنسان، فقد نامت في أدراج المصالح الوطنية الأميركية ثلاث سنوات، قبل أن تبدأ أميركا حربها على داعش في العراق وسورية أواخر صيف 2014.

كانت الخطوة الأميركية الأكثر جدية الضغط على النظام للتخلص من أسلحته الكيميائية بعد الهجوم على غوطتي دمشق في 8/21/ 2013؛ الأمر الذي أفضى إلى رضوخ النظام التام للتهديدات الدولية، متّبعًا نصائح الحليف الروسي على ما يبدو.

لم تكن الضغوط الخارجية على النظام، بما فيها الضغوط الأميركية، في المستوى الذي يجعله يقتنع بتقديم تنازلاتٍ حقيقية، وهو العصي على التغيير على نحوٍ ذاتي، وأن جبهة حلفائه خاصَّة صارت تتعزّز وتقدِّم له جميع أشكال الدعم الدبلوماسي والعسكري، وفي أوضاع تفاوتت وتعارضت فيها وجهات النظر الدولية حول الحدث السوري.

الموقف الروسي

حصل النظام على الحرية شبه المطلقة باستخدام الحل الأمني العدمي، متَّكئًا على الموقف الروسي الذي يهدف إلى ردّ الاعتبار لروسيا كدولة عظمى من خلال المأساة السورية، واستمرار بيع الأسلحة، وضمان عدم منافسة الآخرين[299] بخصوص إمداد أوروبا بالنفط والغاز الروسيين.

تداولت في تلك الأثناء، أطراف المعارضة معلومات حول محاولة القطريين والسعوديين شراء الموقف الروسي من خلال تقديم ضمانات لروسيا فيما يتعلق بمصالحها في سورية، بعد أن تعرض كبرياؤها في ليبيا للإهانة[300]، لكنّ ذلك كان مجرّد أوهام.

ليست مصالح روسيا في سورية قليلة، وتتعلق بوجود آلاف الخريجين الجامعيين وخريجي الدراسات العليا، بمن فيهم كثير من الضباط، إضافة إلى تسليح الجيش ضمن المدى المنظور[301]. ومخاوف الروس من عودة الإرهاب إليها من خلال عودة الشيشان الذين يقاتلون في سورية. كما أنّ استخدام القاعدة البحرية في طرطوس لتموين الأسطول الروسي في البحر المتوسط قد يساهم في تفسير بعض التعنُّت الروسي والوقوف بجانب النظام كليةً [302].

---

[299] أشير إلى مخطط قطري لنقل الغاز عبر سورية ومنه إلى أوروبا عبر تركيا لمنافسة الغاز الروسي على السوق الأوروبية والتركية، ما يؤثر أيضًا على مشروع نقل الغاز الروسي إلى تركيا عبر البحر الأسود.

[300] لم يشارك الروس، وربما لم يُستشاروا، في موضوع إسقاط القذافي في ليبيا، وهذا ما أثار حنقهم، ولكن استنقاع الحالة الليبية وتزايد التطرُّف في هذا البلد عزز من الموقف الروسي.

[301] قال أحد المعارضين النافذين في أحد اللقاءات: إنّ موضوع أسلحة الجيش غير مهم، فهي مجرد خردة ستُستبدل بأسلحة غربية. اعتبرتُ ذلك كلامًا غير واقعي ولا مسؤول في المدى المنظور، بعد ما حصل للجيش العراقي الجديد خاصَّة، وعدم تسليح الأميركان له بصورة جدية، ما كان أحد أسباب هزيمة هذه الجيش بصورة مخزية أمام عدة آلاف من مسلحي "داعش" في الموصل في 12/06/2014.

[302] تبدل الموقف الروسي جزئيًا بعد قرار الروس سحب الجزء الأكبر من قوتهم الجوية من سورية بتاريخ 16 آذار 2016، بعد حوالي 5 أشهر من القصف الذي نجم عنه إعادة التوازن على الأرض وتدخل الروس في موضوع المصالحة مع القوى المعتدلة. عندئذٍ، ظهرت بوادر خلافات بين النظام وروسيا، وبين هذه الأخيرة وإيران خاصَّة، التي تمثلت بالانتقادات الشديدة لعدم تدخل الروس لقصف المسلحين في بعض المعارك، كما في استعادة المسلحين لبلدة خان طومان بتاريخ 6 أيار 2016 بريف حلب الجنوبي، على

استخدمت روسيا الاتحادية والصين خلال ثلاث سنوات من عمر المأساة السورية، حق الفيتو في مجلس الأمن عدة مرات[303] لإفشال مشاريع قرارات في مجلس الأمن؛ بحجة احترام القانون الدولي. كان ذلك يبعث على السخرية، فآخر ما كان يهم روسيا أو أميركا هو القانون الدولي.

ثم فاجأ الروس الجميع، ربما باستثناء الأميركان، بتدخلهم المباشر في سورية في مطلع خريف عام 2015 [304]، حيث فرضوا أنفسهم كلاعب أساسي، بغياب الموقف الأميركي وتردده خاصَّة، كما قاموا بإجراء المصالحات مع فصائل مقاتلة عديدة وهمّشوا دور النظام المهمّش أصلًا.

سبيل المثال لا الحصر. في هذه الأثناء، اتضح أكثر التعاون المشوب بالتنافس وتقاسم الهيمنة الأميركي- الروسي على الأرض والقوى المقاتلة في سورية.

[303] كان الفيتو الأول ضد مشروع قرار يدين النظام السوري لانتهاكه حقوق الإنسان في أثناء قمع الانتفاضة بتاريخ 10/5/ 2011، وفيتو ثانٍ في 2012/2/4 من أجل دعم مبادرة الجامعة العربية، وفيتو ثالث في 2012/7/19 لفرض عقوبات على سورية بموجب الفصل السابع، وفيتو رابع في 5/22/ 2014 ضد قرار لإحالة الملف السوري إلى محكمة العدل الدولية.

[304] في خطوة مفاجئة، وبطلب رسمي من النظام الذي بدا غير قادر على الاستمرار على الرغم من الدعم الإيراني، بدأت طلائع القوى الروسية بالوصول إلى مطار حميميم في اللاذقية أواخر شهر أيلول/ سبتمبر 2015، وفي الثلاثين من الشهر نفسه بدأت الضربات الجوية لمناطق المسلحين على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم تحت راية الحرب على داعش. رفض الأميركان التدخل الروسي بنعومة واعتبروه إطالة للحرب؛ لكنهم سارعوا للتنسيق مع الروس تفاديًا لحدوث صدامات غير مقصودة في الأجواء السورية، وصولًا إلى الاتفاق بين الدولتين على وقف إطلاق النار في سورية بتاريخ 27 / 2/ 2016 الذي ما لبث أن انهار نهائيًا بعد عدة أشهر.

الموقف التركي

أثارت التصريحات التركية في بداية الحدث السوري كثيرًا من الجدل، وحاول الأتراك تحقيق مصالحهم في سورية مع النظام، ومن دونه، فكانت مواقفهم تنوس بين التهديد والمهادنة، وبصورة أربكت الشارع السوري أكثر من مرة.[305] المبدأ شبه الوحيد في السياسة التركية كان منع قيام كيان كردي في شمال سورية، وما يمكن أن يتركه من تأثير على وضع مواطنيهم الأكراد.

أمّن الأتراك، في وقتٍ مبكّر، ملاذًا للاجئين السوريين على أراضيهم، وأطلقوا تهديداتهم التي لا يمكن ترجمتها إلى وقائع؛ بسبب ارتباط القرار التركي بمقتضيات العلاقة مع الحلف الأطلسي، فضلًا عن الحسابات التركية الداخلية، ومنها حدوث انقسامات اجتماعية، كرد فعل على انحياز قيادة حزب العدالة والتنمية للتيارات الإسلامية، ومحاولة تصدير النموذج الإسلامي التركي، ممثّلًا بتجربة حزب العدالة والتنمية الحاكم، إلى أرضٍ ليست جاهزة لتقبُّله في الوقت الحاضر.

كما عبر السيد أردوغان، رئيس حكومة حزب العدالة والتنمية، عن رغبته بوصول الإسلاميين "المعتدلين"[306] (الإخوان المسلمين) إلى السلطة في سورية، متناسيًا أنّ الإسلاميين الأتراك جاؤوا إلى الحكم على أرضية تركيا العلمانية وبطريقة ديمقراطية، في حين لم تؤسس العملية الديمقراطية دستوريًا في معظم البلدان العربية.

دعمت تركيا "الإخوان المسلمين" في عبثهم بمجريات الثورة من خلال "لجنة العمل الوطني من أجل سورية"[307]. قامت هذه اللجنة بإدخال السلاح إلى سورية إضافة إلى مساعدات طبية وإغاثية أخرى مشروطة، في محاولة مكشوفة من الإخوان

---

[305] يمكن بهذا الخصوص مراجعة تصريحات المسؤولين الأتراك من حزب العدالة والتنمية في الأشهر الأولى للثورة.

[306] لا يمكن اعتبار حزب الإخوان المسلمين الطائفي قوةً معتدلة إلاّ مقارنة مع التيارات الإسلامية المتطرفة كالقاعدة، وفي جميع الأحوال فهو يحمل الفكر ذاته ويشكل الحاضنة التي تفرخ تلك الجماعات، على الرغم من بعض التعديلات الطفيفة التي أجراها على توجهاته في عام 2005 (....) و2012 (عهد وميثاق)، بما في ذلك الحديث عن دولة مدنية مبهمة المعالم.

[307] شكلت هذه اللجنة في 18 شباط/ فبراير على خلفية اندلاع حوادث "الربيع العربي" في تونس ومصر من عناصر إسلامية ليبرالية ذات علاقة ملتبسة مع "الإخوان المسلمين" برئاسة أحمد رمضان، وكانت أساس تشكيل "المجلس الوطني السوري" في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 2011.

لركوب موجة الاحتجاجات واستغلال المطالب الشعبية المشروعة لفرض نموذج استبدادي أكثر تخلفًا، مع العلم أنّ "الإخوان" كانوا دومًا على استعداد لاقتسام كعكة السلطة[308] مع النظام برعاية حزب العدالة والتنمية، وزاودوا على هذا الحزب فيما يتعلق بتسويق آمال العثمانيين الجدد باستعادة الخلافة[309]!

كما ساهمت تركيا بإدخال كثير من الجهاديين عبر حدودها نكاية ربما بالموقف الغربي، إلى أن استفحلت مشكلة الإرهاب وانقلبت على الجميع في عام 2015. لكنّ التدخل الروسي في سورية كان الضربة القاصمة للمشاريع التركية في سورية، وبعد حادثة إسقاط الطائرة الحربية الروسية في ريف اللاذقية الشمالي بتاريخ 23 تشرين الثاني 2015 خاصَّة، واستغلاله الناجح من قبل الروس بنشر منظومة صواريخ س. س 400 وإغلاق المجال الجوي السوري أمام الطيران الحربي التركي[310].

تبدّل الموقف التركي على حين فجأة بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في 15 تموز 2016 وتتوَّج بلقاء قمة بين الرئيسين الروسي والتركي في 9 آب 2016. ثم أسفر الاتفاق الروسي التركي عام 2016 عن عقد مؤتمر أستانة بتاريخ 23 كانون الثاني 2017، الذي حضره، أيضًا، ممثلو فصائل مقاتلة مدعومة من تركيا.

---

(308) قال لي أحد المقربين من الإخوان المسلمين في مؤتمر البحر الميت عام 2012: "انسوا برهان غليون و"المجلس الوطني"، ونسقوا معنا في كل شيء، نحن الفاعلون على الأرض." لكن، إلى أي درجة كان هذا الكلام يلامس الواقع؟ أما القول الموجه إليّ فهو يعكس طائفية الإخوان البغيضة، إذ استنتجوا من كوني بنظرهم "علويًا" أن بوسعي مساعدتهم في التنسيق مع النظام لاقتسام كعكة السلطة، وكأنني كنت ممثل النظام في المؤتمر!

(309) ارتفعت أصوات تطالب، ليس بالتنسيق مع تركيا فحسب؛ بل بالاتحاد معها أيضًا! وصولًا إلى تشكيل أحزاب إسلامية "سورية" تقليدًا لحزب العدالة والتنمية، مثل حزب العدالة السوري!

(310) عادت العلاقات الروسية- التركية إلى سابق عهدها بعد الانقلاب التركي الفاشل في 15 تموز 2016، ربما بسبب ما قيل عن تحذير الرئيس بوتين لنظيره التركي من حدوث الانقلاب والوقوف بجانبه. وفي 24 آب دخلت الدبابات التركية مدينة جرابلس لمنع تمدد "قوات سورية الديمقراطية"، المؤلفة بمعظمها من الأكراد، غرب نهر الفرات، دونما اعتراض من قبل الأميركان أو الروس.

الجامعة العربية

تأخرت ردود الفعل العربية على ما يحصل في سورية بصورة لافتة، فالأنظمة العربية التي لم تصلها رياح "الربيع العربي" لم تكن بمنأى عنها بالطبع، من ثمَّ كانت تنظر في اتجاهين مختلفين: إنقاذ الأنظمة القائمة، ولو من خلال إجراء الإصلاحات الشكلية، وترويض الشعوب الثائرة.

اعتبرت مبادرة الجامعة العربية[311] حلًا مقبولًا في خريف العام 2011، وشكّلت الأساس الذي سيجري بوساطته تدويل الموضوع السوري من خلال تحويلها إلى مبادرة عربية- دولية في شهر شباط/ فبراير 2012[312]. ثم انتهى دور الجامعة العربية إلى غير رجعة!

[311] وضعت الجامعة العربية خطةً قضت بسحب الجيش من المدن وإطلاق المعتقلين وإجراء مفاوضات مع المعارضة في 2011./12/19. وافقت الحكومة السورية على مبادرة السلام العربية وسمحت للمراقبين العرب بالدخول إلى سورية الذين وصلوا إلى دمشق بتاريخ 22 كانون الأول/ ديسمبر 2011. قبل انتهاء فترة تفويض المراقبين، طرحت الجامعة العربية مبادرتها السياسية في 23 كانون الثاني/ يناير 2012، المتمثلة بتشكيل حكومة وطنية وتسليم السلطة لنائب رئيس الجمهورية فاروق الشرع.

[312] كان ذلك في شهر شباط/ فبراير 2012، حيث تبنّت المبادرة الدولية بنود المبادرة العربية وأصبحت تدعى المبادرة الدولية- العربية.

الموقف القطري

عملت حكومة قطر دومًا على جذب الانتباه لها من خلال التدخل في محاولة حلّ الأزمات وعقد المصالحات التي تتعلق بقوى الإسلام السياسي[313] خاصّة. في الوقت ذاته، استُخدمت قناة الجزيرة الفضائية، شبه الحكومية، كمنبرٍ إعلامي إسلامي أكثر احترافيةً قياسًا بلقنوات الفضائية الدينية المذهبية الخالصة.

عملت قطر منذ بداية الحدث السوري على نصح النظام من باب تآزر حكم القلّة وتحقيق المصالح[314]، وحين لم ينفع ذلك في شيء، جمعت المعارضة السورية في الدوحة في منتصف شهر أيلول 2011. لكنّ تركيا، منافستها في خطب ودّ الإخوان المسلمين، سرقت منها الأضواء واختطفت المشاركين من الإسلاميين (ب أعضاء لجنة العمل الوطني من أجل سورية خاصّة) لتعلن عن تشكيل "المجلس الوطني" في اسطنبول. لاحقًا دعمت قطر المقاتلين بالتنسيق مع تركيا، وتعرضت الدولتان لانتقادات الأميركيين، أحيانًا، لهذا السبب.

---

[313] احتضنت قطر خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس بعد إبعاده من الأردن، مثلما لجأ إليها أيضاً الشيخ القرضاوي الإخواني المنفي من بلده مصر، والرئيس الشيشاني المنفي سليم خان ياندرابابيف الذي اغتيل هناك عام 2004، وزوجة صدام حسين ساجدة خير الله عام 2004، والرئيس الموريتاني ولد طايع بعد الإطاحة به في عام 2005، والنائب العربي في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة عام 2007، إضافة إلى افتتاح حركة طالبان مكتبًا لها في الدوحة في حزيران 2013.. الخ.

[314] تضمنت قائمة المصالح القطرية في سورية نحو 6 مليارات دولار، ومن بينها بناء عدة مشاريع إعمارية في اللاذقية ودمشق من قبل شركة الديار القطرية.

www.elwatannews.com/news/details/184865

الموقف السعودي

بقي الموقف الرسمي السعودي غائمًا في المراحل الأولى من الحدث السوري، وتمثل بدايةً بالدعم الإغاثي للمهجرين السوريين. أما القوى الدينية الوهابية السعودية فكان لها دور بارز في أسلمة الثورة وربط الدعم المالي بالتوجهات الدينية المذهبية. حصل أول تدخل سعودي رسمي فاعل عند تشكيل الائتلاف الوطني السوري، ومن خلال كتلة جربا- كيلو الديمقراطية، فصارت السعودية شريكة في النفوذ على الائتلاف، وعلى قدم المساواة مع تركيا وقطر. من أهم تجليات هذا التحالف لاحقًا توحيد فصائل المسلحين في الشمال السوري تحت مسمى جيش الفتح، الذي حقق نتائج كبيرة على الأرض واحتل معظم مساحة محافظة إدلب. حصل الزخم الجديد في الموقف السعودي بعد وفاة الملك عبد الله وتسلم وليّ العهد سلمان مقاليد الحكم في 23 كانون الثاني 2015، وترافق ذلك مع انطلاق ما سمي بـ "عاصفة الحزم" التي قادتها السعودية في اليمن. وصار وزير خارجيتها الجديد، عادل الجبير، يردد في كل مناسبة عبارته الشهيرة بإسقاط بشار الأسد سلمًا أو حربًا.

الاتحاد الأوروبي

لم تنفصل المواقف الأوروبية عن المواقف الأميركية، إنّما استتبعتها، مع أن التمايز في المواقف كان يحصل أحيانًا، كما في افتراق الموقف البريطاني عن الأميركي في مسألة السلاح الكيماوي السوري[315]. عبّرت المواقف الفرنسية "الحردة" عن درجة من التنافس مع الموقف الأميركي، ووقعت في شرك الارتباك و/ أو التردُّد الأميركي الذي طبع سياسة أوباما تجاه سورية وغيرها. أما الموقف الألماني فقد بقي أكثر حذرًا في التعامل مع المشهد السوري المعقَّد. لم تكن مواقف الدول الأخرى في الاتحاد الأوروبي سوى رجع الصدى لمواقف الدول الفاعلة فيه؛ أي بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

---

[315] رفض مجلس العموم البريطاني مساندة الحكومة البريطانية في تحالفها مع أميركا لضرب النظام السوري في أواخر شهر آب 2013.

الفصل الثاني عشر

نساء الثورة والحياة

لم تنتظر المرأة إذنًا من أحد لتخرج إلى جانب الرجل في التظاهرات ضد الاستبداد[316]، و "هي من خلقت مساحة مشاركتها"[317] للتعبير عن مناهضته، فكان ذلك تجاوزًا للأطر الاجتماعية الضيقة باتجاه رحابة الحياة وتنوعها. شاركت المرأة في الانتفاضات العربية السلمية كلها بدرجات مختلفة، بما يتناسب مع وجود آفاق تنويرية سابقة يمكن البناء عليها، كما في المجتمع التونسي خاصةً، حيث حققت المرأة درجة متقدمة من التحرُّر والمساواة القانونية مع الرجل[318].

تعدُّ المشاركة الفاعلة للمرأة في التحولات التاريخية من أهم مقاييس التنوير والتقدم الاجتماعيين، كما ينطبق ذلك على فترات الاستقرار أيضًا. أما في الحروب والنزاعات التي هي، على الأرجح، امتدادات لثقافة المجتمعات الذكورية وعدوانيتها، فغالبًا ما تتعرض مكتسبات المرأة، إن وُجدت[319]، لانتكاسات خطرة. هذا ما حدث حين تحوّلت الانتفاضات والتظاهرات إلى أعمال مسلحة في معظم بلدان "الربيع العربي"، فعانت المرأة من ويلات الحرب، بما فيها القتل والتهجير والاعتقال والاغتصاب والسبي والاستغلال الجنسي، فضلًا عن الأعباء الإضافية المتعلقة برعاية الجرحى

---

[316] لم يسامح النظام المتظاهرين والمتظاهرات، السلميين والسلميات، في حين عقد لاحقًا صفقات تصالحية مع المسلحين الذين حاربوه من دون أي تبعات.

[317] التعبير للصديقة لمى قنّوت التي راجعت هذا الفصل مشكورةً.

[318] قام الرئيس التونسي بورقيبة بإصلاحات كبيرة تتعلق بقانون الأحوال المدنية لعام 1956، الذي ساوى المرأة بالرجل إلى حد بعيد على الصعيدين السياسي والمدني، بما في ذلك عدم جواز تعدد الزوجات، إضافة إلى إصلاحات أخرى في مجالي التعليم والصحة.

[319] في الواقع، على حدّ تعبير الصديقة لمى قنوت أيضًا: "لا توجد أي حقوق للمرأة في قوانين الأحوال الشخصية في سورية، وتذخر هذه القوانين بعبارات وكلمات تعتبر في العصر الحالي مهينة لكرامة المرأة وإنسانيتها مثل: فسخ النكاح، موطوآته، الدخول، زوجة غيره أو معتدته، يملك عليها اللعان، النشوز، اللعان، متعة الطلاق، تربص، أجرة الرضاع، ملة، التخارج، يخشى عليها من الفتنة، ذمي، كتابية، أجرة الحضانة.. إلخ. وفي دستور 2012، ورد في المادة رقم 3 بأنّ الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع، والأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية، وهذا يطلق العنان لرجال الدين للتحكم بحيوات النساء، أي أنّ ذلك ضربٌ من دسترة التمييز ضد النساء، ناهيك عن دسترة الاستبداد بالصلاحيات المطلقة لرئيس البلاد."

والمعوقين وإعالة الأسرة عند فقدان الرجل- المعيل، وما رافق ذلك من عمليات الاستغلال والابتزاز، وستستمر هذه المعاناة لسنوات عديدة بعد انتهاء الحرب، وربما لعقود. ويمكن القول: إن الحماقات التي يرتكبها الرجال في فترة وجيزة تدفع النساء ثمنها على المدى الطويل.

شاركت النساء السوريات على اختلاف توجهاتهنّ في فاعليات الانتفاضة/ الثورة، علمانيات ومتدينات، يساريات ويمينيات، سواء على صعيد الكلمة أو الفعل الثوري، كما في التنسيقيات، أو تقديم الدعم اللوجستي على الأرض. كانت تلك فرصة النساء للتحرر من شتّى المظالم الاجتماعية في مجمع ذكوري مستبدّ. تراجع دور النساء السوريات أيضًا بعد تحول الانتفاضة إلى صراع مسلح من دون أن يختفي[320]، وتقلصت من جديد فرصهنّ في التحرر من ربقة التقاليد الاجتماعية الظالمة.

إنّ أي انتقاص لحقوق المرأة هو شكل من أشكال العنف أيضًا، بما في ذلك حرمانها من الإرث واستغلالها في العمل. وحيث ينتشر الفقر والجهل تكون معاناة المرأة على أشدّها، بغياب، أو ندرة، آليات فاعلة للمساعدة خاصَّة، سواء أكانت رسمية أم من قبل منظمات المجتمع المدني. لكنّ الظلم لا يقتصر على المرأة الفقيرة فحسب، إنما يطال أيضًا المرأة في البيئات الميسورة، التي يجري تقييد حريتها وخياراتها بحجة السمعة والتقاليد، ولتتحول أحيانًا إلى مجرد دمية مستعبدة ومغلّفة بالترف. ويبدو أنّه كلّما صعدت المرأة درجة على سلَّم انعتاقها، كان الرجل يرمي إليها شبكة ثقافة المجتمع وتقاليده، التي هي ثقافته ورغباته هو!

كم قابلت من الفتيات الرائعات اللواتي عملن بصمتٍ وأمانة[321]! منهنَّ من خرجن من سجون النظام بمعنويات عالية، ولم يكن خوفهنّ لم يكن إلاّ على الثورة، ثورتهنّ،

---

[320] في الواقع، كان الدور الأوضح في الحرب للمرأة الكردية التي قاتلت ببسالة ضد القوى المتطرفة، وداعش خاصَّة، في شمال سورية، في حين كان هذا الدور محدودًا ضمن إطار قوى الجيش النظامي، وأندر بكثير في صفوف المعارضة المسلحة.

[321] اجتمعت في خريف 2011 في البيت الذي كنا نقيم فيه بدمشق بناشطتين من مدينة دوما. كانت إحداهما فتاة نحيلة في مقتبل العمر، وقد أصيبت بطلقٍ ناري سطحي في بطنها في أثناء إسعافها لجريح من الجنود المنشقين في بساتين دوما. غطّت الفتاة بحقيبتها النسائية بقعة الدم التي انتشرت على المانطو، وذُهلت لمعنوياتها المرتفعة فيما كنت أقدم لها العلاج الملائم، إذ لم يكن بوسعها الذهاب إلى المستشفيات الحكومية خوفًا من الاعتقال. أذكر تلك الواقعة من بين عشرات الحالات في الأشهر الأولى التي تميزت بمنتهى التلاحم بين الشعب والمنشقين، وما آلت إليه الأمور لاحقًا، فيما يتعلق بالتورُّم الإسلامي الجهادي خاصَّة، الذي فتك أيضاً

الثورة التي تُقاس مشروعيتها من خلال دور المرأة فيها والمكتسبات التي تحصل عليها من خلالها، ومنها المساواة الحقوقية والاجتماعية قبل أي شيء آخر.

كان اختطاف المحامية رزان زيتونة[322] ورفاقها في دوما من أهم مؤشرات انتهاء الفاعليات السلمية المدنية الديمقراطية وابتلاعها من قبل أعداء الحرية، لِما للمحامية رزان من رمزية في الثورة السلمية وتوثيق انتهاكات حقوق الإنسان والدفاع عن المعتقلين[323]. كانت رزان قد توارت عن الأنظار هربًا من ملاحقة النظام، ثم استقرت في مدينة دوما قبل اختطافها، وبعد أن هُدِّدت أكثر من مرة. شكلت عملية الخطف هذه مؤشرًا من مؤشرات وأد الانتفاضة الشعبية، بوصفها تغييرًا ديمقراطيًا، وتدشين لمرحلةٍ جديدة من الصراع الذي يحاول فيه المتأسلمون فرض شروطهم الاستبدادية المتخلِّفة. وكان الناشط مازن درويش[324] الذي يعمل في المجال نفسه، قد اعتقل من قبل النظام، فضاقت الأرض السورية بكل عمل ديمقراطي سلمي، ووقع الناشطون بين فكيّ كماشة الاستبداد والتطرُّف الديني.

ومع أنّ سورية تحولت إلى ساحة للدموع والأحزان، وتلفّعت النساء فيها بالسواد، فما زال ثمة أمل وضرورة لأن تعود النساء بعد الحرب إلى ساحات البناء النابضة بالحياة، وهنّ اللواتي يبدعن في تدبير الحياة وإنتاجها أيضًا. سيقود ذلك على الأرجح إلى حصول المرأة على مكاسب مهمة، بقدر أهمية الدور الذي يمكن أن تؤديه في إعادة الحياة إلى ما دمرته الحرب، بيد أن ذلك مشروط أيضا بالتشريعات التي تضمن

بآمال النساء وحلمهنّ في الحرية. وكيف أنسى تلك المرأة التي جاءت من دمشق إلى اللاذقية لتشارك في التظاهرات الأولى، فأسعفت جريحًا بعد أن سحبته إلى مدخل إحدى البنايات.

[322] اقتحم مسلحون مركز بتاريخ 9/ 12/ 2013 توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في دوما واعتقلوا المحامية رزان (تولد 1977) والناشطين: سميرة خليل وناظم حمادة ووائل حمادة.

http://cdf-sy.org/content/index.php?option=com_content&view=article&id=1829:2013-12-11-10-05-15&catid=29:-2012

[323] كانت رزان تزور المعتقلين في السجون قبل الثورة وتدافع عنهم أمام المحاكم. مرّةً، سمعت أحدهم يناديها: "أمي"، مع أنه كان يكبرها بعشر سنوات على الأقل.

[324] بتاريخ 16/2/ 2012 اعتقل الصحفي مازن درويش (تولد 1974) مع مجموعة من الناشطين في مكتبه بدمشق. فاز مازن بجائزة حرية الصحافة لعام 2012، وهو مؤسس المركز السوري للإعلام وحرية التعبير. ثم أطلق في أوائل شهر آب/ أغسطس 2015.

حقوق النساء، وبمقدرة المرأة على النضال من أجل هذه الحقوق في سورية المستقبل، المفترض أن تكون دولة القانون والمواطنة.

تحمّلت المرأة بعد الحرب العالمية الثانية، في بعض البلدان الأوربية، في البلدان التي طالها كثير من التدمير كألمانيا وروسيا خاصَّة، العبء الأكبر في إعادة بناء ما دمرته الحرب، وبالتوازي مع ذلك، تحققت لها المزيد من المكاسب والحقوق الاجتماعية. إنّ مقارنة ما سيكون عليه دور المرأة السورية، مقارنة بالمرأة الأوروبية، يحمل كثيرًا من المجازفة؛ بسبب العوائق الاجتماعية، ولكنّ تشابه الأحوال يدفعنا إلى تخمين أهمية الدور الذي ستؤديه النساء السوريات في المستقبل، وانعكاسه على وضعها الاجتماعي وحياتها الشخصية.

في نهاية المطاف، لن تبقى سورية، ولا باقي بلدان المنطقة، بعيدةً عن أوجه التقدم الاجتماعي المحمول على سكّة التطور التقني المُتسارع، الذي ستأخذ فيه المرأة كثيرًا من الحقوق، وتتخلّص من مظالم شتّى كبّلتها على امتداد تاريخ طويل.

الفصل الثالث عشر

اليسار وعلمانيته على هامش "الربيع العربي"

ارتبط مفهوم اليسار الستاليني المبتسر في القرن العشرين بصعود الأنظمة الدكتاتورية وصورة الحزب القائد وزعيمه؛ الأمر الذي شوّه صورة قوى اليسار باعتبارها قوىً دافعة باتجاه التقدم والتطور. كما تثبّت الوعي اليساري التقليدي العربي في النصف الثاني من القرن العشرين على العداء للغرب كشرٍّ مطلق إمبريالي، مشكلًا ركيزة الاستبداد الذي ادّعى العلمانية، وتحوَّل العداء المشروع في السياسة إلى سياسة عداء جوفاء، هدفها الأساس توجيه أنظار الجماهير- الرعايا بعيدًا عمّا يحدث في الداخل، حيث يجري تثبيت أركان الحكم من خلال كمّ الأفواه وإحكام الرقابة الأمنية مطلقة الصلاحيات على مختلف مؤسسات المجتمع وأفراده.

لم يختلف اليسار الذي وصل إلى الحكم (حزب البعث بشقيه في سورية والعراق، على سبيل المثال) عن اليسار الشيوعي والقومي الذي بقي خارج "نِعَم السلطة" من حيث الجوهر، فكلاهما ينهلان من المنبع ذاته. لكنّ مَن وصلوا إلى السلطة لم يتوقّفوا يومًا عن قمع معارضيهم من أخوة العقيدة، إن تطلَّب الأمر، وبكل قسوة. وبقي التلويح بالفزّاعة الإسلامية السلاح الأمضى لتخويف الجماهير من خطر فقدان مكتسباتها التنموية، على محدوديتها، أو، بالأصح، خطر الإسلاميين على بقاء الأنظمة السرمدية ذاتها. لكن، من بمقدوره الضحك على التاريخ، أو منع تحول الفزاعة إلى حقيقة مدمِّرة حين تنغلق أبواب السياسة؟

ليست القوى اليسارية وحدها مَن تفاجأ بالتحولات التاريخية التي حدثت وتحدث في بلداننا، بعد عقودٍ من الركود. ولئن وُجِد تباين إلى هذه الدرجة أو تلك، ومن بلد لآخر، فإنّ القواسم المشتركة تمثَّلت بغياب الحريات، وضعف أو انعدام المشاركة السياسية، وهجرة الكفاءات، والمؤشرات المنخفضة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، والميل للتقوقع في إطار التجمعات الأهلية ما قبل الوطنية؛ وهي العوامل الأساسية في إشعال فتيل الثورات في البلدان العربية.

في الوقت ذاته، تخبَّطت معظم القوى الشيوعية التي تكيَّفت مع النموذج السوفييتي الإشكالي وصدمها انهياره عام 1991، في حيرتها التاريخية، بعد أن كانت تنام في عسل الحتمية التاريخية، فاتّجه بعضها صوب الليبرالية السياسية أو التيارات الدينية، كتعبير عن خيبة أملٍ عميقة، فيما بقي فريق محدود على حاله عصيًّا على التغيير وقد تحكَّمت بتلابيبه الأيديولوجيا كدين، وأي دين!

لم يكن واقع القوى اليسارية القومية أفضل حالًا، إذ التحق بعض رموزها بأنظمة الاستبداد لينظِّروا لها ويشاركونها ديماغوجيا الصراع ضد القوى الخارجية، الحقيقي وغالبًا المفترض، في وقت ذي عاثت فيه هذه الأنظمة فسادًا وتنكيلًا في بلدانها لدرجة يخجل منها أي استعمار!

وهكذا تحول مفهوم اليسار من رافعة للتقدم الاجتماعي إلى تيارات معزولة عن مجتمعاتها بدرجة كبيرة، تلك المجتمعات التي التجأت إلى ملاذاتها الدينية الجاهزة، فرارًا من سطوة الاستبداد. بل إن بعض القوى اليسارية أدَّت أدوارًا رجعيةً حين دافعت عن الأنظمة المستبدة، أو سكتت عنها لتخوفها من المدّ الديني، الذي كان، في حقيقة الأمر، وليد اليأس وانسداد الآفاق. لكنّ القوى الإسلامية استفادت من هذه الحالة للاستحواذ على الأصوات التائهة بين الإيمان الصامت والتمرد على الظلم، واستثمرتها في الثورة السورية خير استثمار.

أما اليسار الذي ظلَّ يناهض السلطات فكان فاقدًا لنفوذه في الأوساط الشعبية، وهدفًا لكلٍّ من الأنظمة الحاكمة والقوى الإسلامية، ما يفسر ضعف تأثير القوى اليسارية في الحراك الشعبي، مقارنةً بالقوى الدينية. نشير هنا إلى أنّ واقع الثورات أفرز في البدايات قوى إسلامية "معتدلة" وذات طابع وطني[325]، بخلاف النظرة الإخوانية التقليدية المتمثلة بالعمل في إطار الأمة الإسلامية، لكنّ التطرّف الذي استُقدم من الخارج أطاح بها ومنع تطورها. هذا إلى جانب قوى "الكهنوت الديني" التي أدمنت ممالأة السلطات والعيش على موائدها عبر التاريخ.

وهكذا، حين فتحت الثورات الآفاق نحو الحرية وتقدمت الشعوب للتعبير عن نفسها، فشلت قوى اليسار والديمقراطية في التقاط هذه اللحظة التاريخية الفريدة من أجل استعادة مفهوم اليسار الملازم للتقدم، بكل ما يعنيه في مجالات الاقتصاد والسياسة والحريات، والقطع نهائيًا مع الأنظمة الشمولية وسياساتها، على الرغم من المشاركة الخجولة لآلاف اليساريين في الفترة السلمية. وأصبحت الاحتجاجات؛ لأنها شعبية وغير منظمة، مطيّة لقوى متطرفة وانتهازية تتحرك في فوضى "خلاقة [326] ومدمرة" ساهمت في خلط الأوراق وإرجاء عملية التغيير التاريخية.

[325] كنت قد صادفت مثل هؤلاء في زياراتي لأماكن التظاهرات بريف دمشق، واعتبرتهم امتدادًا لقوى الإسلام "المعتدل" الذي ساد في خمسينيات القرن العشرين على وجه التحديد.

[326] الفوضى الخلاقة Creative Chaos: طغى هذا المصطلح على السطح بعد تصريح وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس لصحيفة الواشنطن بوست، إبان الاحتلال الأميركي للعراق عام 1995، حول نشر الديمقراطية في المنطقة. يعني هذا المصطلح خلق حالة فوضى معينة قد تكون مقدمة لحالة سياسية أرقى في المجتمعات التي وصلت إلى حالة استعصاء.

مع ذلك، بوسع الأحزاب اليسارية الاستفادة من الدرس لاستعادة نشاطاها الاجتماعي والعمل على تحقيق مصالح الفئات التي تمثلها ومصالح المجتمع ككل أيضًا. وهو مرهون باعتمادها ديناميكية جديدة تبتعد كل البعد عن طريقة التنظيم الكلاسيكية المركزية الديمقراطية، وتستند إلى العمل الحر والتفاعل المتنوع والسياسة الاجتماعية المرنة التي تأخذ بالحسبان التداخلات والتحولات الطبقية في ظروف التقدم التكنولوجي.

يساعد تجدُّد الدور اليساري من ناحية لبرلته اجتماعيًا على استعادة التوازن المطلوب في المجتمع، والوقوف في وجه قوى الاستغلال على اختلافها، والتعبير عن مصالح أوسع الفئات الشعبية، ومنافسة القوى الدينية في هذا المضمار. كما تعدّ البرامج الاجتماعية الطموحة التي تشارك فيها القوى اليسارية باقي القوى الديمقراطية، كالنقابات والجمعيات وحركات المجتمع المدني، تعدّ مجالات رحبة للعمل الخدمي الذي يقود النجاح فيها إلى تحقيق انجازات سياسية وانتخابية تعزز من دور اليسار وتعيد الثقة شبه المفقودة بسياساته.

يمكن أن يتم ذلك من خلال دعم المبادرات الفردية والعمل على مواقع وشبكات التواصل الاجتماعية التي تؤمن سرعة تبادل المعلومات والخبرات؛ الأمر الذي يجعل الحزب، أي حزب، تحشيدًا لمجموعة من الطاقات الحرة المتجددة، بعيدًا عن المركزية والأوامرية.

***

أساء من جهة ثانية، ربط كثير من الأنظمة الدكتاتورية العربية بالعَلمانية[327] إلى مفهوم العلمانية ذاته بصورة خطرة. لم تكن هذه الأنظمة عَلمانية بالمعنى العميق للكلمة، ولم تبن دولًا محايدة تجاه المجتمع؛ بل إنها سوّغت حكمها بالدين أيضًا، من دون أن ننسى الرغبة الأكيدة لقوى الإسلام السياسي في تشويه فكرة العَلمانية باعتبارها نقيضًا لمشاريعها الاستبدادية النكوصية.

إن إعادة الاعتبار للعَلمانية والتصدي للتشويه الذي تلاقيه على أيدي الاستبداديين، من إسلاميين و"علمانيين" مزيَّفين وغيرهم، يعدُّ أيضًا مهمة ملحّة. فالعَلمانية هي الحاضنة الاجتماعية الحديثة لجميع الأديان والمذاهب والإثنيات في مجتمع يقوم على حيادية مؤسسات الدولة ومساواة المواطنين أمام القانون، فضلًا عن التوجهات الليبرالية الإنسانية المتعلقة بحماية الحريات والإبداع وتحرير الطاقات الاجتماعية الإيجابية، والمساواة بين الرجال والنساء.

مَن يعارض العَلمانية، كمشروع جامع وحيادي، فإنه يريد تمرير مشروعه الاستبدادي الخاص به، وهذه هي حال الإسلاميين الذين يتحججون بـ: "ثقافة مجتمعنا" و"تعاليم ديننا" و"طبيعة شعبنا"، لتمرير مشروعهم، مستفيدين من انغلاق ثقافي وتجهيل اجتماعي مديد، والخلط، بمكر، بين فصل الدين عن مؤسسات الدولة وفصل الدين عن المجتمع!

---

[327] العَلَمانية LAICITE تعني فصل الدين عن الدولة مع المحافظة على حرية الاعتقاد أو عدمه وممارسة الجميع لهذا الحق والدفاع عن حرية اختيار الدين والمعتقد. لا تتدخل السلطات في معتقدات المواطنين مهما تكن، ولا تتبنى دينًا رسميًا للدولة، فالدولة ليس لها دين وإنما الدين للأفراد. كما تعني العلمانية الفصلَ بين العلم والدين لاختلاف مسارهما وتطورهما ومجالي عملهما.

خاتمة

إذا كان التطرُّف يجلب التطرُّف، فإنّ التحوُّل في سلوك الإخوان المسلمين نحو العنف الطائفي أواخر السبعينيات لا ينفصم عن الممارسات الطائفية لسرايا الدفاع في ذلك الحين. فقد اختلطت الأفعال الدموية والردود عليها[328].

كان الإخوان عامَّة الطرف المعارض الوحيد المستعدّ لرفع راية "المظلومية السنية" مقابل فكرة "المظلومية العلوية" التاريخية التي سوّقها الطرف الآخر بنعومة ليستقوي بالطائفة العلوية، مغطِّيًا إياها بقشرةٍ من الشعارات "القومية والتقدمية".

لم يكن سلوك سرايا الدفاع والإخوان آنذاك سوى (بروفة) لما سيجري في عام 2011، حيث لم يلبث أن تقابل القمع السلطوي مع ثنائية الأسلمة- العسكرة في خضم الفوضى التي استشرت بعد عقود من "الضبط الأمني" للمجتمع، وما نجم عن ذلك من وأدٍ لمطالب السوريين المشروعة في التخلص من الاستبداد والانتقال إلى حال أرقى سياسيًا واجتماعيًا.

***

[328] في 16 حزيران 1979، قام الضابط المناوب إبراهيم اليوسف بجمع طلاب الضباط في قاعة الطعام على أساس طائفي، وإطلاق النار عليهم بمساعدة عناصر من "الإخوان المسلمين" جرى الاتفاق معهم مسبقًا. وستقوم سرايا الدفاع (بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس حافظ الأسد في 26 حزيران 1980خاصَّة) بالانتقام بأساليب من الطبيعة ذاتها، بما في ذلك مجزرة تدمر بتاريخ 27 حزيران/ يونيو 1980، حيث جرى تصفية المئات من معتقلي الإخوان داخل حجرات السجن.

http://www.shrc.org/?p=6788

http://www.shrc.org/?p=21413

https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_سجن_تدمر

بدأت الانتفاضة السورية 2011 وطنية الهوى بقلب إسلامي شعبي سوري، محاطةً بقوى مختلفة يمينًا ويسارًا، واستيقظت على هامشها قوى برجوازية وطنية كانت قد هُمشت منذ الخمسينيات، وهي التي طالما اعتُبرت وريثة للتقاليد السورية العريقة في التجارة والصناعة، وتصنف في صف الإسلام الليبرالي المعتدل. إنَّ عودة السياسة إلى هذه البرجوازية وطبقتها الوسطى كان يمكن أن يساهم في تصحيح وضع تاريخي ويعيد التوازن إلى المجتمع السوري، وإن إسلامًا معتدلًا، في ظل دستور علماني، يمكن أن يشارك بالحكم بفعالية، طالما أنه يحترم الحريات الفردية ولا يكفِّر معارضيه، ويتقيّد بدستور وطني منيع، وربما مبادئ فوق دستورية أيضًا.

لكن، بسبب القمع والطابع الشعبي للاحتجاجات وعدم وجود تمثيل معارض وطني فعال، اتجه معظم الثوار تدريجيًا، خلال 6 أشهر، لتأكيد ذواتهم من خلال الردّ على النظام بمشروع معاكس يتبنى فكرة "الإسلام هو الحل" بأشكال مختلفة، في وقت كانت فيه شرر الصراع المذهبي السني- الشيعي تتطاير من عمق الرماد لتشعل جزر النار هنا أو هناك. ساهم ذلك في رسم خط نارٍ يحتشد على جانبيه طرفان مستعدان للذهاب بالحرب إلى نهايتها، فاستبعد النشاط السلمي، ومعه أهداف الثورة أيضًا، وذلك لتعارض هذا النشاط الديمقراطي مع أهداف الطرفين المتحاربين اللذين يتوسّلان العنف لتحقيق مآربهما.

بدأ ذلك بإطلاق تسميات إسلامية لأيام الجُمع، ومن ثم انسحبت مثل هذه التسميات على كتائب "الجيش الحر" كإشارة إلى المنحى الذي سيتّخذه سير الحوادث، فيما يتعلق باستبدال مؤسسات الدولة الحديثة بهيئاتٍ ومحاكم شرعية خاصَّة، كأساليب في الحكم والإدارة لم تعد تصلح لهذا العصر. حدث مثل ذلك إبّان الثورة الإيرانية (1979)، حيث استفرد الإسلاميون بمنجزات ثورة شعبية، بعد سلسلة من عمليات إقصاء للخصوم المشاركين في الثورة، إلى أنْ نصَّبوا خليفة لله على الأرض- الوليّ الفقيه! لكنّ الواقع السوري المعقد لم ولن يسمح بتحقيق طموحات الإسلاميين، اللهم إلاّ على حساب بقاء سورية ذاتها.

هكذا، على نحو تدريجي، بدأت شعارات الثورة السورية بالانزياح من الوطنية إلى الدينية. يمكن تفسير ذلك، جزئيًا، باليأس والحصار والتردُّد العربي والدولي في إبداء الدعم المطلوب، إنما، وبدرجةٍ أكبر، بمصادر التمويل واشتراطاتها التي لا تتقاطع مع أهداف الثورة السورية، وتهدف إلى دفع التطرُّف بعيدًا عن أنظمة الخليج، ولو موقتًا، فكان الشَّحن الطائفي التقسيمي من لزوميات المعركة الجديدة، التي تفرغ مجتمعات الخليج من أخطر العقائديين المتطرفين. ساهم في ذلك أيضًا إطلاق النظام لكثير من السجناء السلفيين الذين قاتلوا في العراق[329]، إضافة إلى بروز القوى الإسلامية بعد انتفاضتي تونس ومصر، ما أعطى دفعًا لهذا الاتجاه في الثورة السورية.

لم تقم الثورة السورية في الأساس كمشروع حرب أهلية؛ لقد كانت ثورة الحرية والكرامة واستعادة الحقوق المسلوبة، وما أكثرها، وإن أي ردود أفعال طائفية واستبدال الحرية بالجهاد هي طعنة في ظهر الثورة، وثورة مضادة بكل ما يعنيه هذا المصطلح.

***

[329] أُطلق العديد من الجهاديين بموجب العفو الرئاسي بتاريخ 2011/5/31 وما تلاه. حارب هؤلاء الأميركان في العراق بالتنسيق مع استخبارات النظام السوري وشيوخه، مثل الشيخ أبو القعقاع (اسمه الحقيقي محمود قول آغاسي، سوري الجنسية كردي القومية ومن سكان حلب)، ولكنهم صاروا عبءًا على النظام بعد عودتهم، فوضعهم في سجن صيدنايا. ثم اغتيل الشيخ القعقاع بعد خروجه من أحد مساجد حلب في 6 أيلول/ سبتمبر 2010.

http://www.alarabiya.net/articles/2007/09/30/39768.html

هدف الحل الأمني منذ البداية إلى عزل المتظاهرين والدفع بهم إلى التسلُّح والتشكيك بوطنيتهم، انطلاقًا من مفهوم مبتسر للوطنية سوَّقه الاستبداد خلال عدة عقود الذي جعل من أفراد الشعب عبيدًا لمشاريع قومية هوامية[330]. كما حشدت السلطة مؤيديها وغيرهم منذ البداية مستغلة هيمنتها على مؤسسات الدولة، فساهمت في تقسيم المجتمع وفقدت دور الحَكَم.

لم يكن الحل الأمني ناجعًا في مواجهة التحركات الشعبية الكبيرة، مثلما أثبت نجاعته في قمع الأفراد والأحزاب، كما لم يستطع الموالون للنظام بلورة موقف أخلاقي ضد الحلّ الأمني، وصاروا يرون الاستثناء عوضًا عن القاعدة؛ أي يرون جريمة صغيرة إن حدثت من الطرف الآخر ولا يرون جريمة كبيرة يرتكبها موالون للنظام، ربما انطلاقًا من وعي أنّ السلطة يحق لها ممارسة العنف، ولكنْ؟

السلطة هي التي تحتكر العنف عند تطبيقها للقوانين في الأوضاع العادية، وحين لا يكون ثمة خلاف على شرعيتها، فكيف بسلطة لم تحاكم حتى مسؤولَين اثنين تعاملا بصورة تفتقر للحكمة والمسؤولية في حوادث درعا ومقدماتها منذ البداية[331]، وتعمل مؤسستها الأمنية كحكومة ظلّ مستخفة بكل قانون، ما أفضى إلى خروج الناس عليها في الشوارع؟ كانت تلك نهاية أسطورة "الاستقرار الأمني."

***

[330] خيالية أو حالمة.

[331] المقصود المحافظ ف. ك. ورئيس فرع الأمن السياسي في درعا ع. ن.، اللذان اعتُبرا مسؤولين عن تفاقم الاحتجاجات.

مثلما أنكر النظام وجود تحرك شعبي احتجاجي ضدّه، أنكر بعض المعارضين كثيرًا من الوقائع على الأرض، أو اعترفوا بها بعد أن شاعت، لكن من باب تبريرها. فعندما تقول لهم يوجد مجرمون يتلطَّون وراء الثورة يكون ردّهم: "الشبيحة هم المجرمون"، وحين تحذّرهم من خطورة التجييش الطائفي يردّون بأنّ النظام طائفي!

كما لم تقم قوى المعارضة الفاعلة و/ أو المتسلِّقة في/ على الثورة بتوضيح ما يجري على الأرض وفك لغز "الجيش السوري الحر" وتوضيح بنيته وتوجهاته وارتباطاته، وكيف استغلّ لتمرير حملة تسليح إسلامية، ليتحوَّل، بقصد أو من دونه، إلى طرف في ما يشبه الحرب الأهلية، وليصبح الشعب بين براثن استبدادين؛ دنيوي وديني.

أغمض النظام عينيه عن استحقاق ضرورة تجاوز حالة الاستبداد، وأغمضت المعارضة المتسلقة على الثورة عينيها عن التطرُّف المقبل من الخارج ليطيح بما تمثله هذه الثورة. نجم عن ذلك، فضلًا عن عوامل أخرى، نتائج مأسوية ساهمت في الوصول إلى أقصى حالات التطرُّف، وما استتبعه ذلك من التدخلات الخارجية!

كان على السياسيين المعارِضين الارتقاء إلى مستوى التضحيات في مواقفهم، والعمل على سلمية الثورة، كخطٍّ مركزي، ووضع العمل المسلح في إطار هذا الهدف، وإدانة العسكرة الفوضوية، لا الصمت عن تجاوزاتها. وحتى لو لم تجرِ الأمور في هذا الاتجاه، لكثير من الأسباب، فإنّ ذلك لا يبرر لهؤلاء السياسيين سقطاتهم الوطنية، ولا الاستمرار في تأكيد ذلك، ضمانًا لتحقيق الأهداف المعلنة.

بالنتيجة، تكامل عمل النظام مع ممارسات معظم معارضيه للدفع باتجاه رسم خطوط الصراع، بحيث تبدو، أو تكون بالفعل، حربًا أهلية يضيع فيها الاتجاه الذي تتحقق فيه التطلعات المشروعة للشعب السوري في الحرية والكرامة، بالمعنى السياسي والقانوني والحضاري. في هذه الأثناء، انزاح جوهر القضية، المتمثِّل بالتخلص من نظامٍ مستبدّ، إلى استحضار صراعات مذهبية، على رأسها الصراع السني- الشيعي، وليصبح السوريون ضحايا تصارع مصالح خارجية يُراد لها أن تتحقَّق على حساب دمائهم. وتشظَّت الحقيقة في هذه الحرب، كما في كل حرب!

بعد أن اتَّخذ الصراع منحىً أهليًا بصبغةٍ طائفية، وتقلّص نشاط الثورة المدنية؛ بسبب اشتراطات الفصائل الإسلامية، اقتنع العالم بأنْ لا حلَّ للمشكلة السورية إلاّ بالتوافق السياسي، وخرج اتفاق جنيف1 المتضمن تشكيل هيئة سلطة انتقالية في أواسط 2012.

***

حملت الانتفاضات التي حصلت في منطقتنا قوى الإسلام السياسي والجهادي إلى الواجهة؛ بسبب فشل المشاريع القومية واليسارية التي تسلقت على محاولات التنوير منذ بداية القرن العشرين، من دون أن تتبناها في العمق. لكن، ونظرًا لرفضها العمل بأساليب الحكم المعاصرة ونزوعها للاستبداد، بدأت القوى الإسلامية هذه بالانكشاف كقوى معادية للديمقراطية وآمال الشعوب في العيش الكريم. كما ساهمت العديد من التطورات في تحطيم آمال الإسلام السياسي في التنعُّم بالسلطة والاستفراد بها؛ فقد حدثت ثورة مصر الثانية في 30 حزيران/ يونيو 2013 وعاد العسكر إلى الواجهة بعد سنة من حكم الإخوان المسلمين[332]، وتراجعت حركة النهضة[333] إلى المرتبة الثانية في تونس بعد فوز مرشح حزب نداء تونس العلماني في الانتخابات الرئاسية[334]. كما بدأت الصدامات بين الجيش الليبي والمتطرفين الإسلاميين منذ أواسط شهر أيار/ مايو 2014، ودخلت الحرب على الإرهاب في سورية والعراق حيّز التنفيذ في النصف الثاني من عام 2014.

ليس من الحكمة في شيء أن نفرح بعودة العسكر إلى الحكم، الذين سيعيدون تثبيت مفاصل المجتمع إلى حين؛ لكنه حكم الضرورة للحيلولة دون تمكّن أولئك الذين لا يمكنهم التماشي مع روح العصر والعمل من خلال آلياته أو الانتقال إلى مستقبل تسوده دولة القانون والمواطنة والحريات، وهو الحلم الأساس لمَن انتفض في وجه الأنظمة العربية المستبدة.

---

[332] استغل/ استجاب الجيش المصري لموجة الاحتجاجات ضد حكم الإخوان المسلمين الإقصائي في 2013/6/30، وعاد إلى الساحة السياسية.

[333] لاحقًا، بتاريخ 19 أيار 2016، أعلن راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة عن أنّ الحركة ستخرج من الإسلام السياسي، مدشنًا بداية تحول مثير ومأمول في حركات الإسلام السياسي، ولا ينفصم ذلك عن واقع بذور التنوير التي نمت في عهد الرئيس بورقيبة منذ خمسينايت القرن العشرين.

http://www.dw.com/ar/الغنوشي-حركة-النهضة-الإسلامية-تخرج-من-الإسلام-السياسي/a-19269137

[334] أعلن فوز القائد السبسي في الانتخابات الرئاسية التونسية بتاريخ 22 كانون الأول/ ديسمبر 2014.

وطالما لم تحدث تطورات عميقة في الوعي للانعتاق من "سحر" الماضي وأوهامه، ستبقى مجتمعاتنا بين فكي كماشة العسكر والإسلاميين، وستعمل الجيوش العربية على احتكار السلطة لتأمين الاستقرار بالقوة، أو لحماية التحولات الديمقراطية، إن وجدت، وكأن التاريخ يعيد نفسه فيما يتعلق بالتجربة التركية[335]، مع أنّ الفرق الجوهري هنا يتمثّل بأنّ تركيا كانت قد وضعت دستورها العلماني وسارت على هداه، الدستور الذي هو ما منح الجيش، كمؤسسة، حقّ التدخل للحفاظ على النظام العلماني.

بعد تونس، مصر خاصَّة، ومؤخرًا ليبيا، ربما سيأتي دور الجيش السوري الجديد المُعادة هيكلته بعد تحقّق الحل السياسي المزعوم، ليساهم في المعركة ضد قوى التطرُّف الدينية، التي لم تستطع، من فرط ما تحمل من أثقالٍ تاريخية، تجاوز الفهم الضيق للتراث إلى الفضاء التاريخي والإنساني المفتوح، نظرًا لحاجتها لكمٍّ كبير من العنف، في محاولاتها العدمية للعودة إلى صورة متخيلة لحقبة تاريخية مضت ولن تعود.

تُعَدُّ القدرة على التلاؤم مع متطلبات العصر من أهم عناصر تفوُّق القوى الطامحة إلى التغيير، وهذا ما لا يمكن أن يفعله الإسلاميون الطامحون للتسلُّط بقوّة السلاح، حيث تشكل الفوضى واستغلال العواطف الدينية للبسطاء ميدانهم الرئيس، قبل أن يستيقظ الناس على هول ممارساتهم ونفاقهم.

غنيٌّ عن القول أيضًا: إنّ الأنظمة الاستبدادية غير قابلة للإصلاح، ومن أسباب استمرارها عدم القناعة بالبدائل التي تطفَّلت وتتطفَّل بالقوة على عملية التغيير، قوى الإسلام المتطرف خاصَّة.

---

[335] اعتبر الجيش التركي نفسه حاميًا للقيم العلمانية التي أسسها زعيمه التاريخي أتاتورك التي تعتبر جوهر الديمقراطية في تركيا. يعد الفشل المدوي للانقلاب الأخير الذي قام به جزء من الجيش في 15 تموز 2016 (وليس كمؤسسة كاملة، كما كان يحدث في الانقلابات السابقة) إيذاناً بانتهاء دور هذا الجيش كحامي للعلمانية، بعد أن نزل كثير من الأتراك إلى الساحات لحماية الديمقراطية والعلمانية التركيتين تحت راية العلم التركي، وليس لخدمة أجندات حزب العدالة والتنمية الحاكم.

وفي لعبة الصراع بين الاستبدادين الدنيوي والديني، يتبين مدى تلازمهما وحاجة كلٍّ منهما للآخر، إذ يستحيل الوصول إلى حكم مدني ديمقراطي من دون تجاوزهما معًا، ولحين تحقُّق ذلك، من خلال عوامل مختلفة قد تكون الحرب على الإرهاب إحداها، ستبقى منطقتنا أرضًا جاذبة للعنف ومصدِّرة له إلى بلدان بعيدةٍ أيضًا.

تبقى لبعض البلدان خصوصياتها في التطور الذي قد يأخذ أشكالًا تدريجية من التنازلات السلطوية، في محاولة للتكيُّف مع التحولات الاجتماعية البطيئة وامتصاص الأزمات التي تحدث في قاع المجتمع. رأينا بعضًا من هذه المعالم الإصلاحية في المغرب[336]، كمثالٍ واقعي لما يمكن أن يحصل في الممالك والإمارات العربية.

***

[336] مع اندلاع الاحتجاجات في المنطقة العربية في 2011 أعلن الملك المغربي عن تعديلات دستورية وإصلاحات.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/4E3698A4-F299-4896-A91B-D34F3A1AABA9.htm

تتطلّب مناشدة الآخرين تقديم المساعدة للشعب السوري في التخلص من نظام الاستبداد وتفكيكه، تتطلب تقديم تصوّر واضح لمستقبل سورية لكل أبنائها، تحضيرًا لمرحلةٍ انتقاليةٍ وسيطة يبدأ فيها التئام الجراح وإعادة بناء بلدنا المنكوب، وبمساعدة دولية فاعلة قد يتمثّل حدها الأدنى بكبح الصراع الإقليمي على سورية، كما حدث بعد التوافق الروسي- الأميركي وفرض وقف الأعمال العدائية في 27 شباط/ فبراير 2016. وطالما لم يتوقف القتل والعنف، لن يكون بوسع السوريين التعبير عما يريدون، وقد حولتهم المعارك إلى نازحين ولاجئين ومحاصرين وعاجزين، وبصورة تدمي أقسى القلوب.

كما لن يكون أيّ حوار ذا معنى ما لم يكن من أجل الانتقال بسورية إلى مرحلة تجري فيها كتابة مبادئ فوق دستورية ودستور[337] يتفق عليها/ عليه السوريون ويطمئنون إليها/ إليه، ويعيشون تحت مظلة القوانين والأنظمة التي تنبثق عنها/ عنه، وقد أخذوا أبلغ الدروس مما تسبب به هذا التدخل في السنوات الأخيرة.

وسيساهم توازن السلطات وتوزيعها في ضبط كل منها ومراقبتها لإبقائها تحت راية الدستور والقضاء، إلى جانب تحفيز مختلف منظمات المجتمع المدني، بما في ذلك المشاركة الفعالة للشباب للنساء، من أجل أن يعبر الناس عن مصالحهم في إطار لا مركزي يأخذ جميع الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لمختلف المكونات السورية بالاعتبار، بحيث يتلاءم التطور مع حاجات الناس ولا يُفرض عليهم فرضًا، مع أنّ احتمال تشظّي سورية ما زال قائمًا؛ بسبب كثرة التداخلات الدولية وتضارب المصالح المرتبط بها.

[337] الدستور الذي تكون مرجعيته أساسًا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كخلاصة للقيم الدينية والإنسانية على مر العصور.

لا يمكن للانفجار السوري أن يكون عكوسًا، وستحمل الأيام المقبلة معها مصاعب كبيرة؛ بسبب إهمال الحلول الاجتماعية والاقتصادية لعقود، والدمار الهائل المادي والروحي في السنوات الأخيرة. لعل الخطوة الأولى تتمثل باقتناع السوريين بمشروع المواطنة المتساوية أمام القانون؛ من أجل أن نضمن لأجيال سورية المقبلة العيش والاستقرار والتطور من دون اهتزازاتٍ مدمرة، حينئذٍ، قد يتحول التنوُّع الديني والقومي والثقافي إلى مصدر غنيً لسورية المستقبل.

فهل سيتقبل السوريون عملية التغيير الديمقراطي؟ يستند هذا التساؤل إلى استنفاذ شبه تام لطاقة الصراع في سورية وتحوّله إلى لعبة دولية وإقليمية، مع تزايد قناعة كثير من السوريين الواقعين في تقاطع النيران بضرورة وقف الحرب ونبذ المواقف المتطرفة لصالح حالة انتقالية تمهّد لتغيرات مستمرة، ولو بطيئة، في الواقع السوري المنهك، إذ إنّ ذلك أفضل بكثير من استمرار القتل والدمار، على أن يبدأ الأمر من حيث انتهى؛ أي من الحلقة الدولية المؤثرة والضامنة لخروج جميع الميليشيات الطائفية من سورية، فلا بديل عن التوافق الدولي في المدى المنظور الذي يأخذ الآن طابع احتلال مباشر أو نفوذ على الأرض، كمرحلة موقتة وكافية لانتعاش المجتمع السوري المنهك.

يتزايد في غضون ذلك، إدراك الناس لمخاطر الاستبدادين السياسي والديني معًا، أو كلّ على حدة، بعد أن ذاقوا الويلات من حربهما المدمرة التي اعتاشت على دمهم وحريتهم وكرامتهم، ما قد يساهم في تعبيد مسار التطورات المنتظرة.

يشكل الاستبداد الديني حالة كامنة وأرضية ملائمة لنشوء الاستبداد السياسي بسبب امتزاجه بثقافة الناس العاديين، وقد ارتبط الدين في أذهانهم بممارساتٍ طقوسية في مذاهب متعايشة في أفضل الحالات. لم تتغير هذه الحالة جوهريًا منذ العهد الأموي، وحان الوقت للتفكير بنظام سياسي جديد ينبثق من عدمية الصراع الحالي، ويحقق حلم السوريين بحياة حرة كريمة.

أواخر تسعينيات القرن المنصرم، في نهاية إحدى محاضراتي بجامعة تشرين في اللاذقية، اقترب منّي أحد الطلاب، ودعاني بلطفٍ، لكن بثقة، لتطبيق أركان الإسلام، وقال بأنّ تفانيَّ في العمل ومعاملتي الحسنة لطلابي مرهونةٌ بالتزامي الديني، الذي سيكتمل من خلاله إيماني كمسلم؛ فالدين عند الله الإسلام!

استنادًا إلى هذه النظرة التبسيطية المتوارثة، ومهما أتقن عمله وصَلُح سلوكه، يبقى الفرد بحاجة إلى "صك غفران" ديني من هذا المذهب أو ذاك، بخلاف مبرر وجود الأديان ذاتها، وهو العمل الصالح على قاعدة "خير الأعمال ما ينفع الناس"، وأنّ الطقوس التي يمارسها المؤمنون ليست سوى تعبيرات شكلية وعلاقات مع مَن يعبدون خاصَّة. وعلى الرغم مما تبدو عليه دعوة الطالب هذه من براءة، فقد يُشتقُّ منها طيفٌ من الممارسات التي تصل إلى حدّ التكفير في أوضاع تستيقظ فيها الفتن والصراعات المذهبية والدينية، كما يحدث في بلدنا منذ عدة سنوات بغية تأجيل تحرُّر السوريين وانعتاقهم.

ثمة كثير من الشعوب التي عرفت قيمًا اجتماعية مهمة من دون أن ترتبط بدين سماوي (الشعب الياباني على سبيل المثال لا الحصر)، وإن منبع القيم ليس محصورًا بعقيدة محددة، سماوية أم أرضية، إنما يتعلق بتراكم التجارب الإنسانية وتطور النظم الأخلاقية والسياسية؛ بل إنّ تمثُّل هذه القيم ذاتها؛ أي من دون ربطها بالمقدّس، قد يكون ترياقًا يقي من الممارسات التي تحدث باسم الدين، وتبرِّر حتى القتل براحة ضمير منقطعة النظير.

أما فيما يتعلق بحالة الاستبداد السياسي في سورية، فقد أثبتت الوقائع، سواء ما كان منها قبل اندلاع الاحتجاجات أو بعدها، استحالة حدوث التغيير بآلياتٍ من داخل السلطة ذاتها. على سبيل المثال، لم يفضِ رفع المادة الثامنة من الدستور السابق قبل عام 2012، التي تقول: إن حزب البعث هو قائد الدولة والمجتمع، إلى أي تغيير في مفاصل بنية الإدارات المتكلسة، والأنكى من ذلك أنّ التلاميذ ما زالوا يرددون هذه الشعارات في باحات المدارس!

واتّضح الآن أكثر من أي وقت مضى أنه من شبه المستحيل حدوث تغير في القوانين والأساليب التي تعمل بوساطتها أجهزة الدولة من دون تغيير البنية السياسية ذاتها، وإن تراخي القبضة الأمنية في المناطق التي يسيطر عليها النظام لا يعود إلى تغييرٍ في السياسات، إنما تفرضه فداحة الخسائر التي تتكبّدها المجتمعات المحلية، وخطورة العبث في واقعٍ أضحى مفرطَ الحساسية.

لقد عانت مجتمعاتنا الويلات من تحالف الدين والسياسة على مر التاريخ، وكان الدين عباءةً تستظلّ بها المصالح السياسية والمادية. وعلى الرغم من تضافر جهود طرفي الاستبداد للسيطرة على المجتمع، لم يخلُ الأمر من شقاق بينهما أحيانًا، ومن وقتٍ لآخر، من دون أن يخلّ ذلك بالتوازن القائم، مثلما لم تؤثر الخلافات ضمن هذا الطرف أو ذاك على ثبات التحالف المذكور أيضًا الذي لا يلبث أن يعود إلى حالة الاستتباب، ويعيق أي محاولات إصلاحية.

تقسم المهمات في التحالف السياسي- الديني بين طرفي المعادلة على نحوٍ غريزي، إذ يعمل الاستبداد الديني، وتبرعماته المتطرفة، على إخضاع الحريات الفردية إلى منظومته شبه المغلقة ما يحدّ من الإبداع في مختلف المجالات، وفي العلوم الإنسانية والاتجاهات الفنية التي تؤنسن الفرد أكثر وتربطه بمنظومة القيم الإنسانية خاصّة. في المقابل، يركز الاستبداد السياسي على إخضاع الفرد لمنظومة الرأي الواحد عبر أيديولوجية ما أو شخصية "القائد الرمز"، تاركًا له ممارسة غرائزه بحريةٍ نسبية، ما يفضي، في نهاية المطاف، إلى مسخ شخصيته، فضلًا عن التعامل معه كخصم سياسي عليه أن يثبت موالاته وخضوعه على الدوام.

استمر هذا "النموذج" في الحكم حتى ارتجّ الواقع السوري عام 2011، ومن ثم دخوله في متاهاتٍ غيّبت البديل الديمقراطي المُنتظر كإطارٍ للحلّ الذي كان من المرجّح أن يقطع تدريجًا مع طريقة الحكم السابقة، ويضع أسس دولة دستورية تُخضع الفرد لحاجات المجتمع بوساطة سلطة الدستور والقانون.

مع ذلك، تشير معطيات اللحظة الراهنة، ومن خلال الحوارات الحيّة التي تحدث في الداخل على الأقل، إلى حدوث تحوُّلات في وعي كثير من السوريين، تبعًا للأوضاع السائدة في كل منطقة، وتتلخّص برفض استمرار الحرب، وضرورة وجود الرأي الآخر كحالة طبيعية للبحث عن الحل الوطني المنشود بمشاركة الجميع؛ الأمر الذي يساعد في تقبُّل فكرة التغيير باتجاه دولة القانون والمواطنة، بما في ذلك استبعاد هيمنة الفعاليات الدينية و"الأمنية" عن منظومة الدولة الإدارية.

ومع أن العامل الدولي كان، وما يزال، أحد العوامل الرئيسة في تفاقم الوضع، فقد يفضي اتفاق الدول المؤثرة على وقف الحرب واعتماد السياسة إطارًا للحل إلى تجلّي

ملامح الوعي المذكورة أعلاه في حراكٍ اجتماعي متزايد تلتقي روافده وتتبلور في مشتركات وطنية، وعبر مرحلة وسيطة تشكل العدالة الانتقالية ركنًا أساسيًا منها؛ الأمر الذي يمهد لنشر أفكار التسامح وتركيز الجهود باتجاه البناء والتنمية.

مهما بدا الوضع قاتمًا، فثمة ضوء في آخر النفق إنْ تمكّنا من إدارة مواردنا المتعدّدة، والقطع مع تاريخنا الاستبدادي، واعتماد اللامركزية في إدارة معظم شؤوننا. إنّها مهمة هائلة تتطلّب تشكيل وعي وطني سوري جديد، ولنا في تجارب البلدان الأخرى، التي تجاوزت حالات الدمار المادي والبشري، خير مثال.

ملاحق

[i] "نشرت مقالة على موقعي الشخصي في موقع "الحوار المتمدن" بعد حوالي شهر (تموز 2003) بعنوان: "آخر أباطرة العنترية". يبدو أن المقالة قد حذفت من الموقع؛ ولكنني وجدتها في موقع آخر:

https://groups.yahoo.com/neo/groups/levantnews/conversations/messages/216

آخر أباطرة العنترية بقلم: د. منير شحود*

أخبار الشرق - 25 تموز 2003

قادني الفضول لحضور محاضرة السيد ناصر قنديل في جامعة تشرين باللاذقية في جولة كُلِّف بها لإتحاف المواطنين السوريين بمحاضرات مناسباتية "تثقيفية تنويرية." كان الحضور "المميز" فيها يختلف عن حضور حاشد جاء لسماع محاضرة الدكتور طيب تيزيني منذ أربع سنوات التي تمحورت وقتئذ حول توصيف الدولة القطرية وقد تحولت إلى دولة أمنية يتلخص شعارها بأن على الجميع أن يفسد الجميع حتى يصبح الجميع مدانين أمام أجهزتها (..). كان ذلك تحليلا جريئًا لجمهور متلفع بالثقافة "القومية الاشتراكية" ومؤشرًا لحياة بدأت تدب. وقتئذ تنفسنا الصعداء لعلّها إشارة إلى تحوُّل منتظر يتعطش الجميع إليه. امتلأ المدرج الذي ألقيت فيه محاضرة الدكتور طيب تيزيني عن آخره الحضور، جلوسًا ووقوفًا، وبقي العشرات ممن لم يحالفهم الحظ في العثور على موطئ قدم فتجمعوا عند الباب.

نعود لمحاضرة السيد ناصر قنديل المؤرخة بعد شهرين على سقوط بغداد. فقد أتحفنا، كعادته، بخطاب حماسي إنشائي متفائل حفَّز فيه مواهب الجمهور "المميز" الذي لم يبخل عليه بالتصفيق والدعم مما يذكر بحوادث الاجتماعات الحاشدة في رواية "مزرعة الحيوانات" لجورج أورويل (كتبت الرواية عام 1949م للتنويه بالعبرة التاريخية.(! وبعد انتهاء المحاضرة، وجدت نفسي أسأل السيد قنديل عن فائدة مثل هذه المحاضرات الإنشائية، وأنه من الأجدى التعاون بيننا بصيغ أخرى كأن نستفيد من الخبرات المصرفية للبنان في وقت يعتبر فيه القطاع المصرفي السوري متخلفا بجدارة. في الواقع، كنت أمدحه كلبناني بعد أن قرأت أن لبنان جاء في المرتبة الثانية عالميًا في هذا المضمار، ولم أعلم لحظتها أن ذلك سينقلب وبالًا عليَّ. وقلت للسيد قنديل: إننا مللنا مثل هذه المحاضرات وبتنا لا نسمع مثلها حتى في بلدنا نفسه. وعقَّب بعضٌ من الحضور "المميز" على كلامي مستهجنًا طرح مثل هذه الأفكار الغريبة في هذه الأحوال، وفي هذه المحاضرة "المعصومة" بالذات. عندها، أخذ السيد ناصر قنديل نَفَسًا وقد امتقع وجهه واستعد لمواجهة من نمط أم المعارك التي أصبحت مع بطلها في ذمة التاريخ، وأسرع في تدوين ملاحظاته بحَميَّة عظيمة.

بدأ السيد قنديل تعقيبه على كلامي بنعتي "معارضًا"، وقال: إن كلامي تُشتم منه رائحة العنصرية (!)، ويذكره بمواقف القوى الانعزالية في الحرب الأهلية اللبنانية، ليلفت نظر لحضور إلى مدى عدم الاحترام الذي تكنُّه هذه القوى للمواطن السوري. وأنني، والكلام للسيد نفسه، لا أقدِّر تضحيات حزب الله كإنجاز لبناني عظيم (لا أعرف كيف توصَّلت عبقريته الفذة إلى إقحام حزب الله في معركته هذه). وبنبرة ارتفعت حدتها شيئًا فشيئًا، وصلت عنترية السيد قنديل إلى أبهى تجلياتها عندما بدأ يدافع عن نفسه ضد تُهم لم توجَّه إليه: فهو ليس كذا وكذا (..)ولا يملي عليه أحد ما يقوله (شكرًا لفلتات اللسان اللاشعورية الفرويدية على عملها الرائع). وعبر السيد القنديل عن أسفه لوجود أستاذ جامعي سوري بهذا المستوى (لا يقصد بالطبع المستوى المادي!). وعندما طلبت الرد عليه من الممثل النقابي لم أتلق أي إجابة، ولم أُفاجأ بذلك في الواقع، وهذا ما دفعني إلى تأجيل ردي إلى حين توفر الفرصة النادرة.

خرجت من المدرج وقد شعرت أنني وقعت في مأزق. إذ يبدو الأمر غريبًا بعد أن وضعتنا الحوادث الأخيرة خاصَّة أمام تساؤلات قلقة لا يمكن تجاهلها بهذه البساطة. فقد ألَّب المحاضر الجميع ضدي بأسلوب غير معهود وبإنشائية لغوية يحسده عليها كل من لا يستطيع التعبير عن وجهة نظره بهذه البلاغة التي يطرب لها الملوك والسلاطين. ويبدو أن السيد قنديل لم يتوقع أن يجرؤ أحد على معاتبته وذلك لتمتعه، كما يبدو، بحصانة الضيف. ويبدو أن قناعته بكوني معارضًا أعطته الحق في أن يسرح ويمرح في بلده الثاني - ورية (أهلا وسهلا!). قامت بعدها القيامة وشعرت أنني ريشة في مهب الريح، والآن فقط يمكنني القول إنني، ربما، نجوت. أولًا، ينبغي لي أن أشكر السيد قنديل على وصفي كمعارض في هذا الوقت حيث يُعترف عندنا بوجود المعارضة من دون أن توصف بالخيانة والتآمر، ولعل ذلك منحني شعورًا انطولوجيا بالثقة، فأن أكون معارضًا، بالرأي طبعًا، خير لي من أن أكون مواطنًا مجرَّدًا إلا من واجباتي (ويستثنى منها الواجب الانتخابي حتى إشعار آخر). وعن الانعزالية فقد مضى زمن تغيرت فيه المواقف والمعطيات وليس من الحكمة ولا من مصلحة الشعبين السوري واللبناني العودة إلى مثل هذه المصطلحات، ولا سيما أننا نبحث عن علاقة جديدة يتحقق فيها الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وبعيدة كل البعد عن أي هيمنة أو استحواذ من أي جهة كانت. ولن تتحقق مثل هذه العلاقة، برأيي، إلا عندما يؤسس احترام المواطن في بلده على أساس قوانين عصرية تحترم إنسانيته وكفاءته. وعن عدم احترام بعض اللبنانيين للمواطنين السوريين، كما يتفضل السيد قنديل، فثمة أسباب لا يتحمل هؤلاء البعض المسؤولية وحدهم عنها. وأترك ما خلا ذلك من اتهامات السيد قنديل لحكم التاريخ.

ثانياً، وددت لو يتكرم قاضي التحقيق الأول في لبنان السيد المحترم عدنان عضوم بنصحي، كمواطن سوري، حول إمكانية مقاضاة السيد قنديل على اتهامه لي بالعنصرية، وما حكم ذلك عندما يوجَّه الاتهام من لبناني إلى سوري في بلده، مع تفهمي للروابط المميزة بين شعبينا!

*أستاذ في كلية الطب بجامعة تشرين – اللاذقية

[ii] شكلت الهيئة من عدة أحزاب يسارية معارضة، مثل حزب العمل الشيوعي وحزب الاتحاد الاشتراكي وأربعة أحزاب كردية، إضافة إلى شخصيات مستقلة من داخل سوريا وخارجها، وهدفت إلى التغيير الوطني الديمقراطي. اشتهرت هيئة التنسيق بلاآتها الثلاثة: لا للعنف، لا للتدخل العسكري، لا للطائفية، ولم تدعُ صراحة إلى إسقاط النظام، وهو ما يفرّقها عن منظمات معارضة أسست خارج سوريا ودعت لتوفير حماية دولية للشعب السوري، ولم تقبل بأي حل سياسي لا يتضمن رحيل النظام الحالي في دمشق.

طالبت الهيئة في بيانها التأسيسي بإطلاق حوار جاد مع النظام بعد توفير شروطه اللازمة، ومن أهمها وقف العمل بالحل الأمني العسكري، والإفراج عن جميع الموقوفين والمعتقلين السياسيين، وتأليف لجنة تحقيق مستقلة لمحاسبة المسؤولين عن القتل وإطلاق النار على المتظاهرين، ورفع حالة الطوارئ والأحكام العرفية، والاعتراف بحق التظاهر السلمي.

وأكدت الهيئة البقاء على تكامل وتفاعل مع انتفاضة الشعب السوري السلمية في سبيل الحرية والكرامة وإقامة الدولة الوطنية الديمقراطية المدنية الحديثة، ووضع مصلحة الوطن والشعب فوق كل مصلحة، وإدانة أي خطاب أو سلوك من شأنه إثارة الفرقة بين السوريين على أساس ديني أو طائفي أو مذهبي أو عرقي.

syrianncb.org

[iii] عبّرت حركة "معًا" عن دعم النضال السلمي للشعب من أجل الحرية والديمقراطية وبناء الدولة المدنية، والوقوف بوجه العنف، وتعزيز الوحدة الوطنية، ومقاومة جميع أشكال التحريض الطائفي والتفرقة بين السوريين، وتعزيز القيم الوطنية ومناهضة التدخل الخارجي، وتعزيز ثقافة الاختلاف وقبول الآخر، ونشر وتعزيز ثقافة حقوق الإنسان، وتعزيز مفهوم المواطنة، وبناء سورية مدنية ديمقراطية يتمتع فيها المواطنون جميعاً بالحقوق والواجبات على قدم المساواة. انضمت الحركة إلى هيئة التنسيق الوطنية فور تأليفها، ثم خرجت منها في 2012/9/14.

[iv] إعلان دمشق هو تحالف سوري معارض أسس عام 2005، وهذا هو بيانه التأسيسي:

تتعرض سوريا اليوم لأخطار لم تشهدها من قبل، نتيجة السياسات التي سلكها النظام، وأوصلت البلاد إلى وضع يدعو للقلق على سلامتها الوطنية ومصير شعبها. وهي اليوم على مفترق طرق بحاجة إلى مراجعة ذاتها والإفادة من تجربتها التاريخية أكثر من أي وقت مضى. فاحتكار السلطة لكل شيء، خلال أكثر من ثلاثين عاما، أسس نظامًا تسلطيًا شموليًا فئويًا، أدى إلى انعدام السياسة في المجتمع، وخروج الناس من دائرة الاهتمام بالشأن العام؛ الأمر الذي مما أورث البلاد هذا الحجم من الدمار المتمثل بتهتك النسيج الاجتماعي الوطني للشعب السوري، والانهيار الاقتصادي الذي يهدد البلاد، والأزمات المتفاقمة من كل نوع. إلى جانب العزلة الخانقة التي وضع النظام البلاد فيها، نتيجة سياساته المدمرة والمغامرة وقصيرة النظر على المستوى العربي والإقليمي في لبنان خاصَّة، التي بنيت على أسس استنسابية وليس على هدى المصالح الوطنية العليا.

كل ذلك وغيره كثير، يتطلب تعبئة جميع طاقات سوريا الوطن والشعب، في مهمة تغيير إنقاذية، تخرج البلاد من صيغة الدولة الأمنية إلى صيغة الدولة السياسية، لتتمكن من تعزيز استقلالها ووحدتها، ويتمكن شعبها من الإمساك بمقاليد الأمور في بلاده والمشاركة في إدارة شؤونها بحرية. إن التحولات المطلوبة تطال مختلف جوانب الحياة، وتشمل الدولة والسلطة والمجتمع، وتؤدي إلى تغيير السياسات السورية في الداخل والخارج. وشعورًا من الموقعين بأن اللحظة الراهنة تتطلب موقفًا وطنيًا شجاعًا ومسئولًا، يخرج البلاد من حالة الضعف والانتظار التي تسم الحياة السياسية الراهنة، ويجنبها مخاطر تلوح بوضوح في الأفق. وإيمانًا منهم بأن خطا واضحًا ومتماسكًا تجمع عليه قوى المجتمع المختلفة، ويبرز أهداف التغيير الديمقراطي في هذه المرحلة، **يكتسب أهمية خاصة في إنجاز هذا التغيير على يد الشعب السوري ووفق إرادته ومصالحه، ويساعد على تجنب الانتهازية والتطرف في العمل العام فقد اجتمعت إرادتهم بالتوافق على الأسس التالية:**

- إقامة النظام الوطني الديمقراطي هو المدخل الأساس في مشروع التغيير والإصلاح السياسي. ويجب أن يكون سلميًا ومتدرجًا ومبنيًا على التوافق، وقائمًا على الحوار والاعتراف بالآخر.

- نبذ الفكر الشمولي والقطع مع جميع المشاريع الإقصائية والوصائية والاستئصالية، تحت أي ذريعة كانت تاريخية أو واقعية، ونبذ العنف في ممارسة العمل السياسي، والعمل على منعه وتجنبه بأي شكل ومن أي طرف كان.

- الإسلام الذي هو دين الأكثرية وعقيدتها بمقاصده السامية وقيمه العليا وشريعته السمحاء يعتبر المكون الثقافي الأبرز في حياة الأمة والشعب. تشكلت حضارتنا العربية في إطار أفكاره وقيمه وأخلاقه، وبالتفاعل مع الثقافات التاريخية الوطنية الأخرى في مجتمعنا، ومن خلال الاعتدال والتسامح والتفاعل المشترك، بعيدًا عن التعصب والعنف والإقصاء. مع الحرص الشديد على احترام عقائد الآخرين وثقافتهم وخصوصيتهم أيا كانت انتماءاتهم الدينية والمذهبية والفكرية، والانفتاح على الثقافات الجديدة والمعاصرة.

- ليس لأي حزب أو تيار حق الادعاء بدور استثنائي. وليس لأحد الحق في نبذ الآخر واضطهاده وسلبه حقه في الوجود والتعبير الحر والمشاركة في الوطن.

- اعتماد الديمقراطية كنظام حديث عالمي القيم والأسس، يقوم على مبادئ الحرية وسيادة الشعب ودولة المؤسسات وتداول السلطة، من خلال انتخابات حرة ودورية، تمكن الشعب من محاسبة السلطة وتغييرها.

- بناء دولة حديثة، يقوم نظامها السياسي على عقد اجتماعي جديد. ينتج عنه دستور ديمقراطي عصري يجعل المواطنة معيارًا للانتماء، ويعتمد التعددية وتداول السلطة سلميا وسيادة القانون في دولة يتمتع جميع مواطنيها بذات الحقوق والواجبات، بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الإثنية أو الطائفة أو العشيرة، ويمنع عودة الاستبداد بأشكال جديدة.

- التوجه إلى جميع مكونات الشعب السوري، إلى جميع تياراته الفكرية وطبقاته الاجتماعية وأحزابه السياسية وفعالياته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإفساح المجال أمامها للتعبير عن رؤاها ومصالحها وتطلعاتها، وتمكينها من المشاركة بحرية في عملية التغيير.

- ضمان حرية الأفراد والجماعات والأقليات القومية في التعبير عن نفسها، والمحافظة على دورها وحقوقها الثقافية واللغوية، واحترام الدولة لتلك الحقوق ورعايتها، في إطار الدستور وتحت سقف القانون.

- إيجاد حل ديمقراطي عادل للقضية الكردية في سوريا، بما يضمن المساواة التامة للمواطنين الأكراد السوريين مع بقية المواطنين من حيث حقوق الجنسية والثقافة وتعلم اللغة القومية وبقية الحقوق الدستورية والسياسية والاجتماعية والقانونية، على قاعدة وحدة سورية أرضًا وشعبًا. ولا بد من إعادة الجنسية وحقوق المواطنة للذين حرموا منها، وتسوية هذا الملف كليًا.

- الالتزام بسلامة المتحد الوطني السوري الراهن وأمنه ووحدته، ومعالجة مشكلاته من خلال الحوار، والحفاظ على وحدة الوطن والشعب في جميع الأحوال. والالتزام بتحرير الأراضي المحتلة واستعادة الجولان إلى الوطن. وتمكين سورية من أداء دور عربي وإقليمي إيجابي فعال.

- إلغاء جميع أشكال الاستثناء من الحياة العامة، بوقف العمل بقانون الطوارئ، وإلغاء الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية، وجميع القوانين ذات العلاقة، ومنها القانون / 49 / لعام 1980، وإطلاق جميع السجناء السياسيين، وعودة جميع الملاحقين والمنفيين قسرًا وطوعًا عودة كريمة آمنة بضمانات قانونية، وإنهاء جميع أشكال الاضطهاد السياسي، برد المظالم إلى أهلها وفتح صفحة جديدة في تاريخ البلاد.

- تعزيز قوة الجيش الوطني والحفاظ على روحه المهنية، وإبقائه خارج إطار الصراع السياسي واللعبة الديمقراطية، وحصر مهمته في صيانة استقلال البلاد والحفاظ على النظام الدستوري والدفاع عن الوطن والشعب.

- تحرير المنظمات الشعبية والاتحادات والنقابات وغرف التجارة والصناعة والزراعة من وصاية الدولة والهيمنة الحزبية والأمنية. وتوفير شروط العمل الحر لها كمنظمات مجتمع مدني.

- إطلاق الحريات العامة، وتنظيم الحياة السياسية عبر قانون عصري للأحزاب، وتنظيم الإعلام والانتخابات وفق قوانين عصرية توفر الحرية والعدالة والفرص المتساوية أمام الجميع.

- ضمان حق العمل السياسي لجميع مكونات الشعب السوري على اختلاف الانتماءات الدينية والقومية والاجتماعية.

- التأكيد على انتماء سورية إلى المنظومة العربية، وإقامة أوسع علاقات التعاون معها، وتوثيق الروابط الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية التي تؤدي بالأمة إلى طريق التوحد. وتصحيح العلاقة مع لبنان؛ لتقوم على أسس الحرية والاستقلال والسيادة والمصالح المشتركة بين الشعبين والدولتين.

- الالتزام بجميع المعاهدات والمواثيق الدولية وشرعية حقوق الإنسان، والعمل ضمن إطار الأمم المتحدة وبالتعاون مع المجموعة الدولية على بناء نظام عالمي أكثر عدلا، قائم على مبادئ السلام وتبادل المصالح، وعلى درء العدوان وحق الشعوب في مقاومة الاحتلال، والوقوف ضد جميع أشكال الإرهاب والعنف الموجه ضد المدنيين.

ويرى الموقعون على هذا الإعلان أن عملية التغيير قد بدأت بما هي فعل ضرورة لا تقبل التأجيل نظرًا إلى حاجة البلاد إليها، وهي ليست موجهة ضد أحد؛ بل تتطلب جهود الجميع. وهنا ندعو أبناء وطننا البعثيين وإخوتنا من أبناء مختلف الفئات السياسية والثقافية والدينية والمذهبية إلى المشاركة معنا وعدم التردد والحذر؛ **لأن التغيير المنشود لصالح الجميع ولا يخشاه إلا المتورطون بالجرائم والفساد. ويمكن أن يتم تنظيمها وفق ما يلي:**

1 - فتح القنوات لحوار وطني شامل ومتكافئ بين جميع مكونات الشعب السوري وفئاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفي جميع المناطق وفق منطلقات قاعدية تتمثل بـ:

- ضرورة التغيير الجذري في البلاد، ورفض جميع أشكال الإصلاحات الترقيعية أو الجزئية أو الالتفافية.

- العمل على وقف حالة التدهور واحتمالات الانهيار والفوضى، التي قد تجرها على البلاد عقلية التعصب والثأر والتطرف وممانعة التغيير الديمقراطي.

- رفض التغيير الذي يأتي محمولا من الخارج، مع إدراكنا التام لحقيقة وموضوعية الارتباط بين الداخلي والخارجي في مختلف التطورات السياسية التي يشهدها عالمنا المعاصر، من دون دفع البلاد إلى العزلة والمغامرة والمواقف غير المسؤولة. والحرص على استقلالها ووحدة أراضيها.

2 - تشجيع المبادرات للعودة بالمجتمع إلى السياسة، وإعادة اهتمام الناس بالشأن العام، وتنشيط المجتمع المدني.

3 - تأليف اللجان والمجالس والمنتديات والهيئات المختلفة، محليًا وعلى مستوى البلاد؛ لتنظيم الحراك العام الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ومساعدتها على أداء دور مهم في إنهاض الوعي الوطني وتنفيس الاحتقانات، وتوحيد الشعب وراء أهداف التغيير.

4 - التوافق الوطني الشامل على برنامج مشترك ومستقل لقوى المعارضة يرسم خطوات مرحلة التحول، ومعالم سورية الديمقراطية في المستقبل.

5 - تمهيد الطريق لعقد مؤتمر وطني، يمكن أن تشارك فيه جميع القوى الطامحة إلى التغيير، بما فيها من يقبل بذلك من أهل النظام؛ لإقامة النظام الوطني الديمقراطي بالاستناد إلى التوافقات الواردة في هذا الإعلان، وعلى قاعدة ائتلاف وطني ديمقراطي واسع.

6 - الدعوة إلى انتخاب جمعية تأسيسية، تضع دستورًا جديدًا للبلاد، يقطع الطريق على المغامرين والمتطرفين. يكفل الفصل بين السلطات، ويضمن استقلال القضاء، ويحقق الاندماج الوطني بترسيخ مبدأ المواطنة.

7 - إجراء انتخابات تشريعية حرة ونزيهة، تنتج نظامًا وطنيًا كامل الشرعية، يحكم البلاد وفق الدستور والقوانين النافذة، وبدلالة رأي الأكثرية السياسية وبرامجها.

وبعد.. هذه خطوات عريضة لمشروع التغيير الديمقراطي كما نراه، الذي تحتاجه سورية، وينشده شعبها، يبقى مفتوحا لمشاركة جميع القوى الوطنية من أحزاب

سياسية وهيئات مدنية وأهلية وشخصيات سياسية وثقافية ومهنية، يتقبل التزاماتهم وإسهاماتهم، ويظل عرضة لإعادة النظر من خلال ازدياد جماعية العمل السياسي وطاقاته المجتمعية الفاعلة.

إننا نتعاهد على العمل من أجل إنهاء مرحلة الاستبداد، ونعلن استعدادنا لتقديم التضحيات الضرورية من أجل ذلك، وبذل كل ما يلزم لإقلاع عملية التغيير الديمقراطي، وبناء سوريا الحديثة وطنًا حرًا لكل أبنائها، والحفاظ على حرية شعبها، وحماية استقلالها الوطني.

دمشق في 16-10-2005

[v] جاء في رسالة الطبيبة ذات المرجعية الثقافية الدينية والإنسانية: ".. ياريتني كنت مستوعبة الشي اللي عبصير.. ما عدت فهمت شي.. ولا حتى مرتاحة لشي.. ولا حاسة إنو الله مع أي حدا.. ياريتني أكون غلطانة.. ما بعرف منين أبدأ.. بتمنى ما أظلم حدا بكلامي اللي معظمه مشاهدات شخصية وجزء منه رواية من ناس ثقة.. سامحني إذا طوّلت عليك..

شعب حلب أساسًا أغلبية مؤيدة مو لشي بس شعب بحب الراحة والبسط.. فجأة صارو جوا المعركة.. ظلموا الجيش الحر كتير.. وظلمهون كتير.. أول فترة من أحداث حلب بلشت تجي لمشفى الجامعة شاحنات محملة بجثث شباب.. منها جثث متفسخة ومنها لأ.. ومعظمها شباب أيديهم مقيدة للخلف ومقتولين.. تتكوم الجثث فوق بعضها والبراد ما يستوعب.. فيتركوها عند باب الإسعاف.. وتعبق رائحة الموت القذرة في المشفى لدرجة الناس تستفرغ.. والذباب يعبي الدنيا.. بعدين صاروا يصوروهم ويدفنوهم.. لو تشوف شلون تنسحب الجثث.. تنركل بالأرجل.. أو تنسحب عارية.. عند قسم الإسعاف دماء تملأ الأرض.. ناس شايلة أيديها وأرجلها.. وناس عبتبكي من الألم.. أو لموت شي حدا.. وأمهات وآباء عبيتعرفو ع جثث أولادهم..

بتطلع من المشفى.. ع بعد كم متر.. للموغامبو والمقاهي جنب البولمان بتلاقي العالم سهرانة.. والأراكيل منصوبة كأنو المشفى بلد تاني وعالم ضحكاتها معبية وجوهها بالتزامن مع أصوات القصف..

المدارس تغص بالنازحين.. حتى الأقبية.. والنازحين قصة مستقلة.. ناس مو عرفانة إش صاير أو ما بدا تعرف.. أولاد كتير.. وأنانية لا تخفى على المشاهد.. ناس مستعدة تاخد كل شي أكل أو منظفات أو دواء مجانًا وتخزنها أو تبيعها ولو ع حساب غيرها.. ناس عبتاكل بعضا فعلًا.. يمكن عمبظلمهم.. ما بعرف.. بس طلعنا شعب كتير أناني.. نسبة أكبر من اللي متوقعتها مستعدة تذل نفسها لأبسط شي.. وتكذب.. وتشحد وتترجى وتشكي مقابل أي شي.. أي شي.. ونسبة قليلة ما بتطلب حتى لو ماتت من الجوع.. ورجال من جيل أجدادنا بتبكي من الهوان لو تقدمتلهم مساعدة.. وشباب من قاع المجتمع نظراتهم تملؤها القذارة.. وبنات طالعين جديد عالحياة.. مجتمعين بمكان واحد.. بتخيل بعد فترة رح نسمع كوارث إذا ضل الوضع هيك.. والناس بالخيم.

معظم العائلات صارت متخانقة مع بعضها شي مشان مؤيد ومعارض وشي من كتر الاحتكاك لأنو صار كل بيت يحوي كذا عائلة.. مافي أسهل من إنك تسمع صوت خناقة طالع كل لحظة من شي بيت..

ونحن اللي عايشين بحي سليم لحد الآن.. وبيتنا كبير.. وأهلي كنت أشوفهم رائعين.. ماعنا استعداد نجيب عيلة من شي خيمة ونسكنهم معنا.. ولا عنا استعداد نقسم طعامنا وشرابنا مع حدا.. بالعكس كملنا حياتنا، وعملنا مونة الأكل بالفريزر للشتوية عأساس رح نعيش لناكل هالأكل..

الجيش الحر بيجيك شعور أحياناًإنو مو عارف إش عبيعمل ولا مخطط لشي.. كلمة (الله أكبر) شو انحط من مقامها!!... أستغفر الله.. بتنقال وقت القتل.. ووقت النهب.. كتير ناس فاسدة انضمت للجيش الحر وصارت تنهب وتقتل باسمه.. بس تقول عند القتل (الله أكبر).. رغم هيك الجيش الحر أغلبية نظيفة الكف.. جاي مشان قضية بس لسا ما نقيت قلوبهم ولا عقيدتهم تماماً.. وبكّير عليهم يشيلو سلاح. ووقت حدا بينقد الجيش الحر بيقولوا يا شباب نحن لازمنا عناصر.. تعالوا إنتو معنا ولا تخلوا مكان للسيئين.. ما بعرف يمكن معهم حق.. الجيش الحر صار عبارة عن مجموعات متنافرة يخوّن بعضها بعضاً.. وتتصارع على الغنائم..

أما جبهة النصرة ما سمعت عنها سيء.. هيي الوحيدة اللي بيحتاج الشخص حتى ينضم لها تزكية من عدد محدد من الثقات.. ويُعاقب فيها المخطئ.. ولا تنهب ولا تستحل البيوت.. حتى يُقال إنو لا أحد فيها يتكلّم بالسوء عن الأطراف الأخرى وهي الطرف الوحيد الذي يتم فيه توزيع الغنائم بمنتهى العدل على كل الأطراف، أما الجيش الحر حين يغنم فلا يعطي شيء لجبهة النصرة (على ذمة الراوي الذي أثق به)، ويقال إن كل من فيها أتى لينال الشهادة وأن أعضاءها هم دائمًا في الصفوف الأولى وكثيرًا ما نصرت الجيش الحر في مآزق لكنه خذلها.. ويقال إنها مسؤولة عن تفجير ساحة سعد الله الذي قُتل فيه الكثير من الأبرياء.. لما بتسأل بيقولوا إنهم رجعانين لفتاوى (متل إنو التتار كانو ياخدو أولاد البلد دروع بشرية ويحطوهم في المقدمة واستطاعوا بهالطريقة اقتحام معظم المدن فأصدر العلماء حينها فتوى بجواز قتل الدروع البشرية لدرء خطر استباحة التتار للمدن الآمنة) ويبقولوا إنهم كمان صرلون فترة عمبحذرو السكان من الاقتراب من أماكن تواجد الأمن والجيش اللي أهمها ساحة سعد الله.. ما بعرف إش ممكن يقول اللي مات ابنه لما يسمع هالحكي.. أو اللي انبترت أطرافه.. ما بعرف إشو الصح..

ما بعرف ليش دخلوا الجامع الأموي رغم إنه بيعرفو إنه رح ينقصف.. الجامع الأموي صار ببكي.. وسوق المدينة الأثري المحروق ببكي أكتر. ما بعرف ليش دخلوا الأحياء قبل ما يهاجموا فروع الأمن وإذا كانوا بيقدروا أساساً يعملو هيك..

يالله شقد صار القتل سهل.. من الطرفين.. والموت سهل.. كلياتنا بين معدننا الأسود بهالأزمة.. الأطباء هربوا.. المقيمين جزء كبير منهم ما عاد يقدر يوصل عالمشفى بس في جزء مهم بيقدر يوصل.. أو حتى التجأ وسكن بالمشفى بس ما بيطلع بشوف المرضى ولا بناوب.. صار في نقص حاد بالأطباء ونوعية المرضى ساءت كتير.. صاروا يجو كتيير تعبانين وكتيير بدهم عناية وغالبًا ما في غير سنة أولى ما عنده خبرة بشي.. ونفسهم هدول اللي ما عاد شفناهم بالمشفى هنن هون أبطال ثورة عالفيس.. بتقرا إش بيكتبوا بتفكر إنو الوطن ساكن بقلبهم.. بيطلع بس ع راس لسانهم.. وأول يوم بالشهر الكل بيقدر يوصل ويقبض راتبه (الحرام) اللي ما اشتغل شي لحتى يقبضه..

صرت أفكر ليش قامت الثورة.. مشان الفساد؟ طيب كل هدول الأشراف كمان فاسدين.. عبيقبضوا مال حرام.. ولو صارو مسؤولين رح يعملو متلهم وأسوأ.. وفي شباب بمنتهى الروعة.. والبراءة.. انضموا للجيش الحر.. وصارت قلوبنا تنفطر عليهم.. مو خوف من الشهادة.. معاذ الله.. بس صرت خايفة ما تكون شهادة. أو يستسهلو القتل ويقتلو حدا ما بيعرفو ليش قتلوه..

مرة كنت مناوبة برمضان.. بعد الإفطار جابو حوال 9 جثث محروقة ومتفحمة من جنب المخابرات الجوية.. الحرق أمر رهيب.. بتحسه بيطعن فيك شي.. بتحسه تعدي على الإله.. أسوأ من أي شي تاني.. بصير شكل الإنسان متل العنكبوت الأسود.. بخليك تحقد أكتر من أي شي تاني..

بعد منتصف الليل تقريبًا جابوا جثة ضابط يبدو إنو من الطائفة العلوية.. ومعه رفقاته.. رفيقه وقف عند قدمه الشاحبة (من كتر النزف) وصار يبوسها ويبكي.. ويقول لرفيقه الله يرحمك يا شهيد.. رفعت راسنا والله.. ياريتني موت متل موتتك.. بلهجته العلوية كلماته لسا بترن بأذني.. يوما صرت أقول يالله معقول في فتنة لهالدرجة.. معقول إنو مآمن لهالدرجة بصحة الشي اللي عبيعمله متل مو مآمنة.. شقد تمنيت وقتا أروح لعنده وأحكي معه.. بس ما رحت..

موقف تاني ما بروح من بالي هو جندي على حاجز للجيش النظامي مادد سجادته وعمبصلي.. رغم ندرة هالمشهد فهو موجود.. تخيلت إنو هاد ممكن يقتله حدا جاي يجاهد.. هاد اللي عمبصللي بمنتهى الخشوع.. وبنفس الوقت فكرت إنو متل هالحاجز انمسكو عنده (حازم وباسل ومصعب) وتسلموا لأهاليهم جثث محروقة..

يقال وقت دخول صلاح الدين الأيوبي لمدينة حلب عرض على أمير حلب جزء كبير من ملكه مقابل تسليم ابن نور الدين زنكي مشان ما تنهدر دماء المسلمين.. ووقت رفض أمير حلب رفع إيديه للسما وصار يبكي ويقول (يارب.. هل أعذرت في دماء الأبرياء)..

مدري أنا عايشة بالأوهام أو بالأساس ما في نظافة تامة بالحياة.. مدري القذارة تملؤنا وهاد اللي عبصير عقاب إلنا.. أنا ضيعت البوصلة.. وما بعرف إش ممكن أعمل ويرضي الله.. حاسة إنو الله غاضب كتيييير.. كتيييير.. ونحن عمنغرق.. سقطنا من

عين نفسنا.. وعيون الناس.. وعين الله.. وماضل في مثُل عليا.. طولت عليك كتيير.. بعتذر.. ادعيلنا الله يهدينا ويغفرلنا.. ويحقن دماء الأبرياء.. إن شاء الله ما أكون ظلمت حدا"

[vi] "ممكن أتفهم.. تبرير البعض لعسكرة الثورة.. ودفاعهم عن حمل السلاح بسبب قسوة و وحشية وعنف النظام في قمع المتظاهرين السلميين (يمكن كان البعض منهم متصور أن النظام سيأخذهم بالأحضان أو سيرميهم بالياسمين الدمشقي، أو يقلهم يا حبيبي و يا عيني (وذلك دون الإنتباه و النظر بدقة إلى خلفيات و دوافع حملة السلاح وهل هم قولا و فعلا يهدفون إلى حماية المتظاهرين في المناطق المختلفة من سوريا والعمل على إسقاط النظام لتحقيق الحرية والكرامة للشعب السوري!).و دفاعهم وتبريرهم لكثير من تصرفات وخطاب المجموعات المسلحة ومنها طريقتهم في إدارة المعارك وعلاقتهم مع المدنيين في المناطق التي لا سلطة للنظام عليها وذلك مع السكوت والتغاضي عن مصادر التمويل والدعم للفصائل المسلحة / وخاصة من لهم أجندات وأهداف أبعد ما تكون عن مطالب ثورة الحرية و الكرامة ... / . المرفوض من وجهة نظري والمستهجن هو الخطاب الطائفي العنصري في التحريض ضد النظام ممن يفترض أن يكونوا ثوار حرية وكرامة.. وعدم رفض البعض لهكذا خطاب بل تبريره.. على أنه ردة فعل نتيجة سلوك النظام وإجرامه.. وكأني بهم.. عندما انتفض هؤلاء السوريون كان في تقديرهم أن النظام وخاصة رأسه سيسارع إلى تلبية مطالبهم.. أو تصوراتهم بأن النظام سيسقط في غضون أيام وعلى أبعد تقدير أشهر معدودات.. كل هذا بسبب غياب الوعي السياسي وخاصة عدم فهم طبيعة النظام / بنيته، آليات عمله وعلاقاته ../ والمعيب هو استمرار غياب هذا الوعي ... والتخبط في الخطاب والممارسة والانجرار إلى ردات الفعل والتبرير المقيت.. غياب خطاب المواطنة مؤشر إلى أن الحرب ستمتد لسنوات ... الطريق إلى الحرية.. على ما يبدو أمامنا ليل طويل.. ولكن لا مفر من الأمل."

وجاء في رسالة أخرى منه:

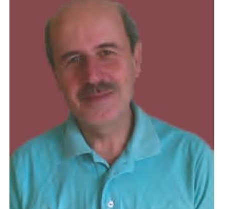
"ما هو مطلوب مني...؟ شو المفروض أتصرف؟ ... شو لازم أعمل لتخفيف الألم و الدفع باتجاه وقف القتل و تهجير الناس ... الخطاب المقبول ...الحرب، عبثية

ما يحصل في سوريا ... الإجرام الذي يرتكبه النظام، ردات فعل الناس والمقاتلين ... الأعمال العسكرية والمواجهات مع قوات النظام لن تؤدي إلى هزيمته و بالتالي إزاحته عن مقاليد السلطة؛ لأن المجموعات المسلحة ونتيجة لخطابها وسلوكها تطيل أمد الحرب و بقاء النظام ... هل هذه الأعمال العسكرية هي الثورة. هل هذا ما كنا نحلم به ... من أن ينتفض السوريون يوما ما بوجه الاستبداد والتسلط والسلطة المعتدية ... هل ما يحصل اليوم هو الثورة على الظلم والاستبداد ... هل حملة السلاح بوجه النظام وعصاباته هم ثوار حرية ... هل هم ناس يريدون الإنتقام والثأر والقصاص ممن اعتدى عليهم...!! أليس الثائر من يخرج طالبا العدالة والمحاسبة ورد المظالم... ما هو موقفنا مما يحصل من ردات فعل من قبل المسلحين ... هل هم ثوار ... هل النزف الحاصل هو تضحيات مطلوبة للخلاص من الطاغية وزمرته وعصاباته، أم هو نزيف وبس ...؟ نعم الخلاص من الطغيان والتسلط يتطلب بذل الكثير من الجهد وتقديم التضحيات، فهل ما يحصل اليوم هو في اتجاه التخلص من الاستبداد وإسقاط النظام المتسلط الغاشم ...؟ أخاطب السوريين الذين حلموا وعملوا من أجل الحرية والكرامة.. ما هو موقفنا مما يحصل اليوم فوق الجغرافيا السورية ... هل أعمال وتصرفات الفصائل المسلحة هي الثورة ... هل مواجهاتهم مع النظام هي الثورة ... هل خطابهم وأفعالهم هي ثورة الحرية والكرامة ... هل شعاراتهم ورموزهم هي ثورة العدالة؟"

هذا الكتاب

"هل يمكن لنظام مستبد أن يكون شريكًا في حلِّ المشكلة التي كان له باع طويل في مفاقمتها واستفحالها؟". لم تكن المشكلة في الواقع سوى هذا الطريق المسدود الذي وصل إليه نظام الاستبداد البعثي في سورية خلال أربعة عقود وعلى الصعد كلها: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

يقدم الكاتب في مختلف نصوص الكتاب مجمل الأسباب التي جعلت من "الانفجار السوري" أمرًا حتميًّا ولا مناص منه، وذلك من خلال عرض للإرهاصات التي أدت إلى "الانفجار السوري"، وسرد لذكريات وحوادث ومواقف شديدة الدلالة، شارك فيها الكاتب على أرض الواقع، كي ينتهي إلى تقديم رؤيته الفكرية والسياسية لمراحل تطور الحدث السوري ولاسيما في السنتين الأولى والثانية، مع ما رافق ذلك من مشاعر الخوف والبهجة، وما اعتراه من إخفاقات وآمال.




منير شحود
من مواليد دريكيش- طرطوس- سورية 1958
حائز على شهادة دكتور في الطب MD من جامعة دمشق، ودكتوراه PHD فلسفة في الطب عام 1989/ سانت بطرسبورغ/ روسيا/ اختصاص تشريح الإنسان
مدرس في عدة جامعات سورية وعربية.
مؤلف ومترجم لعدد من الكتب العلمية والثقافية

السعر: 12 دولارًا


ISBN 978-605-226-003-6


9 786052 260036

